(٥٩) سُورَةُ الحَشْرِ مَدَنِيَّة
وآيَاتُهَا أربع وعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سبح لله مافى السموات ومافى الأرض وهوالعزيز الحكيم ، هوالذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ﴾ صالح بنوا النضير رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يكونوا عليه ولا له ، فلما ظهر يوم بدر قالوا هو النبى المنعوت فى التوراة بالنصر ، فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا ، فخرج كعب بن الأشرف فى أربعين راكباً إلى مكة وحالفوا أبا سفيان عند الكعبة ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة الأنصارى ، فقتل كعباً غيلة ، وكان أخاه من الرضاعة ، ثم صحبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتائب وهو على حمار مخطوم بليف ، فقال لهم أخرجوا من المدينة ، فقالوا الموت أحب إلينا من ذلك فتنادوا بالحرب ، وقيل استمهلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ، فبعث إليهم عبد الله ابن أبى وقال لا تخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم ، ولئن خرجتم لنخرجن معكم ، فحصنوا الأزقة فحاصرهم إحدى وعشرون ليلة ، فلما قذف الله فى قلوبهم الرعب ، وآيسوا من نصر المنافقين طلبوا الصلح ، فأبى إلا الجلاء ، على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاءوا من متاعهم ، فجلوا إلى الشأم إلى أريحاء وأزرعات إلا أهل بيتين منهم آل أبى الحقيق ، وآل حيى ابن أخطب ، فإنهم لحقوا بخيبر ، ولحقت طائفة بالحيرة . وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ ما معنى هذه اللام فى قوله (لأول الحشر) (الجواب) إنما هى اللام فى قولك : جئت لوقت كذا ، والمعنى : أخرج الذين كفروا عند أول الحشر .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما معنى أول الحشر ؟ (الجواب) أن الحشر هو إخراج الجمع من مكان إلى مكان ، وإما أنه لم سمى هذا الحشر بأول الحشر فبيانه من وجوه : (أحدها) وهو قول ابن عباس والأكثرين إن هذا أول حشر أهل الكتاب ، أى أول مرة حشروا وأخرجوا من جزيرة

مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟

العرب لم يصبهم هذا الذل قبل ذلك ، لأنهم كانوا أهل منعة وعز (وثانيها) أنه تعالى جعل إخراجهم من المدينة حشراً ، وجعله أول الحشر من حيث يحشر الناس للساعة إلى ناحية الشام ، ثم تدركهم الساعة هناك (وثالثها) أن هذا أول حشرهم ، وأما آخر حشرهم فهو إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام (ورابعها) معناه أخرجهم من ديارهم لأول مايحشرهم لقتالهم ، لأنه أول قتال قاتلهم رسول الله (وخامسها) قال قتادة هذا أول الحشر ، والحشر الثانى نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ، وذكروا أن تلك النار ترى بالليل ولا ترى بالنهار .

قوله تعالى ﴿ ما ظننتم أن يخرجوا ﴾ .

قال ابن عباس إن المسلمين ظنوا أنهم لعزتهم وقوتهم لا يحتاجون إلى أن يخرجوا من ديارهم ، وإنما ذكر الله تعالى ذلك تعظيما لهذه النعمة ، فإن النعمة إذا وردت على المرء والظن بخلافه تكون أعظم ، فالمسلمون ماظنوا أنهم يصلون إلى مرادهم فى خروج هؤلاء اليهود ، فيتخلصون من ضرر مكايدهم ، فلما تيسر لهم ذلك كان توقع هذه النعمة أعظم .

قوله تعالى ﴿ وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ﴾ .

قالوا كانت حصونهم منيعة فظنوا أنها تمنعهم من رسول الله ، وفى الآية تشريف عظيم لرسول الله ، فإنها تدل على أن معاملتهم مع رسول الله هى بعينها نفس المعاملة مع الله ، فإن قيل ماالفرق بين قولك : ظنوا أن حصونهم تمنعهم أو ما نعتهم وبين النظم الذى جاء عليه ، قلنا فى تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم ، وفى تصيير ضميرهم إسماً ، وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم فى أنفسهم أنهم فى عزة ومنعة لا يبالون بأحد يطمع فى منازعتهم ، وهذه المعانى لاتحصل فى قولك : وظنوا أن حصونهم تمنعهم .

قوله تعالى : ﴿ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الآية وجهان (الأول) أن يكون الضمير فى قوله (فأتاهم) عائد إلى اليهود ، أى فأتاهم عذاب الله وأخذهم من حيث لم يحتسبوا (والثانى) أن يكون عائداً إلى المؤمنين أى فأتاهم نصر الله وتقويته من حيث لم يحتسبوا ، ومعنى : لم يحتسبوا ، أى لم يظنوا ولم يخطر ببالهم ، وذلك بسبب أمرين (أحدهما) قتل رئيسهم كعب بن الأشرف على يد أخيه غيلة ، وذلك مما أضعف قوتهم ، وفتت عضدهم ، وقل من شوكتهم (والثانى) بما قذف فى قلوبهم من الرعب .

وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (فأتاهم الله) لا يمكن إجراؤه على ظاهره باتفاق جمهور العقلاء ، فدل على باب التأويل مفتوح ، وأن صرف الآيات عن ظواهرها بمقتضى الدلائل العقلية جائز .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف : قرىء (فآتاهم الله) أى فآتاهم الهلاك ، واعلم أن هذه القراءة لاتدفع مابيناه من وجوه التأويل ، لأن هذه القراءة لاتدفع القراءة الأولى ، فإنها ثابتة بالتواتر ، ومتى كانت ثابتة بالتواتر لايمكن دفعها ، بل لابد فيها من التأويل .

قوله تعالى ﴿ وقذف فى قلوبهم الرعب ﴾ قال أهل اللغة : الرعب ، الخوف الذى يستوعب الصدر ، أى يملؤه ، وقذفه إثباته فيه ، وفيه قالوا فى صفة الأسد : مقذف ، كأنما قذف باللحم قذفاً لاكتنازه وتداخل أجزائه ، واعلم أن هذه الآية تدل على قولنا من أن الأمور كلها لله ، وذلك لأن الآية دلت على أن وقوع ذلك الرعب فى قلوبهم كان من الله ودلت على أن ذلك الرعب صار سببا فى إقدامهم على بعض الأفعال ، وبالجملة فالفعل لا يحصل إلا عند حصول داعية متأكدة فى القلب ، وحصول تلك الداعية لا يكون إلا من الله ، فكانت الأفعال بأسرها مسندة إلى الله بهذا الطريق .

قوله تعالى : ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال أبو على : قرأ أبو عمرو وحده (يخربون) مشددة ، وقرأ الباقون (يخربون) خفيفة ، وكان أبو عمرو يقول : الإخراب أن يترك الشىء خراباً والتخريب الهدم ، وبنو النضير خربوا وما أخربوا قال المبرد : ولا أعلم لهذا وجهاً ، ويخربون هو الأصل خرب المنزل ، وأخربه صاحبه ، كقوله : علم وأعلمه ، وقام وأقامه ، فإذا قلب يخربون من التخريب ، فإنما هو تكثير ، لأنه ذكر بيوتاً تصلح للقليل والكثير ، وزعم سيبويه أنهما يتعاقبان فى الكلام ، فيجرى كل واحد مجرى الآخر ، نحو فرحته وأفرحته ، وحسنه الله وأحسنه ، وقال الأعشى :

« وأخربت من أرض قوم دياراً »

وقال الفراء : يخربون بالتشديد يهدمون ، وبالتخفيف يخربون منها ويتركونها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر المفسرون فى بيان أنهم كيف كانوا (يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين) وجوهاً (أحدها) أنهم لما أيقنوا بالجلاء ، حسدوا المسلمين أن يسكنوا مساكنهم ومنازلهم ، فجعلوا يخربونها من داخل ، والمسلمون من خارج (وثانيها) قال مقاتل : إن المنافقين دسوا إليهم أن لايخرجوا ، ودربوا على الأزقة وحصنوها ، فنقضوا بيوتهم وجعلوها كالحصون على أبواب الأزقة ، وكان المسلمون يخربون سائر الجوانب (وثالثها) أن المسلمين إذا ظهروا على درب من دروبهم خربوه ، وكان اليهود يتأخرون إلى ما وراء بيوتهم ، وينقبونها من أدبارها (ورابعها) أن المسلمين كانوا يخربون ظواهر البلد ، واليهود لما أيقنوا بالجلاء ، وكانوا ينظرون

فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾

إلى الخشبة فى منازلهم مما يستحسنونه أو الباب فيهدمون بيوتهم ، وينزعونها ويحملونها على الإبل ، فإن قيل مامعنى تخريبهم لها بأيدى المؤمنين ؟ قلنا قال الزجاج : لما عرضوهم لذلك وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروهم به وكلفوه إياهم .

قوله تعالى : ﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ .

اعلم أنا قد تمسكنا بهذه الآية فى كتاب المحصول من أصول الفقه على أن القياس حجة فلا نذكره ههنا ، إلا أنه لابد ههنا من بيان الوجه الذى أمر الله فيه بالاعتبار ، وفيه احتمالات (أحدها) أنهم اعتمدوا على حصونهم ، وعلى قوتهم وشوكتهم ، فأباد الله شوكتهم وأزال قوتهم ، ثم قال (فاعتبروا يا أولى الأبصار) ولا تعتمدوا على شىء غير الله ، فليس للزاهد أن يعتمد على زهده ، فإن زهده لا يكون أكثر من زهد بلعام ، وليس للعالم أن يعتمد على علمه ، أنظر إلى ابن الراوندى مع كثرة ممارسته كيف صار ، بل لااعتماد لأحد فى شىء إلا على فضل الله ورحمته (وثانيها) قال القاضى : المراد أن يعرف الإنسان عاقبة الغدر والكفر والطعن فى النبوة ، فإن أولئك اليهود وقعوا بشؤم الغدر ، والكفر فى البلاء والجلاء ، والمؤمنون أيضاً يعتبرون به فيعدلون عن المعاصى .

﴿ فإن قيل ﴾ هذا الاعتبار إنما يصح لو قلنا إنهم غدروا وكفروا فعذبوا ، وكان السبب فى ذلك العذاب هو الكفر والغدر ، إلا أن هذا القول فاسد طرداً وعكساً . أما الطرد فلأنه رب شخص غدر وكفر ، وما عذب فى الدنيا . وأما العكس فلأن أمثال هذه المحن ، بل أشد منها وقعت للرسول عليه السلام ولأصحابه ، ولم يدل ذلك على سوء أديانهم وأفعالهم ، وإذا فسدت هذه العلة فقد بطل هذا الاعتبار ، وأيضاً فالحكم الثابت فى الأصل هو أنهم (يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين) وإذا عللنا ذلك بالكفر والغدر يلزم فى كل من غدر وكفر أن يخرب بيته بيده وبأيدى المسلمين ، ومعلوم أن هذا لايصلح ، فعلمنا أن هذا الاعتبار غير صحيح (والجواب) أن الحكم الثابت فى الأصل له ثلاث مراتب (أولها) كونه تخريباً للبيت بأيديهم وأيدى المؤمنين (وثانيها) وهو أعم من الأول ، كونه عذاباً فى الدنيا (وثالثها) وهو أعم من الثانى ، كونه مطلق العذاب ، والغدر والكفر إنما يناسبان العذاب من حيث هو عذاب ، فأما خصوص كونه تخريباً أو قتلا فى الدنيا أو فى الآخرة فذاك عديم الأثر ، فيرجع حاصل القياس إلى أن الذين غدروا وكفروا وكذبوا عذبوا من غير اعتبار أن ذلك العذاب كان فى الدنيا أو فى الآخرة ، والغدر والكفر يناسبان العذاب ، فعلمنا أن الكفر والغدرهما السببان فى العذاب ، فأينما حصلا حصل العذاب

وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ  ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٤)

من غير بيان أن ذلك العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة ، ومتى قررنا القياس والاعتبار على هذا الوجه زالت المطاعن والنقوض وتم القياس على الوجه الصحيح .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الاعتبار مأخوذ من العبور والمجاوزة من شىء إلى شىء ، ولهذا سميت العبرة عبرة لأنها تنتقل من العين إلى الخد ، وسمى المعبر معبراً لأن به تحصل المجاوزة ، وسمى العلم المخصوص بالتعبير ، لأن صاحبه ينتقل من المتخيل إلى المعقول ، وسميت الألفاظ عبارات ، لأنها تنقل المعانى من لسان القائل إلى عقل المستمع ، ويقال السعيد من اعتبر بغيره ، لأنه ينتقل عقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه ، ولهذا قال المفسرون : الاعتبار هو النظر فى حقائق الأشياء وجهات دلالتها ليعرف بالنظر فيها شىء آخر من جنسها ، وفى قوله (يا أولى الأبصار) وجهان (الأول) قال ابن عباس : يريد يا أهل اللب والعقل والبصائر (والثانى) قال الفراء (يا أولى الأبصار) يا من عاين تلك الواقعة المذكورة .

قوله تعالى : ﴿ ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار ﴾ معنى الجلاء فى اللغة ، الخروج من الوطن والتحول عنه ، فإن قيل أن(لولا) تفيد انتفاء الشىء لثبوت غيره فيلزم من ثبوت الجلاء عدم التعذيب فى الدنيا ، لكن الجلاء نوع من أنواع التعذيب ، فإذاً يلزم من ثبوت الجلاء عدمه وهو محال ، قلنا معناه : ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا بالقتل كما فعل بإخوانهم بنى قريظة ، وأما قوله (ولهم فى الآخرة عذاب النار) فهو كلام مبتدأ وغير معطوف على ماقبله ، إذ لو كان معطوفاً على ما قبله لزم أن لا يوجد لما بينا ، أن لولا تقتضى انتفاء الجزاء لحصول الشرط .

أما قوله تعالى ﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ فهو يقتضى أن علة ذلك التخريب هو مشاقة الله ورسوله ، فإن قيل لو كانت المشاقة علة لهذا التخريب لوجب أن يقال : أينما حصلت هذه المشاقة حصل التخريب ، ومعلوم أنه ليس كذلك ، قلنا هذا أحد مايدل على أن تخصيص العلة المنصوصة لا يقدح فى صحتها .

ثم قال ﴿ ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾ والمقصود منه الزجر .

مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ

قوله تعالى : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (من لينة) بيان لما قطعتم ، ومحل ما نصب بقطعتم ، كأنه قال : أى شىء قطعتم ، وأنث الضمير الراجع إلى ما فى قوله (أو تركتموها) لأنه فى معنى اللينة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال أبو عبيدة : اللينة النخلة ما لم تكن عجوة أو برنية ، وأصل لينة لونة ، فذهبت الواو لكسرة اللام ، وجمعها ألوان ، وهى النخل كله سوى البرنى والعجوة ، وقال بعضهم : اللينة النخلة الكريمة ، كأنهم اشتقوها من اللين وجمعها لين ، فإن قيل لم خصت اللينة بالقطع ؟ قلنا إن كانت من الألوان فليستبقوا لأنفسهم العجوة والبرنية ، وإن كانت من كرام النخل فليكون غيظ اليهود أشد .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف : قرىء قوماً عل أصلها ، وفيه وجهان (أحدهما) أنه جمع أصل كرهن ورهن ، واكتفى فيه بالضمة عن الواو ، وقرىء قائماً على أصوله ، ذهاباً إلى لفظ ما ، وقوله (فبإذن الله) أى قطعها بإذن الله وبأمره (وليخزى الفاسقين) أى ولأجل إخزاء الفاسقين ، أى اليهود أذن الله فى قطعها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ روى أنه عليه الصلاة والسلام حين أمر أن يقطع نخلهم ويحرق ، قالوا يامحمد قد كنت تنهى عن الفساد فى الأرض فما بال قطع النخل وتحريقها ؟ وكان فى أنفس المؤمنين من ذلك شىء ، فنزلت هذه الآية ، والمعنى أن الله إنما أذن فى ذلك حتى يزداد غيظ الكفار ، وتتضاعف حسرتهم بسبب نفاذ حكم أعدائهم فى أعز أموالهم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ احتج العلماء بهذه الآية على أن حصون الكفرة وديارهم لا بأس أن تهدم وتحرق وتغرق وترمى بالمجانيق ، وكذلك أشجارهم لا بأس بقلعها مثمرة كانت أو غير مثمرة ، وعن ابن مسعود قطعوا منها ما كان موضعاً للقتال .

﴿ المسألة السادسة ﴾ روى أن رجلين كانا يقطعان أحدهما العجوة ، والآخر اللون ، فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال هذا : تركتها لرسول الله ، وقال هذا : قطعتها غيظاً للكفار ، فاستدلوا به على جواز الاجتهاد ، وعلى جوازه بحضرة الرسول .

قوله تعالى : ﴿ ما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله

ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾

يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ قال المبرد : يقال فاء يفيء إذا رجع ، وأفاءه الله إذا رده ، وقال الأزهرى : الفيء ما رده الله على أهل دينه ، من أموال من خالف أهل دينه بلا قتال ، إما بأن يجلوا عن أوطانهم ويخلوها للمسلمين ، أو يصالحوا على جزية يؤدونها عن رؤوسهم ، أو مال غير الجزية يفتدون به من سفك دمائهم ، كما فعله بنو النضير حين صالحو رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لكل ثلاثة منهم حمل بعير مما شاءوا سوى السلاح ، ويتركوا الباقى ، فهذا المال هو الفيء ، وهو ما أفاء الله على المسلمين ، أى رده من الكفار إلى المسلمين ، وقوله (منهم) أى من يهود بنى النضير ، وقوله (فما أوجفتم) يقال وجف الفرس والبعير . يجف وجفاً ووجيفاً ، وهو سرعة السير ، وأوجفه صاحبه ، إذا حمله على السير السريع ، وقوله (عليه) أى على ما أفاء الله ، وقوله (من خيل ولا ركاب) الركاب ما يركب من الإبل ، واحدتها راحلة ، ولا واحد لها من لفظها ، والعرب لا يطلقون لفظ الراكب إلا على راكب البعير ، ويسمون راكب الفرس فارساً ، ومعنى الآية أن الصحابة طلبوا من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقسم الفيء بينهم كما قسم الغنيمة بينهم ، فذكر الله الفرق بين الأمرين ، وهو أن الغنيمة ما أتعبتم أنفسكم فى تحصيلها وأوجفتم عليها الخيل والركاب . بخلاف الفيء فإنكم ما تحملتم فى تحصيله تعباً ، فكان الأمر فيه مفوضاً إلى الرسول يضعه حيث يشاء .

﴿ ثم ههنا سؤال ﴾ وهو أن أموال بنى النضير أخذت بعد القتال لأنهم حوصروا أياماً ، وقاتلوا وقتلوا ثم صالحوا على الجلاء . فوجب أن تكون تلك الأموال من جملة الغنيمة لا من جملة الفيء ، ولأجل هذا السؤال ذكر المفسرون ههنا وجهين (الأول) أن هذه الآية ما نزلت فى قرى بنى النضير لأنهم أوجفوا عليهم بالخيل والركاب وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون بل هو فى فدك ، وذلك لأن أهل فدك انجلوا عنه فصارت تلك القرى والأموال فى يد الرسول عليه السلام من غير حرب فكان عليه الصلاة والسلام يأخذ من غلة فدك نفقته ونفقة من يعوله ، ويجعل الباقى فى السلاح والكراع ، فلما مات ادعت فاطمة عليها السلام أنه كان ينحلها فدكا ، فقال أبو بكر : أنت أعز الناس على فقراً ، وأحبهم إلى غنى ، لكنى لا أعرف صحة قولك ، ولا يجوز أن أحكم بذلك ، فشهد لها أم أيمن ومولى للرسول عليه السلام ، فطلب منها أبو بكر الشاهد الذى يجوز قبول شهادته فى الشرع فلم يكن ، فأجرى أبو بكر ذلك على ما كان يجريه الرسول صلى الله عليه وسلم ينفق منه على من كان ينفق عليه الرسول ، ويجعل ما يبقى فى السلاح والكراع ، وكذلك عمر جعله فى يد على ليجريه على هذا المجرى ، ورد ذلك فى آخر عهد عمر إلى عمر ، وقال إن بنا غنى وبالمسلمين حاجة إليه ، وكان عثمان رضي الله عنه يجريه كذلك ، ثم صار إلى على فكان يجريه هذا المجرى

مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾

فالأئمة الأربعة اتفقوا على ذلك (والقول الثانى) أن هذه الآية نزلت فى بنى النضير وقراهم ، وليس للمسلمين يومئذ كثير خيل ولا ركاب ، ولم يقطعوا اليها مسافة كثيرة ، وإنما كانوا على ميلين من المدينة فمشوا إليها مشياً ، ولم يركب إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان راكب جمل ، فلما كانت المقاتلة قليلة والخيل والركب غير حاصل ، أجراه الله تعالى مجرى مالم يحصل فيه المقاتلة أصلا فخص رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك الأموال ، ثم روى أنه قسمها بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة وهم أبو دجانة وسهل بن حنيف والحرث بن الصمة .

ثم إنه تعالى ذكر حكم الفىء فقال ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ .

قال صاحب الكشاف : لم يدخل العاطف على هذه الجملة لأنها بيان للأولى فهى منها وغير أجنبية عنها ، واعلم أنهم أجمعوا على أن المراد من قوله (ولذى القربى) بنو هاشم وبنو المطلب . قال الواحدى كان الفىء فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم مقسوماً على خمسة أسهم أربعة منها لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة وكان الخمس الباقى يقسم على خمسة أسهم ، سهم منها لرسول الله أيضاً ، والأسهم الأربعة لذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وأما بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام فللشافعى فيما كان من الفىء لرسول الله قولان (أحدهما) أنه للمجاهدين المرصدين للقتال فى الثغور لأنهم قاموا مقام رسول الله فى رباط الثغور (والقول الثانى) أنه يصرف إلى مصالح المسلمين من سد الثغور وحفر الأنهار وبناء القناطر ، يبدأ بالأهم فالأهم ، هذا فى الأربعة أخماس التى كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما السهم الذى كان له من خمس الفىء فإنه لمصالح المسلمين بلا خلاف ، وقوله تعالى (كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال المبرد : الدولة اسم للشىء الذى يتداوله القوم بينهم يكون كذا مرة وكذا مرة ، والدولة بالفتح انتقال حال سارة إلى قوم عن قوم ، فالدولة بالضم اسم ما يتداول ، وبالفتح مصدر من هذا ، ويستعمل فى الحالة السارة التى تحدث للانسان ، فيقال هذه دولة فلان

لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى

أى تداوله ، فالذولة اسم لما يتداول من المال ، والدولة اسم لما ينتقل من الحال ، ومعنى الآية كى لايكون الفيء الذى حقه أن يعطى للفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها واقعاً فى يد الأغنياء ودولة لهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء : دولة ودولة بفتح الدال وضمها ، وقرأ أبو جعفر : دولة مرفوعة الدال والهاء ، قال أبو الفتح : يكون ههنا هى التامة كقوله (وإن كان ذو عسرة فنظرة) يعنى كى لا يقع دولة جاهلية ، ثم قال (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) يعنى ماأعطاكم الرسول من الفيء فخذوه فهو لكم حلال ومانهاكم عن أخذه فانتهوا (واتقوا الله) فى أمر الفيء (إن الله شديد العقاب) على مانهاكم عنه الرسول ، والأجود أن تكون هذه الآية عامة فى كل ما آتى رسول الله ونهى عنه وأمر الفيء داخل فى عمومه .

قوله تعالى : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ .

اعلم أن هذا بدل من قوله (ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) كأنه قيل أعنى بأولئك الأربعة هؤلاء الفقراء والمهاجرين الذين من صفتهم كذا وكذا ، ثم إنه تعالى وصفهم بأمور : (أولها) أنهم فقراء (وثانيها) أنهم مهاجرون (وثالثها) أنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم يعنى أن كفار مكة أحوجوهم إلى الخروج فهم الذين أخرجوهم (ورابعها) أنهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، والمراد بالفضل ثواب الجنة وبالرضوان قوله (ورضوان من الله أكبر) (وخامسها) قوله (وينصرون الله ورسوله) أى بأنفسهم وأموالهم (وسادسها) قوله (أولئك هم الصادقون) يعنى أنهم لما هجروا لذات الدنيا وتحملوا شدائدها لأجل الدين ظهر صدقهم فى دينهم ، وتمسك بعض العلماء بهذه الآية على إمامة أبى بكر رضى الله عنه ، فقال هؤلاء الفقراء من المهاجرين والأنصار كانوا يقولون لأبى بكر ياخليفة رسول الله ، والله يشهد على كونهم صادقين ، فوجب أن يكونوا صادقين فى قولهم ياخليفة رسول الله ، ومتى كان الأمر كذلك وجب الجزم بصحة إمامته ، ثم إنه تعالى ذكر الأنصار وأثنى عليهم حين طابت أنفسهم عن الفيء إذ للمهاجرين دونهم فقال :

﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم

صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

حاجة مما أوتو ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ والمراد من الدار المدينة وهى دار الهجرة تبوأها الأنصار قبل المهاجرين وتقدير الآية : والذين تبوءوا المدينة والإيمان من قبلهم (فإن قيل) فى الآية سؤالان (أحدهما) أنه لا يقال تبوأ الإيمان (والثانى) بتقدير أن يقال ذلك لكن الأنصار ما تبوءوا الإيمان قبل المهاجرين (والجواب) عن الأول من وجوه (أحدها) تبوءوا الدار وأخلصوا الإيمان كقوله :

ولقد رأيتك فى الوغى متقلداً سيفاً ورمحا

(وثانيها) جعلوا الإيمان مستقراً ووطناً لهم لتمكنهم منه واستقامتهم عليه . كما أنهم لما سألوا سلمان عن نسبه فقال : أنا ابن الإسلام (وثالثها) أنه سمى المدينة بالإيمان ، لأن فيها ظهر الإيمان وقوى (والجواب) عن السؤال الثانى من وجهين (الأول) أن الكلام على التقديم والتأخير ، والتقدير : والذين تبوءوا الدار من قبلهم والإيمان (والثانى) أنه على تقدير حذف المضاف والتقدير : تبوءوا الدار والإيمان من قبل هجرتهم ، ثم قال (ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا) وقال الحسن : أى حسداً وحرارة وغيظاً مما أوتى المهاجرون من دونهم ، وأطلق لفظ الحاجة على الحسد والغيظ والحرارة ، لأن هذه الأشياء لا تنفك عن الحاجة ، فأطلق اسم اللازم على الملزوم على سبيل الكناية ، ثم قال (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) يقال آثره بكذا إذا خصه به ، ومفعول الإيثار محذوف ، والتقدير : ويؤثرونهم بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم . عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للأنصار «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من دوركم وأموالكم وقسمت لكم من الغنيمة كما قسمت لهم وإن شئتم كان لهم الغنيمة ولكم دياركم وأموالكم . فقالوا لا بل نقسم لهم من ديارنا وأموالنا ولا نشاركهم فى الغنيمة » فأنزل الله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) فبين أن هذا الإيثار ليس عن غنى عن المال ، ولكنه عن حاجة وخصاصة وهى الفقر ، وأصلها من الخصاص وهى الفرج ، وكل خرق فى منخل أو باب أو سحاب أو برقع فهى خصاص ، الواحد خصاصة ، وذكر المفسرون أنواعاً من إيثار الأنصار للضيف بالطعام وتعللهم عنه حتى يشبع الضيف ، ثم ذكروا أن الآية نزلت فى ذلك الإيثار ، والصحيح أنها نزلت بسبب إيثارهم المهاجرين بالفىء ، ثم لا يمتنع أن يدخل فيها سائر الإيثارات ، ثم قال (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) الشح بالضم والكسر ، وقد قرىء بهما .

واعلم أن الفرق بين الشح والبخل هو أن البخل نفس المنع ، والشح هو الحالة النفسانية التى

وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ  أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١)

تقتضى ذلك المنع ، فلما كان الشح من صفات النفس ، لا جرم قال تعالى (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) الظافرون بما أرادوا ، قال ابن زيد : من لم يأخذ شيئاً نهاه الله عن أخذه ولم يمنع شيئاً أمره الله بإعطائه فقد وقى شح نفسه .

قوله تعالى : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾ .

اعلم أن قوله (والذين جاءوا من بعدهم) عطف أيضاً على المهاجرين وهم الذين هاجروا من بعد ، وقيل التابعون بإحسان وهم الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة ، وذكر تعالى أنهم يدعون لأنفسهم ولمن سبقهم بالإيمان ، وهو قوله (يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا) أى غشاً وحسداً وبغضاً .

واعلم أن هذه الآيات قد استوعبت جميع المؤمنين لأنهم إما المهاجرون أو الأنصار أو الذين جاءوا من بعدهم ، وبين أن من شأن من جاء من بعد المهاجرين والأنصار أن يذكر السابقين وهم المهاجرون والأنصار بالدعاء والرحمة فمن لم يكن كذلك بل ذكرهم بسوء كان خارجاً من جملة أقسام المؤمنين بحسب نص هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ، وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾

قال المقاتلان : يعنى عبدالله بن أبى ، وعبدالله بن نبتل ، ورفاعة بن زيد ، كانوا من الأنصار ، ولكنهم نافقوا يقولون لإخوانهم ، وهذه الإخوة تحتمل وجوهاً (أحدها) الإخوة فى الكفر لأن اليهود والمنافقين كانوا مشتركين فى عموم الكفر بمحمد ﷺ (وثانيها) الأخوة بسبب المصادقة والموالاة والمعاونة (وثالثها) الأخوة بسبب ما بينهما من المشاركة فى عداوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أخبر

لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ

تعالى عنهم أنهم قالوا لليهود (لئن أخرجتم) من المدينة (لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم) أى فى خذلانكم (أحداً أبداً) ووعدوهم النصر أيضاً بقولهم (وإن قوتلتم لننصرنكم) ثم إنه تعالى شهد على كونهم كاذبين فى هذا القول فقال (والله يشهد إنهم لكاذبون) .

ولما شهد على كذبهم على سبيل الإجمال أتبعه بالتفصيل فقال : ﴿ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ .

واعلم أنه تعالى عالم بجميع المعلومات التى لا نهاية لها ، فعلم الموجودات فى الأزمنة الثلاثة ، والمعدومات فى الأزمنة الثلاثة ، وعلم فى كل واحد من هذه الوجوه الستة ، أنه لو كان على خلاف ما وقع كيف كان يكون على ذلك التقدير ، فههنا أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لئن أخرجوا فهؤلاء المنافقون لا يخرجون معهم ، وقد كان الأمر كذلك ، لأن بنى النضير لما أخرجوا لم يخرج معهم المنافقون ، وقوتلوا أيضاً فما نصروهم ، فأما قوله تعالى (ولئن نصروهم) فتقديره كما يقول المعترض الطاعن فى كلام الغير ، لا نسلم أن الأمر كما تقول ، ولئن سلمنا أن الأمر كما تقول ، لكنه لا يفيدك فائدة ، فكذا ههنا ذكر تعالى : أنهم لا ينصرونهم ، وبتقدير أن ينصروا إلا أنهم لابد وأن يتركوا تلك النصرة وينهزموا ، ويتركوا أولئك المنصورين فى أيدى الأعداء ، ونظير هذه الآية قوله (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) ، فأما قوله (ثم لا ينصرون) ففيه وجهان : (الأول) أنه راجع إلى المنافقين يعنى لينهزمن المنافقون (ثم لا ينصرون) بعد ذلك أى يهلكهم الله ، ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم (والثانى) لينهزمن اليهود ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين .

ثم ذكر تعالى : أن خوف المنافقين من المؤمنين أشد من خوفهم من الله تعالى فقال :

﴿ لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ أى لا يعلمون عظمة الله حتى يخشوه حق خشيته .

ثم قال تعالى ﴿ لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر ﴾ يريد أن هؤلاء اليهود والمنافقين لا يقدرون على مقاتلتكم مجتمعين إلا إذا كانوا فى قرى محصنة بالخنادق والدروب

بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾

أو من وراء جدر ، وذلك بسبب أن الله ألقى فى قلوبهم الرعب ، وأن تأييد الله ونصرته معكم ، وقرىء (جدر) بالتخفيف وجدار وجدر وجدر وهما الجدار .

ثم قال تعالى ﴿ بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ . وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) يعنى أن البأس الشديد الذى يوصفون به إنما يكون إذا كان بعضهم مع بعض ، فأما إذا قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة ، لأن الشجاع يجبن . والعز يذل عند محاربة الله ورسوله (وثانيها) قال مجاهد : المعنى أنهم إذا اجتمعوا يقولون لنفعلن كذا وكذا ، فهم يهددون المؤمنين ببأس شديد من وراء الحيطان والحصون ، ثم يحترزون عن الخروج للقتال فبأسهم فيما بينهم شديد ، لا فيما بينهم وبين المؤمنين (وثالثها) قال ابن عباس : معناه بعضهم عدو للبعض ، والدليل على صحة هذا التأويل قوله تعالى (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) يعنى تحسبهم فى صورتهم مجتمعين على الألفة والمحبة ، أما قلوبهم فشتى ، لأن كل أحد منهم على مذهب آخر ، وبينهم عداوة شديدة ، وهذا تشجيع للمؤمنين على قتالهم ، وقوله (ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) فيه وجهان : (الأول) أن ذلك بسبب أنهم قوم لا يعقلون ما فيه الحظ لهم (والثانى) لا يعقلون أن تشتيت القلوب مما يوهن قواهم .

قوله تعالى : ﴿ كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقو وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ﴾ أى مثلهم كمثل أهل بدر فى زمان قريب . فإن قيل : بم انتصب قريباً ، قلنا بمثل ، والتقدير كوجود مثل أهل بدر (قريباً ذاقوا وبال أمرهم) أى سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله من قولهم : كلأ وبيل . أى وخيم سيء العاقبة يعنى ذاقوا عذاب القتل فى الدنيا (ولهم فى الآخرة عذاب أليم) .

ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلا فقال ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين ﴾ أى مثل المنافقين الذين غروا بنى النضير بقولهم (لئن أخرجتم لنخرجن معكم) ثم خذلوهم وما وفوا بعهدهم (كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر)

فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾

ثم تبرأ منه فى العاقبة ، والمراد إما عموم دعوة الشيطان إلى الكفر ، وإما إغواء الشيطان قريشاً يوم بدر بقوله (لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم - إلى قوله - إنى برىء منكم) .

ثم قال ﴿ فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال مقاتل : فكان عاقبة المنافقين واليهود مثل عاقبة الشيطان ، والإنسان حيث صارا إلى النار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب الكشاف : قرأ ابن مسعود خالدان فيها ، على أنه خبر أن ، وفى النار لغو ، وعلى القراءة المشهورة الخبر هو الظرف (وخالدين فيها) حال ، وقرىء (عاقبتهما) بالرفع ، ثم قال (وذلك جزاء الظالمين) أى المشركين ، لقوله تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) .

ثم إنه تعالى رجع إلى موعظة المؤمنين فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ . الغد : يوم القيامة سماه باليوم الذى يلى يومك تقريباً له ، ثم ذكر النفس والغد على سبيل التنكير . أما الفائدة فى تنكير النفس فاستقلال الأنفس التى تنظر فيما قدمت للآخرة كأنه قال : فلتنظر نفس واحدة فى ذلك ، وأما تنكير الغد فلتعظيمه وإبهام أمره ، كأنه قيل : الغد لا يعرف كنهه لعظمه .

ثم قال ﴿ واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ كرر الأمر بالتقوى تأكيداً أو يحمل (الأول) على أداء الواجبات (والثانى) على ترك المعاصى .

ثم قال تعالى ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾ وفيه وجهان : (الأول) قال المقاتلان : نسوا حق الله فجعلهم ناسين حق أنفسهم حتى لم يسعوا لها بما ينفعهم عنده (الثانى) (فأنساهم أنفسهم) أى أراهم يوم القيامة من الأهوال مانسوا فيه أنفسهم ، كقوله (لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم ، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى) .

ثم قال ﴿ أولئك هم الفاسقون ﴾ والمقصود منه الذم ، واعلم أنه تعالى لما أرشد المؤمنين إلى ماهو مصلحتهم يوم القيامة بقوله (ولتنظر نفس ماقدمت لغد) وهدد الكافرين بقوله (الذين

لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ

نسوا الله فأنساهم أنفسهم) بين الفرق بين الفريقين فقال :

﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ .

واعلم أن التفاوت بين هذين الفريقين معلوم بالضرورة ، فذكر هذا الفرق فى مثل هذا الموضع يكون الغرض منه التنبيه على عظم ذلك الفرق ، وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المعتزلة احتجوا على أن صاحب الكبيرة لا يدخل الجنة ، لأن الآية دلت على أن أصحاب النار وأصحاب الجنة لا يستويان ، فلو دخل صاحب الكبيرة فى الجنة لكان أصحاب النار وأصحاب الجنة يستويان ، وهو غير جائز ، وجوابه معلوم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن المسلم لا يقتل بالذمى ، وقد بينا وجهه فى الخلافيات .

ثم إنه تعالى لما شرح هذه البيانات عظم أمر القرآن فقال :

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴾ والمعنى أنه لو جعل فى الجبل عقل كما جعل فيكم ، ثم أنزل عليه القرآن لخشع وخضع وتشقق من خشية الله .

ثم قال ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ أى الغرض من ذكر هذا الكلام التنبيه على قساوة قلوب هؤلاء الكفار ، وغلظ طباعهم ، ونظير قوله (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة) واعلم أنه لما وصف القرآن بالعظم ، ومعلوم أن عظم الصفة تابع لعظم الموصوف ، أتبع ذلك بشرح عظمة الله فقال :

﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ﴾ وقيل السر والعلانية . وقيل الدنيا والآخرة .

إعلم أنه تعالى قدم الغيب على الشهادة فى اللفظ وفيه سر عقلى ، أما المفسرون فذكروا أقوالا فى الغيب والشهادة ، فقيل الغيب المعدوم ، والشهادة الموجود ، ماغاب عن العباد وما شاهدوه .

ثم قال ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك ﴾ وكل ذلك قد تقدم تفسيره .

ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ

ثم قال ﴿ القدوس ﴾ قرىء : بالضم ، والفتح ، وهو البليغ فى النزاهة فى الذات والصفات ، والأفعال والأحكام والأسماء ، وقد شرحناه فى أول سورة الحديد ، ومضى شىء منه فى تفسير قوله (ونقدس لك) وقال الحسن : إنه الذى كثرت بركاته .

وقوله ﴿ السلام ﴾ فيه وجهان (الأول) أنه بمعنى السلامة ومنه دار السلام ، وسلام عليكم وصف به مبالغة فى كونه سليما من النقائص كما يقال : رجاء ، وغياث ، وعدل . فإن قيل فعلى هذا التفسير لا يبقى بين القدوس ، وبين السلام فرق ، والتكرار خلاف الأصل ، قلنا كونه : قدوساً ، إشارة إلى براءته عن جميع العيوب فى الماضى والحاضر ، كونه : سليما ، إشارة إلى أنه لا يطرأ عليه شىء من العيوب فى الزمان المستقبل . فإن الذى يطرأ عليه شىء من العيوب ، فإنه تزول سلامته ولا يبقى سليما (الثانى) أنه سلام بمعنى كونه موجباً للسلامة .

وقوله ﴿ المؤمن ﴾ فيه وجهان (الأول) أنه الذى آمن أولياءه عذابه ، يقال آمنه يؤمنه فهو مؤمن (والثانى) أنه المصدق ، إما على معنى أنه يصدق أنبياءه بإظهار المعجزة لهم ، أو لأجل أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم يشهدون لسائر الأنبياء ، كما قال (لتكونوا شهداء على الناس) ثم إن الله يصدقهم فى تلك الشهادة ، وقرىء : بفتح الميم ، يعنى المؤمن به على حذف الجار كما حذف فى قوله (واختار موسى قومه) .

وقوله ﴿ المهيمن ﴾ قالوا معناه الشاهد الذى لا يغيب عنه شىء . ثم فى أصله قولان ، قال الخليل وأبو عبيدة : هيمن ، يهيمن ، فهو مهيمن ، إذا كان رقيب على الشىء ، وقال آخرون ، مهيمن أصله مؤيمن ، من آمن يؤمن ، فيكون بمعنى المؤمن ، وقد تقدم استقصاؤه عند قوله (ومهيمناً عليه) وقال ابن الأنبارى : المهيمن القائم على خلقه برزقه وأنشد :

ألا إن خير الناس بعد نبيه مهيمنه التاليه فى العرف والنكر

قال معناه : القائم على الناس بعده .

وأما ﴿ العزيز ﴾ فهو إما الذى لا يوجد له نظير ، وإما الغالب القاهر .

وأما ﴿ الجبار ﴾ ففيه وجوه (أحدها) أنه فعال من جبر إذا أغنى الفقير ، وأصلح الكسير . قال الأزهرى : وهو لعمرى جابر كل كسير وفقير ، وهو جابر دينه الذى ارتضاه ، قال العجاج :

« قد جبر الدين الإله فجبر »

(والثانى) أن يكون الجبار من جبره على كذا إذا أكرهه على ما أراده ، قال السدى إنه الذى يقهر الناس ويجبرهم على ما أراده ، قال الأزهرى هى لغة تميم ، وكثير من الحجازيين يقولونها ، وكان الشافعى يقول جبره السلطان على كذا بغير ألف . وجعل الفراء الجبار بهذا معنى

ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ

من أجبره ، وهى اللغـة المعروفة فى الإكراه . فقال لم أسمع فعالا من أفعل إلا فى حرفين ، وهما جبار من أجبر ، ودراك من أدرك ، وعلى هذا القول الجبارهوالقهار (الثالث) قال ابن الأنبارى : الجبار فى صفة الله الذى لا ينال ، ومنه قيـل للنخلة التى فاتت يد المتناول جبارة (الرابع) قال ابن عباس : الجبار ، هو الملك العظيم ، قال الواحدى : هذا الذى ذكرناه من معانى الجبار فى صفة الله ، وللجبار معان فى صفة الخلق (أحدها) المسلط كقوله (وما أنت عليهم بجبار) ، (والثانى) العظيم الجسم كقوله (إن فيهـا قوماً جبارين) (والثالث) المتمرد عن عبادة الله ، كقوله (ولم يجعلنى جباراً) ، (والرابع) القتال كقوله (بطشتم جبارين) وقوله (إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض) .

أما قوله ﴿ المتكبر ﴾ ففيه وجوه (أحـــدها) قال ابن عباس : الذى تكبر بربوبيته فلا شيء مثله (وثانيها) قال قتادة : المتعظم عن كل سوء (وثالثها) قال الزجاج : الذى تعظم عن ظلم العباد (ورابعها) قال ابن الانبارى : المتكبرة ذو الكبرياء ، والكبرياء عند العرب : الملك ، ومنه قوله تعالى (وتكون لكما الكبرياء فى الأرض) ، واعلم أن المتكبر فى حق الخلق اسم ذم ، لأن المتكبر هو الذى يظهر من نفسه الكبر ، وذلك نقص فى حق الخلق ، لأنه ليس له كبر ولا علو ، بل ليس معه إلا الحقارة والذلة والمسكنة ، فإذا أظهر العلو كان كاذباً ، فكان ذلك مذموماً فى حقه . أما الحق سبحانه فله جميع أنواع العلو والكبرياء ، فإذا أظهره فقد أرشد العباد إلى تعريف جلاله وعلوه ، فكان ذلك فى غاية المدح فى حقه سبحانه . ولهذا السبب لما ذكر هذا الإسم :

قال ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ كأنه قيل : إن المخلوقين قد يتكبرون ويدعون مشاركة الله فى هذا الوصف لكنه سبحانه منزه عن التكبر الذى هو حاصل للخلق لأنهم ناقصون بحسب ذواتهم ، فادعاؤهم الكبر يكون ضم نقصان الكذب إلى النقصان الذاتى ، أما الحق سبحانه فله العلو والعزة ، فإذا أظهره كان ذلك ضم كمال إلى كمال ، فسبحان الله عما يشركون فى إثبات صفة المتكبرية للخلق .

ثم قال ﴿ هو الله الخالق ﴾ والخلق هو التقدير معناه أنه يقدر أفعاله على وجوه مخصوصة ، فالخالقية راجعة إلى صفة الإرادة .

ثم قال ﴿ البارىء ﴾ وهو بمنزلة قولنا صانع وموجد إلا أنه يفيد اختراع الأجسام ، ولذلك يقال فى الخلق برية . ولا يقال فى الأعراض التى هى كاللون والطعم .

﴿ وأما المصور ﴾ فمعناه أنه يخلق صور الخلق على مايريد ، وقدم ذكر الخالق على البارىء ،

لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

لأن ترجيح الإرادة مقدم على تأثير القدرة . وقدم البارىء على المصور ، لأن إيجاد الذوات مقدم على إيجاد الصفات .

ثم قال تعالى ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ وقد فسرناه فى قوله (ولله الأسماء الحسنى) .

أما قوله ﴿ يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ فقد مر تفسيره فى أول سورة الحديد والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه أجمعين ، وسلم تسليما كثيراً .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الحَشْر

مدنِيّةٌ في قول الجميع. وهي أربع وعشرون آية[1]، روى ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الحشر، لم يَبْقَ شيء من الجنَّة والنار والعرش والكرسيِّ والسماوات والأرض والهوامِّ والريح والسحاب والطير والدوابِّ والشجر والجبال والشمس والقمر والملائكة إلا صَلَّوْا عليه، واستغفروا له. فإنْ مات من يومه أو ليلته مات شهيداً». خرَّجه الثعلبيُّ[2]. وخرَّج الثعالبيُّ عن يزيد الرقاشيِّ، عن أنس أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من قرأ آخر سورة الحشر: «لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ» ـ إلى آخرها ـ فمات من ليلته مات شهيداً»[3].

وروى الترمذيُّ عن مَعْقِل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يُصبح ثلاثَ مرَّات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وقرأ ثلاثَ آيات من آخر سورة الحشر، وكَّلَ اللهُ به سبعين ألف مَلك يُصَلُّون عليه حتى يُمْسِي، وإن مات في يومه مات شهيداً، ومن قرأها حين يُمْسِي فكذلك». قال: حديث غريب[4].

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ①﴾

تقدّم.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣١٣.

(٢) لم نقف عليه عند غيره.

(٣) أورده بنحوه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٠٢ وعزاه إلى ابن مردويه.

(٤) وقعت العبارة في بعض النسخ الخطية و(م): حسن غريب، ولم ترد عند الترمذي (٢٩٢٢)، وهو عند أحمد (٢٠٣٠٦) وأورده الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٦٣١، وقال: لم يحسِّنه الترمذي، وهو حديث غريب جداً.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: قل سورة النَّضير. وهم رهط من اليهود من ذُرِّيَّة هارون عليه السلام، نزلوا المدينة في فِتن بني إسرائيل؛ انتظاراً لمحمَّد ﷺ، وكان من أمرهم ما نصَّ الله عليه[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ الحشرُ: الجمعُ[٢]؛ وهو على أربعة أوجه: حشران في الدنيا، وحشران في الآخرة؛ أمَّا الذي في الدنيا فقوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ» قال الزهريُّ: كانوا من سِبْطٍ لم يصبهم جلاء، وكان الله عزَّ وجلَّ قد كتب عليهم الجلاء؛ فلولا ذلك لعذَّبهم في الدنيا[٣]. وكان أوَّلَ حشر حُشِروا في الدنيا إلى الشام[٤]. قال ابن عباس وعكرمة: من شكَّ أنَّ المحشر في الشام فليقرأ هذه الآية، وأنَّ النبيَّ ﷺ قال لهم: «اخرجوا» قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر». قال قتادة: هذا أوَّل المحشر. قال

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٢، والأثر أخرجه البخاري (٤٠٢٩)، ومسلم (٣٠٣١).

(٢) من هنا إلى نهاية قول قتادة الآتي من التذكرة ص١٩٨.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣١٣، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٢، وأبو عبيد في الأموال (٨١)، والطبري ٢٢/ ٤٩٧ - ٤٩٨.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٢، والطبري ٢٢/ ٤٩٨ - ٤٩٩، والبيهقي في دلائل النبوة ٣/ ١٧٦ - ١٧٧.

ابن عباس: هم أوَّل من حُشِر من أهل الكتاب وأُخرِج من دياره[١]. وقيل: إنَّهم أُخرجوا إلى خَيْبر، وأنَّ معنى «لِأَوَّلِ الْحَشْرِ» إخراجهم من حصونهم إلى خيبر، وآخره إخراج عمر ﷺ إياهم من خَيْبر إلى نجد وأذرِعات. وقيل: تَيماء وأرِيحاء، وذلك بكفرهم ونقض عهدهم[٢]. وأما الحشر الثاني: فحشرهم قربَ القيامة. قال قتادة: تأتي نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، تَبيت معهم حيث باتوا، وتَقِيل معهم حيث قالوا، وتأكل منهم مَن تخلَّف[٣]. وهذا ثابت في الصحيح، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٤].ونحوه روى ابن وهب عن مالك قال: قلت لمالك: هو جلاؤهم من ديارهم؟ فقال لي: الحشر يوم القيامة حشر اليهود. قال: وإجلاء رسول الله ﷺ اليهودَ إلى خَيْبر حين سُئلوا عن المال فكتموه، فاستحلَّهم بذلك. قال ابن العربيِّ[٥]: للحشر أوَّل ووسط وآخِر؛ فالأوَّل: إجلاء بني النضير، والأوسط: إجلاء خيبر، والآخِر: حشر يوم القيامة. وعن الحسن: هم بنو قُرَيظة. وخالفه بقيَّة المفسرين وقالوا: بنو قُرَيظة ما حُشروا ولكنهم قتلوا. حكاه الثعلبيُّ.

الثالثة: قال الكيا الطبريُّ[٦]: ومصالحة أهل الحرب على الجلاء من ديارهم من غير شيء لا يجوز الآن، وإنَّما كان ذلك في أوَّل الإسلام، ثم نُسخ. والآن فلابدَّ من قتالهم، أو سَبْيِهم، أو ضرب الجِزية عليهم.

قوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾ يريد: لِعظم أَمْرِ اليهود ومَنَعتهم وقوَّتهم في

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٥٩، عدا قول قتادة فمن النكت والعيون ٥/ ٤٩٩، وقول ابن عباس أخرجه البزار (٣٤٢٦ كشف الأستار)، وابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٤٥ (١٨٨٥٠). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٤٣: رواه البزار، وفيه: أبو سعدالبقال، والغالب عليه الضعف.

(٢) التعريف والإعلام ص ١٦٥، وأذرعات وتيماء وأريحاء من بلاد الشام، كما قاله السهيلي.

(٣) النكت والعيون ٥/٤٩٩، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٢، والطبري ٢٢/ ٤٩٩.

(٤) ص١٩٨.

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٢، وما قبله منه أيضاً.

(٦) في أحكام القرآن له ٤/ ٤٠٥.

صدور المسلمين، واجتماع كلمتهم. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ قيل: هي الوَطِيح والنَّطاة والسُّلالِم والكَتِيبة[١]. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من أمره، وكانوا أهل حَلْقة - أي: سلاح كثير - وحصون منيعة، فلم يمنعهم شيء منها. ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أمره وعذابه[٢]. ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ أي: لم يظنوا[٣]. وقيل: من حيث لم يعلموا. وقيل: «مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا» بقتل كَعْب بن الأشرف، قاله ابن جُريج والسُّدِّيُّ وأبو صالح[٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ بقتل سَيِّدهم كعب بن الأشرف، وكان الذي قتله هو محمد بن مَسْلمة، وأبو نائلة سِلْكان بن سلامة بن وَقْش - وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة - وعبّاد بن بِشر بن وَقْش، والحارث بن أَوْس بن معاذ، وأبو عَبْس بن جبر. وخبره مشهور في السيرة[٥]. وفي «الصحيح»: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «نُصِرتُ بالرُّعْب بين يَدَي مَسِيرةِ شهر»[٦] فكيف لا يُنْصر به مسيرة ميل من المدينة إلى محلَّة بني النضير. وهذه خصيصَة لمحمَّد ﷺ دون غيره[٧].

قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم﴾ قراءة العامة بالتخفيف من أخرب، أي: يهدمون. وقرأ السُّلمِيُّ والحسن ونصر بن عاصم وأبو العالية وقتادة وأبو عمرو: «يُخَرِّبون» بالتشديد[٨] من التخريب. قال أبو عمرو: إنَّما اخترت التشديد؛ لأنَّ الإخراب تركُ الشيء خراباً بغير ساكن، وبنو النَّضير لم يتركوها خراباً، وإنما خرَّبوها بالهدم، يؤيده

---

(١) التعريف والإعلام ص١٦٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣١٥ .

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٩٩ عن ابن جبير والسدي.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥٥ .

(٦) سلف ٤/ ٢٥٨ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٣ .

(٨) السبعة ص٦٣٢ ، والتيسير ص٢٠٩، والنشر ٢/ ٣٨٦ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٨٤ .

قوله تعالى: «بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ». وقال آخرون: التخريب والإخراب بمعنًى واحد، والتشديد بمعنَى التكثير[١]. وحكى سيبويه: أنَّ معنى فَعَّلت وأفعلت يتعاقبان، نحو أخربته وخرَّبته، وأفرحته وفرَّحته[٢]. واختار أبو عبيد وأبو حاتم الأُولى.

قال قتادة والضحَّاك: كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا، واليهود يُخربون من داخل ليبنُوا به ما خُرِّب من حِصْنهم[٣]. فرُوِيَ أنَّهم صالحوا رسولَ الله ﷺ على ألا يكونوا عليه ولا له، فلما ظهر يومَ بَدْر قالوا: هو النبيُّ الذي نُعِت في التوراة، فلا تُردُّ له راية. فلما هُزِم المسلمون يوم أُحُد ارتابوا ونكثوا، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكَّة، فحالفوا عليه قريشاً عند الكعبة، فأمر عليه الصلاة والسلام محمد بن مسلمة الأنصاريَّ، فقتل كَعْباً غِيلةً، ثم صبَّحهم بالكتائب، فقال لهم: اخرجوا من المدينة. فقالوا: الموت أحبُّ إلينا من ذلك، فتنادَوْا بالحرب. وقيل: استمهلوا رسولَ الله ﷺ عشرة أيام ليتجهَّزوا للخروج، فدسَّ إليهم عبدُ الله بن أُبَيٍّ المنافقُ وأصحابُه: لا تخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم، ولئن أُخرِجتم لنخرجنَّ معكم. فدُرِّبُوا على الأزقَّة وحصنوها إحدى وعشرين ليلةً، فلما قذف الله في قلوبهم الرُّعب، وأيِسُوا من نصر المنافقين، طلبوا الصلح، فأبى عليهم إلا الجلاء[٤]، على ما يأتي بيانه.

وقال الزهريُّ وابن زيد وعروة بن الزبير: لما صالحهم النبيُّ ﷺ على أنَّ لهم ما أقلَّت الإبل، كانوا يستحسنون الخَشَبَة والعمود فيهدمون بيوتهم، ويحملون ذلك على إبلهم، ويخرب المؤمنون باقيها[٥]. وعن ابن زيد أيضاً: كانوا يخربونها؛ لئلا يسكنها

---

(١) الحجة للفارسي ٦/ ٢٨٣ ، والنكت والعيون ٥/ ٥٠٠ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٨٦ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣١٥ عن قتادة، والنكت والعيون ٥/ ٥٠٠ عن الضحاك، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٥٠١ - ٥٠٢ .

(٤) الكشاف ٤/ ٧٩ - ٨٠ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٥٠٠ عن ابن زيد وابن الزبير، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٢ ، والطبري ٢٢/ ٥٠١ عن الزهري.

المسلمون بعدهم. وقال ابن عباس: كانوا كلما ظهر المسلمون على دار من دورهم، هدموها ليتَّسع موضع القتال، وهم ينقبون دورهم من أدبارها إلى التي بعدها؛ ليتحصَّنوا فيها، ويرموا بالتي أخرجوا منها المسلمين[١]. وقيل: ليسدُّوا بها أزِقَّتهم[٢]. وقال عِكرمة: «بِأَيْدِيهِمْ» في إخراب دواخلها وما فيها؛ لئلا يأخذه المسلمون. وبـ«أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ» في إخراب ظاهرها؛ ليَصِلُوا بذلك إليهم[٣]. قال عكرمة: كانت منازلهم مزخرفةً، فحسدوا المسلمين أن يسكنوها، فخربوها من داخل، وخربها المسلمون من خارج. وقيل: «يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ» بنقض الموادعة[٤] «وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ» بالمقاتلة، قاله الزهريُّ أيضاً. وقال أبو عمرو بن العلاء: «بِأَيْدِيهِمْ» في تركهم لها. وبـ«أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ» في إجلائهم عنها. قال ابن العربيّ[٥]: التناول للإفساد إذا كان باليد كان حقيقةً، وإذا كان بنقض العهد كان مجازاً؛ إلا أنَّ قول الزهريِّ في المجاز أمْثل من قول أبي عمرو بن العلاء.

قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: اتَّعِظُوا يا أصحابَ العقول والألباب. وقيل: يا من عاين ذلك ببصره[٦]، فهو جمع للبصر. ومن جملة الاعتبار هنا أنَّهم اعتصموا بالحصون من الله فأنزلهم الله منها. ومن وجوهه: أنَّه سلَّط عليهم من كان ينصرهم. ومن وجوهه أيضاً: أنَّهم هدموا أموالهم بأيديهم. ومن لم يعتبر بغيره، اعتبر في نفسه. وفي الأمثال الصحيحة: السَّعيد من وُعِظ بغيره[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣١٥.

(٢) الكشاف ٤/ ٨٠.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥٠٠ دون نسبته إلى عكرمة، وما بعده منه أيضاً.

(٤) في النسخ: المواعدة، والمثبت من النكت والعيون ٥/ ٥٠٠ والكلام منه، والموادعة والتوادع: شبه المصالحة والتصالح. اللسان (ودع).

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٤.

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٤٣.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٤، والمثل في مجمع الأمثال للميداني ١/ ٣٤٣، وورد في حديث مرفوع أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٧٨)، والقضاعي في مسند الشهاب (٧٦) عن عبد الله =

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ أي: لولا أنَّه قضى أنَّه سَيُجْليهم عن دارهم، وأنَّهم يبقون مدَّة فيؤمن بعضهم ويولد لهم من يؤمن. ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بالقتل والسَّبْي[١]، كما فعل ببني قُرَيظة. والجلاء: مفارقة الوطن[٢]، يقال: جَلَا بنفسه جلاءً، وأجلاه غيرُه إجلاءً[٣]. والفرق بين الجلاء والإخراج ـ وإن كان معناهما في الإبعاد واحداً ـ من وجهين: أحدهما: أنَّ الجلاء ما كان مع الأهل والولد، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد. الثاني: أنَّ الجلاء لا يكون إلا لجماعة، والإخراج يكون لواحد ولجماعة، قاله الماورديُّ[٤].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الجلاء ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: عادَوْه، وخالفوا أمره[٥]. ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ قرأ طلحة بن مُصَرِّف ومحمد بن السَّمَيْفَع: «وَمَنْ يُشاقِقِ اللهَ»[٦] بإظهار التضعيف، كالتي في «الأنفال»[٧]، وأدغم الباقون.

قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥﴾

فيه خمس مسائل:

= ابن مسعود ﷺ. وفي إسناده: أبو إسحاق وهو: عمرو بن عبد الله السبيعي كان اختلط، وهو مدلِّس، وقد عنعنه ولم يصرِّح بالسماع. والمحفوظ أنه موقوف على ابن مسعود أخرجه مسلم (٢٦٤٥).

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٣.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣١٥.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٥٦.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٥٠١.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٣.

(٦) مجمع البيان للطبرسي ٢٨/ ٢٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٤.

(٧) وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الآية: ١٣] وسلفت ٩/ ٤٦٩.

الأولى: قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ «ما» في محلِّ نصب بـ «قَطَعْتُمْ»[١]، كأنَّه قال: أيّ شيء قطعتم. وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ لما نزل على حصون بني النضِير ـ وهي البُوَيْرة ـ حين نقضوا العهد بمعونة قريش عليه يوم أُحُد، أمر بقَطْع نخيلهم وإحراقها. واختلفوا في عدد ذلك، فقال قتادة والضحَّاك: إنَّهم قطعوا من نخيلهم وأحرقوا ستَّ نخلات. وقال محمد بن إسحاق: إنَّهم قطعوا نخلة، وأحرقوا نخلة. وكان ذلك عن إقرار رسول الله ﷺ أو بأمره؛ إمَّا لإضعافهم بها، وإما لسعَة المكان بقَطْعها. فشقَّ ذلك عليهم فقالوا ـ وهم يهود أهل الكتاب ـ: يا محمَّد، ألستَ تزعم أنَّك نبيٌّ تريد الصلاح، أفمن الصلاح قَطْع النخل وحرق الشجر؟[٢] وهل وجدتَ فيما أنزل الله عليك إباحة الفساد في الأرض؟ فشقَّ ذلك على النبيِّ ﷺ، ووجد المؤمنون في أنفسهم حتى اختلفوا، فقال بعضهم: لا تقطعوا مما أفاء الله علينا. وقال بعضهم: اقطعوا؛ لنغيظهم بذلك. فنزلت الآية بتصديق من نهى عن القطع، وتحليل من قطع من الإثم، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله[٣]. وقال شاعرهم سماك اليهوديُّ في ذلك:

أَلَسْنَا وَرِثْنا الكتاب الحكيم ... على عهد موسى ولم نَصْدِفِ

وأنتم رِعاءٌ لِشاءٍ عِجافٍ ... بسَهْلِ تِهامة والأَخْيَفِ

تَرَونَ الرعايةَ مجداً لكم ... لدى كلّ دهرٍ لكم مُجْحِفِ

فيا أيها الشاهدون انتهُوا ... عن الظلم والمنطق المُؤْنِفِ

لعلَّ الليالي وصَرف الدهور ... يُدِلْنَ من العادل المنصف

بقتل النَّضِير وإجلائها ... وعَقْرِ النخيل ولم تُقْطَفِ[٤]

فأجابه حسان بن ثابت:

---

(١) الكشاف ٤/ ٨١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥٠١، وخبر قطع نخيل بني النضير وإحراقها أخرجه البخاري (٤٠٣٢)، ومسلم (١٧٤٦): (٣٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٤٤٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٠١.

تفاقدَ مَعْشَرٌ نصرُوا قريشاً ... وليس لهم ببلدتهم نَصيرُ
هُمُوا أوتوا الكتاب فضيَّعوه ... وهم عُمْيٌ عن التوراة بُورُ
كفرتم بالقُرَان وقد أبيتم ... بتصديق الذي قال النذيرُ
وهان على سَرَاة بني لُؤَيٍّ ... حريقٌ بالبُوَيْرَة مستطيرُ(١)

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

أدام الله ذلك من صنيعٍ ... وحرَّق في نواحيها السَّعِيرُ
ستَعْلَمُ أيُّنا منها بنُزْهٍ ... وتَعْلَمُ أيُّ أرْضِيْنا تَضيرُ
فلو كان النخيل بها رِكاباً ... لقالوا لا مُقامَ لكم فسِيرُوا(٢)

الثانية: كان خروج النبيِّ ﷺ إليهم في ربيع الأوَّل، أوَّل السنة الرابعة من الهجرة، وتحصَّنوا منهم في الحصون، وأمر بقطع النخل وإحراقها، وحينئذٍ نزل تحريم الخمر. ودسَّ عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سَلُول ومن معه من المنافقين إلى بني النَّضير: إنَّا معكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم؛ فاغترُّوا بذلك. فلما جاءت الحقيقة خذلوهم وأَسلموهم وألقوا بأيديهم، وسألوا رسول الله ﷺ أن يكفَّ عن دمائهم ويُجْلِيهم، على أنَّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، فاحتملوا كذلك إلى خَيْبَر، ومنهم من سار إلى الشام. وكان ممن سار منهم إلى خَيْبَر أكابرهم، كَحُيَيِّ بن أَخْطَب، وسَلّام بن أبي الحُقَيْق، وكِنانة بن الربيع. فدانت لهم خَيبر(٣).

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٧٢، والأبيات في شرح ديوان حسان لعبد الرحمن البرقوقي ص٢٥٠، قال شارحه: وقوله: تفاقَدَ معشر: أي: فَقَدَ بعضهم بعضاً. وقوله: بُورُ: يعني ضُلَّال أو هلكى، من البوار وهو الهلاك. وقوله: سراة بني لؤي: أي خيارهم. والبويرة: موضع بني قريظة. اهـ. والبيت الأخير سيأتي ضمن خبر ابن عمر، وثمة تخريجه هناك.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٧٢، وورد فيه: طرائقها، بدل: نواحيها. وأبو سفيان بن الحارث: هو ابن عبد المطلب، وهو ابن عمِّ النبي ﷺ، وكان حينئذٍ لم يُسلم، وقد أسلم بعدُ في الفتح. وبنزه: ببعد. وتضير: من الضَّيْر، وهو بمعنى الضُّرِّ. فأبو سفيان يقول: تخرَّبت أرض بني النضير، وتخريبها إنما يضرُّ أرضَ من جاورها، وأرضكم [يعني أرض الأنصار] هي التي تجاورها فهي التي تتضرَّر لا أرضنا [يعني أرض قريش]. فتح الباري ٧/ ٣٣٣-٣٣٤. والبيتان الأول والثاني ذكرهما البخاري (٤٠٣٢) ضمن خبر ابن عمر الآتي قريباً، وكما أشرنا إليه هناك.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩٠ - ١٩١، حيث ذكر أن هذه الغزوة كانت سنة أربع، وكذا ذكر =

الثالثة: ثبت في «صحيح مسلم» وغيره عن ابن عمر أنَّ رسول الله ﷺ قطع نخل بني النَّضير وحَرَّق، ولها يقول حسان:

وهان على سَرَاة بني لُؤَيٍّ حريقٌ بالبُوَيْرة مستطيرُ

وفي ذلك نزلت: «مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ» الآية[١].

واختلف الناس في تخريب دار العدوِّ وتحريقها وقطع ثمارها على قولين: الأوَّل: أنَّ ذلك جائز، قاله في «المدوَّنة»[٢]. الثاني: إن علم المسلمون أنَّ ذلك لهم، لم يفعلوا، وإن يئسوا، فعلوا، قاله مالك في «الواضحة». وعليه يناظر أصحاب الشافعي. ابن العربيِّ[٣]: والصحيح الأوَّل. وقد علم رسول الله ﷺ أنَّ نخل بني النَّضير له، ولكنه قَطع وحَرَّق؛ ليكون ذلك نكايةً لهم، ووَهْناً فيهم، حتى يخرجوا عنها. وإتلافُ بعض المال لصلاح باقيه مصلحة جائزة شرعاً، مقصودة عقلاً.

الرابعة: قال الماورديُّ: إنَّ في هذه الآية دليلاً على أنَّ كلَّ مجتهد مصيبٌ. وقاله الكِيَا الطَّبَريُّ[٤] قال: وإن كان الاجتهاد يَبعُد في مثله مع وجود النبيِّ ﷺ بين

= البلاذري في فتوح البلدان ص٣١ ، وذكر السهيلي في الروض الأنف ٣/ ٢٥٠ أن ابن إسحاق ذكر هذه الغزوة في هذا الموضع ـ أي بعد غزوة أحد ـ وكان ينبغي أن يذكرها بعد بدر، لما روى عقيل بن خالد وغيره عن الزهري قال: كانت غزوة بني النضير بعد بدر بستة أشهر. اهـ. وخبر الزهري في مغازيه ص٧١ ، وأخرجه البلاذري في فتوح البلدان ص٣١ ولكن ورد فيه أن وقيعة بني النضير من يهود كانت على ستة أشهر من يوم أحد. وعلَّقه البخاري قبل حديث (٤٠٢٨) عن الزهري عن عروة، ووصله عبد الرزاق في المصنف ٥/ ٣٥٧ ، وردَّه ابن القيم في زاد المعاد ٣/ ٢٢٣ ، وذكر الواقدي في المغازي ١/ ٣٦٣ أنها كانت في ربيع الأول على رأس سبعة وثلاثين شهراً من مهاجرة النبي ﷺ.

(١) مسلم (١٧٤٦): (٣٠)، وأخرجه أيضاً البخاري (٤٠٣٢)، وزاد: فأجابه أبو سفيان بن الحارث:

أدام الله ذلك من صنيع وحرَّق في نواحيها السعير
ستعلم أيُّنا منها بنزه وتعلم أيُّ أرضينا تضير

وسلفت قريباً.

(٢) ٣/ ٧ - ٨ ، والمصنف نقله عنه بواسطة ابن العربي في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٦ ، وما بعده منه أيضاً.

(٣) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٦ .

(٤) في أحكام القرآن له ٤/ ٤٠٦ .

أظهرهم، ولا شكَّ أنَّ رسول الله ﷺ رأى ذلك وسكت، فتلَقَّوا الحكم من تقريره فقط. قال ابن العربيّ[١]: وهذا باطل؛ لأنَّ رسول الله ﷺ كان معهم، ولا اجتهادَ مع حضور رسول الله ﷺ، وإنَّما يدلُّ على اجتهاد النبيِّ ﷺ فيما لم ينزل عليه؛ أخذاً بعموم الأذِيَّة للكفار، ودخولاً في الإذن للكلِّ بما يقضي عليهم بالاجتياح والبوار، وذلك قوله تعالى: «وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ».

الخامسة: اختلف في اللِّينة ما هي، على أقوال عشرة: الأوَّل: النخل كلُّه إلا العَجْوةَ، قاله الزهريُّ ومالك وسعيد بن جُبير وعِكْرمة والخليل[٢]. وعن ابن عباس ومجاهد والحسن: أنَّها النخل كلُّه، ولم يستثنوا عَجْوةً ولا غيرها[٣]. وعن ابن عباس أيضاً: أنَّها لون من النخل. وعن الثوريِّ: أنَّها كرام النخل[٤]. وعن أبي عبيدة[٥]: أنَّها جميع ألوان التمر سوى العجوة والبَرْني. وقال جعفر بن محمد: إنَّها العجوة خاصّةً[٦]. وذكر أنَّ العتيق والعجوة كانتا مع نوح عليه السلام في السفينة. والعتيق: الفحل. وكانت العجوة أصلَ الإناث كلِّها، فلذلك شقَّ على اليهود قطعها، حكاه الماورديُّ[٧]. وقيل: هي ضَرْبٌ من النخل، يقال لتمره: اللَّون، تمره أجود التمر، وهو شديد الصفرة يُرَى نواه من خارجه، ويغيب فيه الضِّرس؛ النخلة منها أحبُّ إليهم من وَصِيف[٨]. وقيل: هي النخلة القريبة من الأرض. وأنشد الأخفش:

---

(١) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٧ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٦ ، دون عزوه لسعيد بن جبير وعزاه له النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٩١ ، وأخرجه الطبري ٢٢/ ٥٠٧ عن عكرمة والزهري وابن عباس وآخرين.

(٣) زاد المسير ٨/ ٢٠٨ عن ابن عباس. وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٩١ عن مجاهد، وهو في تفسيره ٢/ ٦٦٣ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٦ عن الحسن.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣١٦ ، وأخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٥٠٩ .

(٥) في مجاز القرآن له ٢/ ٢٥٦ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٦ .

(٧) في النكت والعيون ٥/ ٥٠٢ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٣١٦ وعزاه لمقاتل، والوصيف: الخادم، غلاماً كان أو جارية. اللسان (وصف).

قد شجاني الحمام حين تَغَنَّى بفراق الأحباب من فوق لِينَهْ[١]

وقيل: إنَّ اللِّينة: الفَسِيلة؛ لأنَّها ألين من النخلة. ومنه قول الشاعر:

غَرَسُوا لِينها بمجرى مَعِين ثم حَفّوا النخيل بالآجامِ[٢]

وقيل: إنَّ اللينة: الأشجارُ كلُّها؛ للينها بالحياة، قال ذو الرُّمَّة:

طِراقُ الخَوَافي واقعٌ فوق لِينة نَدَى ليله في ريشه يترقرقُ[٣]

والقول العاشر: أنَّها الدقَل، قاله الأصمعيُّ. قال: وأهل المدينة يقولون: لا تنتفخ[٤] الموائد حتى توجد الألوان، يعنون: الدَّقَل. قال ابن العربيِّ[٥]: والصحيح ما قاله الزهريُّ ومالك؛ لوجهين: أحدهما: أنَّهما أعرف ببلدهما وأشجارهما. الثاني: أنَّ الاشتقاق يَعْضُده، وأهل اللُّغة يصححونه؛ فإنَّ اللِّينة وزنها لُونة، واعتلَّت على أصولهم، فآلت إلى لِينة، فهي لون، فإذا دخلت الهاء كُسر أولها؛ كَبَرْك: الصَّدْرُ - بفتح الباء - وبِرْكة - بكسرها - لأجل الهاء.

وقيل: لِينة، أصلها لِوْنة، فقلِبت الواو ياءً؛ لانكسار ما قبلها. وجمع اللينة: لِين.

وقيل: لِيان، قال امرؤ القيس يصف عنق فرسه:

وسالفة كسَحُوقِ اللِّيا نِ أَضْرَمَ فيها الغَوِيُّ السُّعُرْ[٦]

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥٠٢ ولم ينسبه، وأورده الحميري في الروض المعطار ص٦١٧ ، إلا أنه ورد فيه: الفسيل، بدل: النخيل، وكما نسبه لبعض ولد يثرب بن قانية أول من نزل مدينة النبي ﷺ، وسمِّيت باسمه.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥٠٢ ، والبيت في ديوان ذي الرمة ١/ ٤٨٨ إلا أنه ورد فيه: ريعة، بدل: لينة. قال شارحه: طراق: أي بعضه على بعض. والخوافي: ما دون القوادم من جناح الطائر. والريعة: المكان المرتفع. ويترقرق: يجيء ويذهب.

(٤) في (خ): لا ينتفخ. وفي أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٧ والكلام منه: لا ننحى. وقول الأصمعي ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ١٥/ ٣٧١ .

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٥٧ .

(٦) الصحاح (لون)، والبيت في ديوان امرئ القيس ص١٦٥ ، إلا أنه ورد فيه: اللُّبان، بدل: اللِّيان، قال شارحه: السالفة: العُنُق. وكسحوق اللُّبان: كالشجرة في الطول. واللُّبان: شجرة اللُّبان، وهو الكُنْدر.

وقال الأخفش: إنَّما سمِّيت لينةً؛ اشتقاقاً من اللَّون، لا من اللين[١]. المهدويُّ: واختلف في اشتقاقها، فقيل: هي من اللون، وأصلها لُونة. وقيل: أصلها لِينة، من لان يلين.

وقرأ عبد الله: «ما قطعتم مِن لِينةٍ ولا تركتم قُوَّماً على أصولها»[٢] أي: قائمة على سوقها. وقرأ الأعمش: «ما قطعتم مِن لِينةٍ أو تركتموها قُوَّماً على أصولِها»[٣] المعنى: لم تقطعوها. وقرئ: «قُوَّماً على أُصُلِها». وفيه وجهان: أحدهما: أنَّه جمع أصلٍ، كَرَهْن ورُهُن. والثاني: اكْتُفِي فيه بالضمَّة عن الواو. وقرئ: «قائماً على أصوله» ذهاباً إلى لفظ «ما»[٤]. ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمره ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: ليذلَّ اليهودَ الكفَّارَ به وبنبيِّه وكتبه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ هذه الآية والتي بعدها إلى قوله: «شَدِيدُ الْعِقَابِ» **فيه عشر مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ يعني: ما ردَّه الله تعالى ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ من أموال بني النَّضِير. ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أوْضَعْتم عليه. والإيجاف: الإيضاع في السير، وهو الإسراع[٥]، يقال: وَجَف الفرسُ: إذا أسرع، وأوجفته أنا، أي: حرَّكته

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٥٠٢ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٤٤ إلا أنه ورد فيه: أصوله، بدل: أصولها.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٤٤ .

(٤) الكشاف ٤/ ٨١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٥٠٣ .

وأتعبته، ومنه قول تميم بن مقبل:

مَذاوِيد بالبِيض الحديثِ صِقالُها عن الركب أحياناً إذا الركب أوْجَفُوا[١]

والركاب: الإبل، واحدها: راحلة[٢]. يقول: لم تقطعوا إليها شُقَّة، ولا لقيتم بها حرباً ولا مشقَّة؛ وإنَّما كانت من المدينة على مِيلَيْن، قاله الفرَّاء[٣]. فمشَوْا إليها مَشْياً، ولم يركبوا خيلاً ولا إبلاً، إلا النبيَّ ﷺ فإنَّه ركب جملاً، وقيل: حماراً مخطوماً بليف، فافتتحها صلحاً، وأجلاهم، وأخذ أموالهم[٤]. فسأل المسلمون النبيَّ ﷺ أن يَقسم لهم فنزلت: «وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ» الآية. فجعل أموال بني النَّضير للنبيِّ ﷺ خاصَّةً يضعها حيث شاء، فقسمها النبيُّ ﷺ بين المهاجرين. ـ قال الواقديُّ: ورواه ابن وهب عن مالك ـ ولم يُعْطِ الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثةَ نفر محتاجين، منهم أبو دُجَانة سِمَاك بن خَرَشة، وسهل بن حُنيف، والحارث بن الصِّمَّة[٥]. وقيل: إنَّما أَعطى رجلين، سهلاً وأبا دُجَانة. ويقال: أَعطى سعد بن معاذ سيفَ ابن أبي الحُقَيق، وكان سيفاً له ذِكْرٌ عندهم[٦]. ولم يُسلم من بني النَّضير إلا رجلان: سفيان بن عمير، وسعد بن وهب، أسلما على أموالهما فأحرزاها[٧].

وفي «صحيح مسلم» عن عمر قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩٣ - ١٩٤ ، والبيت في ديوان تميم بن أُبيِّ بن مقبل ص٣٧٢ ، والذَّود: السَّوق والطرد والدفع. والبِيض: جمع أبيض وهو السيف. المعجم الوسيط (ذود) و(بيض).

(٢) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٨٤ .

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١٤٤ .

(٤) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٨٥ ، عدا قوله: وقيل: حماراً مخطوماً بليف. فمن الكشاف ٤/ ٧٩ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣١٦ عدا ما بين معترضتين.

(٦) المغازي للواقدي ١/ ٣٧٩ ، والقول الأول أخرجه الطبري ٢٢/ ٥٢٦ عن عبد الله بن أبي بكر ﷺ.

(٧) الدرر لابن عبد البر ص١٨٥ ، وورد فيه أنهما: يامين بن عمير، وأبو سعيد بن وهب، وكذا وردا في السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩٢ .

رسوله، مما لم يُوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، وكانت للنبيِّ ﷺ خاصَّةً، فكان ينفق على أهله نفقةَ سنةٍ، وما بقي يجعله في الكُرَاع والسلاح عُدَّةً في سبيل الله تعالى[1].

وقال العباس لعمر رضي الله عنهما: اقضِ بيني وبين هذا الكاذب الآثم الغادر الخائن ـ يعني: عليّاً ﷺ، فيما أفاء الله على رسوله من أموال بني النضير ـ فقال عمر: أتعلمانِ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا نُورث ما تركناه صدقة» قالا: نعم. قال عمر: إنَّ الله عزَّ وجلَّ كان خصَّ رسوله ﷺ بخاصَّة ولم يُخَصِّص بها أحداً غيره. قال: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ» ـ ما أدري هل قرأ الآية التي قبلها أم لا ـ فقسم رسول الله ﷺ بينكم أموال بني النَّضير، فو اللهِ ما استأثرها عليكم ولا أخذها دونكم حتى بقي هذا المال، فكان رسول الله ﷺ يأخذ منه نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي أُسْوَةَ المال... الحديث بطوله، خرَّجه مسلم[2]. وقيل: لما ترك بنو النَّضير ديارهم وأموالهم، طلب المسلمون أن يكون لهم فيها حظٌّ كالغنائم، فبيَّن الله تعالى أنَّها فَيْءٌ، وكان قد جرى ثَمَّ بعضُ القتال؛ لأنَّهم حوصِروا أياماً وقاتلوا وقتلوا، ثم صالحوا على الجلاء. ولم يكن قتال على التحقيق، بل جرى مبادئ القتال وجرى الحصار، وخصَّ الله تلك الأموال برسوله ﷺ. وقال مجاهد[3]: أعلمهم الله تعالى وذكَّرهم أنَّه إنَّما نصر رسوله ﷺ ونصرهم بغير كُراع ولا عُدَّة. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أي: من أعدائه. وفي هذا بيان أنَّ تلك الأموال كانت خاصَّةً لرسول الله ﷺ دون أصحابه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ قال ابن عباس: هي قُرَيْظَة والنَّضير، وهما بالمدينة، وفَدَك، وهي على ثلاثة أيام من المدينة وخَيْبَر. وقُرَى

(١) مسلم (١٧٥٧)، وهو عند البخاري (٢٩٠٤)، وأحمد (١٧١)، والكراع: الدوابُّ التي تصلح للحرب.

(٢) برقم (١٧٥٧): (٤٩)، وهو عند البخاري (٣٠٩٤)، وأحمد (٤٢٥).

(٣) في تفسيره ٢/ ٦٦٣ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥١٤ .

عُرَينة[١]. ويَنْبُع جعلها الله لرسوله. وبَيَّن أنَّ في ذلك المال الذي خصَّه بالرسول عليه السلام سُهْماناً لغير الرسول، نظراً منه لعباده.

وقد تكلَّم العلماء في هذه الآية والتي قبلها، هل معناهما واحد أو مختلف، والآية التي في الأنفال، فقال قوم من العلماء: إنَّ قوله تعالى: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» منسوخ بما في سورة الأنفال من كون الخُمس لمن سُمِّيَ له، والأخماس الأربعة لمن قاتل. وكان في أوَّل الإسلام تُقسم الغَنِيمة على هذه الأصناف، ولا يكون لمن قاتل عليها شيء. وهذا قول يزيد بن رُومان وقتادة وغيرهما[٢]. ونحوه عن مالك. وقال قوم: إنَّما غنم بصلح من غير إيجاف خيل ولا رِكاب، فيكون لمن سمَّى الله تعالى فيه فَيْئاً، والأُولى للنبيِّ ﷺ خاصَّة، إذا أخذ منه حاجته كان الباقي في مصالح المسلمين. وقال معمر: الأُولى للنبيِّ ﷺ، والثانية هي الجزية والخراج، للأصناف المذكورة فيه. والثالثة الغنيمة في سورة الأنفال للغانمين[٣]. وقال قوم منهم الشافعيُّ: إنَّ معنى الآيتين واحد، أي: ما حصل من أموال الكفار بغير قتال قسم على خمسة أسهم؛ أربعة منها للنبيِّ ﷺ. وكان الخمس الباقي على خمسة أسهم: سهم لرسول الله ﷺ أيضاً، وسهم لذوي القربى ـ وهم بنو هاشم وبنو المطلب ـ لأنَّهم مُنِعوا الصدقة، فجعل لهم حقٌّ في الْفَيْء، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل[٤]. وأما بعد وفاة رسول الله ﷺ، فالذي كان من الْفَيْء لرسول الله ﷺ يصرف عند الشافعيِّ في قولٍ إلى المجاهدين المترصِّدين للقتال في الثغور؛ لأنَّهم القائمون مقام الرسول عليه الصلاة والسلام. وفي قول آخر له: يُصرَف إلى مصالح المسلمين من سدِّ الثغور وحفر الأنهار وبناء

---

(١) تفسير البغوي ٤/٣١٧.
(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/٥٦، ونواسخ القرآن لابن الجوزي ص٢٣٧، وأخرجه الطبري ٢٢/٥١٧ - ٥١٨ عن يزيد بن رومان وقتادة.
(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧٥٩.
(٤) الأم ٤/٧٧، وأحكام القرآن للشافعي جمع الإمام البيهقي ١/١٥٣ وما بعدها.

القناطر، يُقدَّم الأهمُّ فالأهمِّ، وهذا في أربعة أخماس الفيء[١]. فأمَّا السهم الذي كان له من خمس الفيء والغنيمة فهو لمصالح المسلمين بعد موته ﷺ بلا خلاف، كما قال عليه الصلاة والسلام: «ليس لي من غنائمكم إلا الخمس، والخمس مردودٌ فيكم»[٢]. وقد مضى القول فيه في سورة «الأنفال»[٣]. وكذلك ما خلَّفه من المال غير موروث، بل هو صدقة يُصرَف عنه إلى مصالح المسلمين، كما قال عليه السلام: «إنا لا نُورَث، ما تركناه صدقة»[٤]. وقيل: كان مال الفيء لنبيِّه ﷺ؛ لقوله تعالى: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ» فأضافه إليه؛ غير أنَّه كان لا يتأثَّل[٥] مالاً، إنَّما كان يأخذ بقدر حاجة عياله، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين.

قال القاضي أبو بكر بنُ العربيِّ[٦]: لا إشكالَ أنَّها ثلاثةُ معانٍ في ثلاث آيات؛ أما الآية الأولى فهي قوله: «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ» ثم قال تعالى: «وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ» يعني من أهل الكتاب معطوفاً عليهم. ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يريد كما بَيَّنَّا؛ فلا حقَّ لكم فيه، ولذلك قال عمر: إنَّها كانت خالصةً لرسول الله ﷺ، يعني بني النضير وما كان مثلها. فهذه آية واحدة ومعنًى متَّحد. الآية الثانية: قوله تعالى: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ» وهذا كلام مبتدأ غير الأوَّل لمستحقٍّ غيرِ الأوَّل. وسمَّى الآية الثالثة آيةَ الغنيمة، ولا شكَّ في أنَّه معنًى آخر باستحقاق ثانٍ لمستحقٍّ آخر، بَيْدَ أنَّ الآية الأولى والثانية، اشتركتا في أنَّ كلَّ واحدة منهما تضمَّنت شيئاً

---

(١) الأوسط لابن المنذر ١١/ ٩٥ .

(٢) سلف ٩/ ٤٤٤ .

(٣) ١٠/ ٢٤ وما بعدها.

(٤) سلف تخريجه قريباً.

(٥) أي: غير جامع، يقال: مال مؤثَّل، ومجد مؤثَّل. أي: مجموع ذو أصل، وأثلة الشيء: أصله. النهاية (أثل).

(٦) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٦٠ - ١٧٦١ .

أفاءه الله على رسوله، واقتضت الآية الأولى أنَّه حاصل بغير قتال، واقتضت آية الأنفال أنَّه حاصل بقتال، وعرِيت الآية الثالثة وهي قوله تعالى: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» عن ذِكْر حصوله بقتال أو بغير قتال؛ فنشأ الخلاف من ها هنا، فمن طائفة قالت: هي ملحقة بالأولى، وهو مال الصلح كلّه ونحوه. ومن طائفة قالت: هي ملحقة بالثانية، وهي آية الأنفال. والذين قالوا: إنَّها ملحقة بآية الأنفال، اختلفوا؛ هل هي منسوخة ـ كما تقدَّم ـ أو مُحكَمة؟ وإلحاقها بشهادة الله بالتي قبلها أَوْلى؛ لأنَّ فيه تجديد فائدة ومعنى. ومعلوم أنَّ حمل الحرف من الآية ـ فضلاً عن الآية ـ على فائدة متجدِّدة أَوْلى من حمله على فائدة معادة.

وروى ابن وهب عن مالك في قوله تعالى: «فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ» هي[١] النضير، لم يكن فيها خمس، ولم يُوجف عليها بخيل ولا ركاب. كانت صافيةً لرسول الله ﷺ، فقَسَمها بين المهاجرين وثلاثة من الأنصار، حسب ما تقدَّم. وقوله: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» هي قُرَيظة، وكانت قُريظة والخندق في يوم واحد. قال ابن العربيّ[٢]: قول مالك: إنَّ الآية الثانية في بني قُريظة، إشارة إلى أنَّ معناها يعود إلى آية الأنفال، ويلحقها النسخ، وهذا أقوى من القول بالإحكام، ونحن لا نختار إلا ما قسمنا وبيَّنَّا أنَّ الآية الثانية لها معنًى مجدَّد حسب ما دلَّلنا عليه. والله أعلم.

قلت: ما اختاره حَسَن. وقد قيل: إنَّ سورة «الحشر» نزلت بعد الأنفال، فمن المحال أن ينسخ المتقدِّمُ المتأخِّرَ[٣]. وقال ابن أبي نَجيح: المال ثلاثة: مَغْنم، أوفَيْءٌ، أو صَدَقة، وليس منه درهم إلا وقد بيَّن الله موضعه[٤]. وهذا أشبه.

---

(١) في (د) و(م): بني. والمثبت من (ظ) و(خ) و(ز)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٥٩ - ١٧٦٠ ، والكلام منه.

(٢) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٦١ .

(٣) نواسخ القرآن لابن الجوزي ص٢٣٨ .

(٤) أورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٨٥ وعزاه لابن المنذر.

الثالثة: الأموال التي للأئمة والوُلاة فيها مَدْخَلٌ، ثلاثةُ أضْرُب: ما أُخِذ من المسلمين على طريق التطهير لهم، كالصدقات والزكوات. والثاني: الغنائم، وهو ما يحصُل في أيدي المسلمين من أموال الكافرين بالحرب والقهر والغلبة. والثالث: الْفَيْء، وهو ما رجع للمسلمين من أموال الكفار عَفواً صفْواً من غير قتال ولا إيجاف، كالصلح والجِزية والخراج والعشور المأخوذة من تجّار الكفّار. ومثله أن يهرب المشركون ويتركوا أموالهم، أو يموت أحد منهم في دار الإسلام ولا وارثَ له. فأمَّا الصدقة فمصرفها الفقراء والمساكين والعاملين عليها، حسب ما ذكره الله تعالى، وقد مضى في «براءة»[١]. وأمَّا الغنائم فكانت في صدر الإسلام للنبيِّ ﷺ يصنع فيها ما شاء، كما قال في سورة «الأنفال»: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الآية: ١]، ثم نسخ بقوله تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ» الآية [٤١: من سورة الأنفال]. وقد مضى في الأنفال بيانه[٢].

فأما الفَيْءُ فقسمته وقسمة الخمس سواء. والأمر عند مالك فيهما إلى الإمام، فإن رأى حبسهما لنوازل تنزل بالمسلمين فَعَل، وإن رأى قسمتهما أو قسمة أحدهما، قَسَمه كلَّه بين الناس، وسوَّى فيه بين عربيِّهم ومَوْلاهم. ويبدأ بالفقراء من رجال ونساء حتى يَغْنَوْا، ويعطوا ذَوُو القربى من رسول الله ﷺ من الفيء سهمهم على ما يراه الإمام، وليس له حدٌّ معلوم. واختلف في إعطاء الغنيِّ منهم؛ فأكثر الناس على إعطائه، لأنَّه حقٌّ لهم. وقال مالك: لا يُعطَى منه غير فقرائهم؛ لأنَّه جُعل لهم عِوَضاً من الصدقة[٣].

وقال الشافعيُّ: أيّما حصل من أموال الكفَّار من غير قتال كان يقسم في عهد النبيِّ ﷺ على خمسة وعشرين سهماً: عشرون للنبيِّ ﷺ يفعل فيها ما يشاء. والخُمس يقسم على ما يقسم عليه خُمس الغنيمة. قال أبو جعفر أحمد بن الدَّاوُديّ: وهذا قول

(١) ١٠/ ٢٤٤ وما بعدها.

(٢) ١٠/ ١٩ وما بعدها.

(٣) الكافي لابن عبد البر ١/ ٤٧٨ .

ما سبقه به أحدٌ علمناه، بل كان ذلك خالصاً له، كما ثبت في الصحيح عن عمر[(١)] مبيِّناً للآية. ولو كان هذا لكان قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] يدلُّ على أنَّه يجوِّز الموهوبةَ لغيره، وأنَّ قوله: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢] يجوِّز أن يشركهم فيها غيرهم. وقد مضى قول الشافعيِّ مستَوعَباً في ذلك، والحمد لله. ومذهب الشافعيِّ ﷺ: أنَّ سبيل خمس الْفَيْء سبيل خمس الغنيمة، وأنَّ أربعة أخماسه كانت للنبيِّ ﷺ، وهي بعده لمصالح المسلمين. وله قول آخر: أنَّها بعده للمرصدين أنفسَهم للقتال بعده خاصة، كما تقدَّم.

الرابعة: قال علماؤنا: ويُقسم كلُّ مال في البلد الذي جُبيَ فيه، ولا يُنقَل عن ذلك البلد الذي جُبِيَ فيه حتى يَغنَوا، ثم يُنقَل إلى الأقرب من غيرهم، إلا أن ينزل بغير البلد الذي جُبِيَ فيه فاقةٌ شديدة، فينتقل ذلك إلى أهل الفاقة حيث كانوا، كما فعل عمر بن الخطاب ﷺ في أعوام الرَّمادة، وكانت خمسةَ أعوام أو ستَّة. وقد قيل: عامين. وقيل: عامٌ فيه اشتدَّ الطاعون مع الجوع. وإن لم يكن ما وصفنا، ورأى الإمام إيقافَ الْفَيْء، أوقفه لنوائب المسلمين، ويعطي منه المنفوس، ويبدأ بمن أبوه فقير. والْفَيْء حلال للأغنياء. ويسوِّي بين الناس فيه إلا أنَّه يُؤْثِر أهل الحاجة والفاقة. والتفضيل فيه إنَّما يكون على قَدْر الحاجة. ويُعطى منه الغرماء ما يؤدُّون به ديونهم. ويُعطى منه الجائزة والصلة إن كان ذلك أهلاً، ويرزق القضاة والحكام ومن فيه منفعة للمسلمين. وأوْلاهم بتوفر الحظِّ منهم أعظمهم للمسلمين نفعاً. ومن أخذ من الْفَيْء شيئاً في الديوان، كان عليه أن يغزو إذا غزى[(٢)].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً﴾ قراءة العامة: «يَكُونَ» بالياء. «دُولَةً» بالنصب، أي: كي لا يكون الفَيْء دُولةً[(٣)]. وقرأ أبو جعفر والأعرج وهشام ـ عن ابن

(١) سلف تخريجه عند الآية السادسة من هذه السورة.

(٢) الكافي لابن عبد البر ١/ ٤٧٨ ، وأعوام الرمادة كانت سنة ثمان عشرة للهجرة، وخبرها في تاريخ الطبري ٤/ ٩٦-١٠١ . والمنفوس: المولود. معجم متن اللغة (نفس).

(٣) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٧٢٥ .

عامر - وأبو حيوة: «تكون» بتاء، «دُولةٌ» بالرفع[١]، أي: كي لا تقع دُولة. فكان تامَّة. و«دُولَةٌ» رفع على اسم كان، ولا خبرَ له. ويجوز أن تكون ناقصةً، وخبرها: «بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ». وإذا كانت تامَّة فقوله: «بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ» متعلّق بـ «دُولة» على معنى: تداول بين الأغنياء منكم. ويجوز أن يكون «بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ» وصفاً لـ «دُولة». وقراءة العامة: «دُولة» بضمِّ الدال. وقرأها السُّلَمِيُّ وأبو حيوة بالنصب[٢]. قال عيسى بن عمر ويونس والأصمعيُّ: هما لغتان بمعنًى واحد[٣]. وقال أبو عمرو بن العلاء: الدَّوْلَة - بالفتح - الظَّفَر في الحرب وغيره، وهي المصدر. وبالضمِّ: اسم الشيء الذي يتداول من الأموال[٤]. وكذا قال أبو عبيدة: الدُّولة: اسم الشيء الذي يُتداول. والدَّوْلة: الفعل. ومعنى الآية: فعلنا ذلك في هذا الفَيْء؛ كي لا تقسمه الرؤساء والأغنياء والأقوياء بينهم دون الفقراء والضعفاء؛ لأنَّ أهل الجاهلية كانوا إذا غنِموا، أخذ الرئيس رُبْعها لنفسه، وهو المِرْباع، ثم يصطفي منها أيضاً بعد المرْباع ما شاء[٥]، وفيها قال شاعرهم:

لك المِرْباع منها والصَّفايا[٦]

يقول: كي لا يُعمَل فيه كما كان يُعمَل في الجاهلية. فجعل الله هذا لرسوله ﷺ، يقسمه في المواضع التي أمر بها ليس فيها خمس، فإذا جاء خمس وقع بين المسلمين جميعاً.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ أي: ما

---

(١) التيسير ص٢٠٩ عن هشام، والنشر ٢/ ٣٨٦ ، والمحتسب ٢/ ١٥٤ عن أبي جعفر، وما بعده منه، ومن الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي ٢/ ٣١٦ .

(٢) القراءات الشاذة ص١٥٤ عن السلمي.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٦ عن عيسى بن عمر، والنكت والعيون ٥/ ٥٠٣ عن يونس والأصمعي.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٠٣ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣١٨ .

(٦) هذا صدر بيت لعبد الله بن عَنَمة الضبي، وعجزه:

وحُكْمك والنشيطة والفضول

وسلف ١٠/ ٢٤ .

أعطاكم من مال الغَنيمة فخذوه، وما نهاكم عنه من الأخذ والغُلول، فانتهوا، قاله الحسن وغيره. السُّدِّيُّ: ما أعطاكم من مال الْفَيْء، فاقبلوه، وما منعكم منه، فلا تطلبوه. وقال ابن جُريج: ما آتاكم من طاعتي فافعلوه، وما نهاكم عنه من معصيتي فاجتنبوه. الماوردِيُّ[1]: وقيل: إنَّه محمول على العموم في جميع أوامره ونواهيه، لا يأمر إلا بصلاح، ولا ينهى إلا عن فساد.

قلت: هذا هو معنى القول الذي قبله. فهي ثلاثة أقوال.

السابعة: قال المهدوِيُّ: قوله تعالى: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» هذا يوجب أنَّ كلَّ ما أَمَرَ به النبيُّ ﷺ أَمْرٌ من الله تعالى. والآية وإن كانت في الغنائم، فجميع أوامره ﷺ ونواهيه دخل فيها. وقال الحَكَم بن عُمير - وكانت له صحبة -: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ هذا القرآنَ صَعْبٌ مُسْتَصْعَب، عسير على من تركه، يسير على من اتَّبعه وطلبه. وحديثي صعب مستصعب، وهو الحَكَم، فمن استمسك بحديثي وحَفِظَه، نجامع القرآن، ومن تهاون بالقرآن وحديثي، خسر الدنيا والآخرة. وأُمرتم أن تأخذوا بقولي وتكتنفوا أمري وتتَّبعوا سُنَّتي، فمن رضي بقولي فقد رضي بالقرآن، ومن استهزأ بقولي، فقد استهزأ بالقرآن، قال الله تعالى: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»[2].

الثامنة: قال عبد الرحمن بن زيد: لقي ابنُ مسعود رجلاً مُحْرِماً وعليه ثيابه، فقال له: انزع عنك هذا. فقال الرجل: أتقرأ عليَّ بهذا آيةً من كتاب الله تعالى؟ قال: نعم، «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»[3].

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٥٠٤ ، وما قبله منه أيضاً، وقول الحسن أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٤٩٥ ، والطبري ٢٢/ ٥٢٢ .

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي (١٦٣٠) مقتصراً على طرفه الأول، وفي إسناده: عيسى بن إبراهيم القرشي، وهو منكر الحديث، وأورده الذهبي في ميزان الاعتدال ٣/ ٣٠٨ - ٣٠٩ وعدَّه من مناكيره.

(٣) الكشاف ٤/ ٨٢ - ٨٣ ، وأخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢٢٣٨) عن عبد الرحمن بن يزيد، دون ذكر ابن مسعود ﷺ.

وقال عبيد الله بن محمد بن هارون الفِرْيَابِيُّ: سمعتُ الشافعيَّ ﷺ يقول: سلوني عمَّا شئتم، أُخبركم من كتاب الله تعالى وسنَّة نبيِّكم ﷺ. قال: فقلت له: ما تقولُ - أصلحكَ اللهُ - في المُحْرِم يقتل الزُّنْبُور؟ قال: فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا». وحدَّثنا سُفيان بن عُيَيْنَة، عن عبد الملك بن عُمير، عن رِبْعِيِّ بنِ حراش، عن حُذيفة بن اليَمَان، قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتدوا باللَّذَيْن من بعدي أبي بكر وعمر». وحدَّثنا سفيان بن عُيينة، عن مِسْعر بن كِدَام، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب - ﷺ - أنَّه أمر بقَتْل الزُّنْبُور[1].

قال علماؤنا: وهذا جواب في نهاية الحُسْنِ، أفتى بجواز قتل الزنبور في الإحرام، وبيَّن أنَّه يَقتدي فيه بعمر، وأنَّ النبيَّ ﷺ أَمَرَ بالاقتداء به، وأنَّ الله سبحانه أَمَرَ بقبول ما يقوله النبيُّ ﷺ، فجواز قَتْله مستنبَط من الكتاب والسنة. وقد مضى هذا المعنى من قول عكرمة حين سُئل عن أمهات الأولاد فقال: هنَّ أحرار. في سورة «النساء» عند قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [الآية: ٥٩][2].

وفي «صحيح مسلم» وغيره عن علقمة، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لعن الله الواشِماتِ والمُسْتَوْشِماتِ، والمُتَنَمِّصاتِ، والمُتفلِّجاتِ للحُسْن، المُغَيِّراتِ

---

(١) أخرجه بتمامه البيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٢١٢ من طريق عبد الله بن وهب الدينوري، عن الفريابي، به، وهو عند أبي نعيم في الحلية ٩/ ١٠٩ -١١٠ من طريق محمد يزيد بن حكيم، قال: رأيت محمد بن إدريس الشافعي في المسجد الحرام، وقد جعلت له طنافس يجلس عليها، . فأتاه رجل من أهل خراسان فقال: يا أبا عبد الله ما تقول في أكل فرخ الزنبور؟ قال: حرام. فقال الخراساني: حرام؟! فقال: نعم، من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ والمعقول، . . . الخبر، فذكر الآية المذكورة أعلاه، وخبر الاقتداء، وخبر عمر لكن بإسناد آخر عنه. وقوله ﷺ: «اقتدوا باللَّذَيْن من بعدي أبي بكر وعمر» أخرجه الترمذي (٣٦٦٢) بإسنادين، أحدهما: عن أحمد بن منيع، عن ابن عيينة، به. والآخر: عن الحسن بن الصباح، عن سفيان بن عيينة، عن زائدة، عن عبد الملك بن عمير، به. وهو عند أحمد (٢٣٢٤٥). قال الترمذي: وكان سفيان بن عيينة يُدلِّس في هذا الحديث، فربَّما ذكره عن زائدة، عن عبد الملك بن عمير، وربَّما لم يذكر فيه: عن زائدة. وقال أيضاً: هذا حديث حسن. اهـ. وبرقم (٣٦٦٣) من طريق عمرو بن هرم، عن ربعي، به.
وقول عمر أورده الشافعي في الأم ٧/ ١٩٨ ، وسلف ٨/ ١٨٣ .

(٢) ٦/ ٤٣٠ .

خَلْقَ الله» فبلغ ذلك امرأةً من بني أسد يقال لها: أم يعقوب، فجاءت فقالت: بلغني أنَّك لعنتَ كَيْتَ وكيت! فقال: ومالِيَ لا ألعنُ مَن لَعَنَ رسولُ الله ﷺ وهو في كتاب الله! فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول؟! فقال: لئن كنتِ قرأتيه لقد وَجَدْتِيه! أما قرأتِ: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»! قالت: بلى. قال: فإنَّه قد نهى عنه.. الحديث. وقد مضى القول فيه في «النساء» مستوفًى[١].

التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ وإن جاء بلفظ الإيتاء: وهو المناولة، فإنَّ معناه الأمر؛ بدليل قوله تعالى: «وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»، فقابله بالنهي، ولا يُقابل النهي إلا بالأمر، والدليل على فهم ذلك ما ذكرناه قبل[٢]، مع قوله عليه الصلاة والسلام: «إذا أمرتكم بأمْرٍ فَأْتُوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»[٣]. وقال الكلبيُّ: إنَّها نزلت في رؤساء المسلمين، قالوا فيما ظهر عليه رسولُ الله ﷺ من أموال المشركين: يا رسولَ الله، خُذ صَفِيَّك والرُّبع، ودعنا والباقي؛ فهكذا كنَّا نفعل في الجاهلية. وأنشدوه:

لك المِرْباع منها والصَّفايا ... وحُكْمُكَ والنَّشِيطة والفُضُول

فأنزل الله تعالى هذه الآية[٤].

العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: عذاب الله، إنَّه شديد لمن عصاه[٥]. وقيل: اتقوا الله في أوامره ونواهيه فلا تضيِّعوها[٦]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خالف ما أمره به.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٢ - ١٧٦٣ بتمامه، والحديث عند مسلم (٢١٢٥)، ولم يرد منه عبارة: قال رسول الله ﷺ. والحديث سلف ٧/ ١٤٢.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٢.

(٣) سلف ٥/ ٢١٦ - ٢١٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٠٤، والبيت لعبد الله بن عَنَمة الضبي، وسلف ١٠/ ٢٤.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٤.

(٦) الكشاف ٤/ ٨٢.

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾

أي: الفَيْءُ والغنائمُ «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ». وقيل: «كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ» ولكن يكون «لِلْفُقَرَاءِ»[١]. وقيل: هو بيان لقوله: «وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ»[٢] فلما ذُكروا بأصنافهم، قيل: المال لهؤلاء؛ لأنَّهم فقراء ومهاجرون، وقد أُخرجوا من ديارهم؛ فهم أحقُّ الناس به. وقيل: «وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ» للفقراء المهاجرين؛ لكيلا يكون المال دولةً للأغنياء من بني الدنيا. وقيل: والله شديد العقاب للمهاجرين؛ أي: شديد العقاب للكفَّار بسبب الفقراء المهاجرين ومن أجْلهم. ودخل في هؤلاء الفقراء المتقدِّم ذكرهم في قوله تعالى: «وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى». وقيل: هو عطف على ما مضى، ولم يأتِ بواو العطف كقولك: هذا المال لزيد لِبَكْر لفلان لفلان.

والمهاجرون هنا: من هاجر إلى النبيِّ ﷺ؛ حُبّاً فيه ونُصْرَةً له. قال قتادة: هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والأهلين والأوطان، حبّاً لله ولرسوله، حتى إنَّ الرجل منهم كان يَعْصِب الحجر على بطنه؛ ليقيم به صُلبه من الجوع، وكان الرجل يتَّخذ الحَفِيرة في الشتاء ماله دِثار غيرها[٣]. وقال عبد الرحمن بن أبزى وسعيد بن جُبَير: كان ناس من المهاجرين لأحدهم العبد والزوجة والدار والناقة يحجُّ عليها ويغزو، فنسبهم الله إلى الفَقْر، وجعل لهم سهماً في الزكاة[٤]. ومعنى «أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ»، أي: أخرجهم كفَّار مكَّة، أي: أحْوَجُوهم إلى الخروج، وكانوا مئةَ رجل. ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون. ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: غنيمة في الدنيا ﴿وَرِضْوَانًا﴾ في الآخرة، أي:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/٣٩٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/٢٨٦ .

(٣) تفسير البغوي ٤/٣١٨ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/٥٢٣ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/٥٢٣ عن سعيد بن جبير وسعيد بن عبد الرحمن بن أبزى.

مرضاة ربِّهم. ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في الجهاد في سبيل الله. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في فعلهم ذلك. ورُويَ أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ خطب بالجابية فقال: من أراد أن يسأل عن القرآن فليأتِ أُبَيَّ بنَ كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأتِ زيدَ بنَ ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأتِ معاذَ بنَ جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني؛ فإنَّ الله تعالى جعلني له خازناً وقاسماً. ألَا وإنِّي بادٍ بأزواج النبيِّ ﷺ فمعطيهنَّ، ثم بالمهاجرين الأوَّلين؛ أنا وأصحابي أُخْرِجنا من مكَّة من ديارنا وأموالنا[١].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾

فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ لا خلاف أنَّ الذين تبوَّؤوا الدار هم الأنصار الذين استوطنوا المدينة قبل المهاجرين إليها[٢]. «وَالْإِيمَانَ» نصب بفعل غير تبوَّأ؛ لأنَّ التبوُّءَ إنَّما يكون في الأماكن. و﴿مِن قَبْلِهِم﴾ «مِنْ» صلة تبوَّأ، والمعنى: والذين تبوَّؤوا الدار من قبل المهاجرين، واعتقدوا الإيمان وأخلصوه؛ لأنَّ الإيمان ليس بمكان يتبوَّأ، كقوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١] أي: وادعوا شركاءكم؛ ذكره أبو عليٍّ والزمخشري[٣] وغيرهما. ويكون من باب قوله:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٥٠٥ وعزاه إلى علي بن رباح اللخمي، وأخرجه عنه أبو عبيد في الأموال (٥٤٨). وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٣٧٩٥) من طريق عكرمة، عن ابن عباس، بنحوه. وقال: لم يروِ هذا الحديث عن داود بن الحصين إلا ابنه سليمان، تفرَّد به عبد الله بن محمد بن عمارة الأنصاري. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٣٥: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجاله موثقون.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣١٩.

(٣) في الكشاف ٤/ ٨٣، وما بعده منه أيضاً.

عَـلَـفْـتُـهَـا تِـبـنـاً ومـاءً بـارداً[١]

ويجوز حمله على حذف المضاف، كأنه قال: تبوَّؤوا الدارَ ومواضعَ الإيمان. ويجوز حمله على ما دلَّ عليه تبوَّأ، كأنَّه قال: لزموا الدارَ ولزموا الإيمانَ، فلم يفارقوهما. ويجوز أن يكون تبوَّأ الإيمان على طريق المَثَل، كما تقول: تبوَّأ من بني فلان الصميم[٢]. والتبوُّء: التمكُّن والاستقرار. وليس يريد أنَّ الأنصار آمنوا قبل المهاجرين، بل أراد آمنوا قبل هجرة النبيِّ ﷺ إليهم.

الثانية: واختلف أيضاً هل هذه الآية مقطوعة مما قبلها، أو معطوفة؟ فتأوَّل قوم أنَّها معطوفة على قوله: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ» وأنَّ الآياتِ التي في الحَشْر كلَّها معطوفة بعضها على بعض. ولو تأمَّلوا ذلك وأنصفوا، لوجدوه على خلاف ما ذهبوا إليه؛ لأنَّ الله تعالى يقول: «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا» إلى قوله: «الْفَاسِقِينَ» فأخبر عن بني النَّضِير وبني قَيْنُقاع. ثم قال: «وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ» فأخبر أنَّ ذلك للرسول ﷺ؛ لأنَّه لم يُوجف عليه حين خَلَّوه. وما تقدَّم فيهم من القتال وقَطْع شجرهم، فقد كانوا رجعوا عنه، وانقطع ذلك الأمر. ثم قال: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ» وهذا كلام غيرُ معطوف على الأوَّل. وكذا: «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ» ابتداءُ كلام في مدح الأنصار والثناء عليهم؛ فإنَّهم سلَّموا ذلك الْفَيْءَ للمهاجرين؛ وكأنَّه قال: الفيء للفقراء المهاجرين، والأنصار يُحبُّون لهم، لم يحسدوهم على ما صَفَا لهم من الْفَيْء. وكذا «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» ابتداءُ كلام، والخبر: «يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا».

وقال إسماعيل بن إسحاق: إنَّ قوله: «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ»، «وَالَّذِينَ جَاءُوا»

---

(١) سلف ١/ ٢٩١ .

(٢) قال المبرِّد في الكامل ٣/ ١٠٩٣ : الصميم: الخالص من كل شيء، يقال: فلان من صميم قومه، أي: من خالصهم.

معطوف على ما قبلُ، وأنَّهم شركاء في الفيء، أي: هذا المال للمهاجرين والذين تبوَّؤوا الدار.

وقال مالك بن أوْس: قرأ عمر بن الخطاب ﷺ هذه الآيةَ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ [التوبة: ٦٠] فقال: هذه لهؤلاء. ثم قرأ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١] فقال: هذه لهؤلاء. ثم قرأ: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ» حتى بلغ: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ»، «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ»، «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» ثم قال: لئن عشتُ ليأتينَّ الراعِيَ وهو بسَرْوِ حِمْيَر نصيبُه منها لم يَعْرَق فيها جبينه[١].

وقيل: إنَّه دعا المهاجرين والأنصار واستشارهم فيما فتحَ الله عليه من ذلك، وقال لهم: تثبَّتوا الأمر وتدبَّروه، ثم اغدوا عليَّ. ففكَّر في ليلته فتبيَّن له أنَّ هذه الآيات في ذلك أُنزلت. فلما غدَوْا عليه قال: قد مررت البارحةَ بالآيات التي في سورة «الحشر» وتلا: «مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» إلى قوله: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ» فلما بلغ قوله: «أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» قال: ما هي لهؤلاءِ فقط. وتلا قوله: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» إلى قوله: «رَؤُوفٌ رَحِيمٌ». ثم قال: ما بقي أحد من أهل الإسلام إلا وقد دخل في ذلك. والله أعلم.

الثالثة: روى مالك، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أنَّ عمر قال: لولا من يأتي من آخِرِ الناس ما فُتحت قريةٌ إلا قسمتها، كما قسم رسولُ الله ﷺ خَيْبر[٢]. وفي الروايات المستفيضة من الطرق الكثيرة: أنَّ عمر أبقى سوادَ العراق ومصر وما ظهر عليه من الغنائم[٣]؛ لتكونَ من أُعطِيات المقاتلة وأرزاق الحِشْوة والذَّراري، وأنَّ الزبير وبِلالاً

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٤ ، وأبو عبيد في الأموال (٥٢٦)، وهو عند البخاري (٤٠٣٣)، ومسلم (١٧٥٧) مطولاً بنحوه. قال أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٢٦٧ عن أبي عمرو: السرو: ما انحدر من حزونة الجبل، وارتفع عن منحدر الوادي، فما بينهما سرو.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٣٤) من طريق عبد الرحمن، عن مالك، به، وهو عند أحمد (٢٨٤)، ومن طريقه أبو داود (٣٠٢٠) وسلف ١٠/ ٩ .

(٣) الأوسط لابن المنذر ١١/ ٤٤ - ٤٥ ، ومختصر اختلاف العلماء للجصاص ٣/ ٤٩٥ . والسواد: جماعة النخل والشجر؛ لخضرته واسوداده، والسواد: ما حوالي الكوافة من القرى والرساتيق. اللسان (سود).

وغيرَ واحد من الصحابة أرادوه على قَسْمِ ما فتح عليهم، فكره ذلك منهم، واختلف فيما فعل من ذلك، فقيل: إنَّه استطاب أنفس أهل الجيش؛ فمن رضيَ له بترك حَظّه بغير ثمن ليُبْقِيَه للمسلمين قلَّةٌ. ومن أبى، أعطاه ثمن حظِّه[١]. فمن قال: إنَّما أبقى الأرض بعد استطابة أنفس القوم، جعل فعله كفعل النبيِّ ﷺ؛ لأنَّه قسم خَيْبر؛ لأنَّ اشتراءه إيَّاها وترك من ترك عن طيب نفسه، بمنزلة قسمها. وقيل: إنَّه أبقاها بغير شيء أَعطاه أهل الجيوش. وقيل: إنَّه تأوّل في ذلك قول الله سبحانه وتعالى: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ» إلى قوله: «رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ» على ما تقدّم[٢]. والله أعلم.

الرابعة: واختلف العلماء في قسمة العَقار؛ فقال مالك: للإمام أن يوقفها لمصالح المسلمين. وقال أبو حنيفة: الإمام مخيَّر بين أن يقسمها أو يجعلها وَقْفاً لمصالح المسلمين. وقال الشافعيُّ: ليس للإمام حبسها عنهم بغير رضاهم، بل يقسمها عليهم، كسائر الأموال. فمن طاب نفساً عن حقِّه للإمام أن يجعله وقْفاً عليهم، فله. ومن لم تَطِب نفسُه، فهو أحقُّ بماله[٣]. وعمر ﷺ استطاب نفوس الغانمين واشتراها منهم[٤].

قلت: وعلى هذا يكون قوله: «والَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» مقطوعاً مما قبله، وأنَّهم نُدبوا بالدعاء للأوَّلين والثناء عليهم.

الخامسة: قال ابن وهب: سمعت مالكاً يذكر فَضْلَ المدينة على غيرها من الآفاق فقال: إنَّ المدينة تُبُوِّئت بالإيمان والهجرة، وإنَّ غيرها من القُرَى افتُتِحت بالسيف، ثم قرأ: «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ» الآية[٥]. وقد مضى الكلام في هذا، وفي فَضْلِ الصلاة في المسجدين: المسجد

(١) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٤٠٧ بنحوه.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٤٣٣ بنحوه.

(٣) التمهيد ٦/ ٤٥٨ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٣ .

(٥) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٤٠٧ .

الحرام ومسجد المدينة، فلا معنى للإعادة[١].

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ يعني لا يحسدون المهاجرين على ما خُصُّوا به من مال الفَيْء وغيره، كذلك قال الناس[٢]. وفيه تقدير حذف مضافين؛ المعنى: مَسَّ حاجةٍ مِن فَقْدِ ما أوتوا. وكلُّ ما يجد الإنسان في صدره مما يحتاج إلى إزالته فهو حاجة. وكان المهاجرون في دُوْرِ الأنصار، فلما غَنم عليه الصلاة والسلام أموال بني النَّضير، دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين في إنزالهم إيَّاهم في منازلهم، وإشراكهم في أموالهم. ثم قال: «إن أحببتم قسمتُ ما أفاء الله عليَّ من بني النَّضِير بينكم وبينهم، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السُّكنى في مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم». فقال سعد بن عُبَادة وسعد بن معاذ: بل تقسمه بين المهاجرين، ويكونون في دورنا كما كانوا. ونادت الأنصار: رضينا وسَلَّمنا يا رسولَ الله. فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ ارحم الأنصار وأبناءَ الأنصار». وأعطى رسول الله ﷺ المهاجرين، ولم يُعْطِ الأنصارَ شيئاً إلا الثلاثة الذين ذكرناهم[٣]. ويحتمل أن يريد به: «وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا» إذا كان قليلاً [بل] يقنعون به، ويرضَوْن عنه. وقد كانوا على هذه الحالة حين حياة النبيِّ ﷺ دُنْيَا، ثم كانوا عليه بعد موته ﷺ بحكم الدنيا. وقد أنذرهم النبيُّ ﷺ وقال: «سترون بعدي أَثَرَة، فاصبروا حتى تلقوْني على الحوض»[٤].

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ في الترمذيِّ عن أبي هريرة: أنَّ رجلاً بات به ضيفٌ، فلم يكن عنده إلا قوتُه وقوتُ صبيانه؛ فقال

---

(١) ٨/١٨٨ و١٢/١٥١ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٣ .

(٣) أخرجه الواقدي في المغازي ١/ ٣٧٨ - ٣٧٩ عن أم العلاء رضي الله عنها، وسلف ذكر الثلاثة ص٣٤٦ من هذا الجزء.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٣ - ١٧٦٤ وما بين حاصرتين منه، والحديث سلف ١١/ ٦١ .

لامرأته: نَوِّمي الصِّبيةَ، وأطفئي السراج، وقَرِّبي للضيف ما عندك، فنزلت هذه الآية: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ». قال: هذا حديث حسن صحيح. خرَّجه مسلم أيضاً[1].

وخرَّج عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إنِّي مجهود. فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحقِّ ما عندي إلا ماءٌ. ثم أرسل إلى الأخرى فقالت مثل ذلك، حتى قُلْنَ كلُّهنَّ مثلَ ذلك: لا، والذي بعثكَ بالحقِّ ما عندي إلا ماءٌ. فقال: «مَن يُضيف هذا الليلةَ رحمه الله»؟. فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فانْطَلَق به إلى رَحْلِه، فقال لامرأته: هل عندكِ شيءٌ؟ قالت: لا، إلا قوتُ صِبياني. قال: فعلِّليهم بشيء، فإذا دخل ضيفُنا، فأطفئي السِّراج وأَرِيه أنَّا نأكل، فإذا أهوى ليأكل، فقومي إلى السراج حتى تُطفئيه. قال: فقعدوا وأَكَلَ الضيف. فلما أصبح غدَا على النبيِّ ﷺ فقال: «قد عَجِبَ اللهُ من صنيعكما بضيفكما الليلة»[2].

وفي رواية عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ليُضيفه، فلم يكن عنده ما يُضيفُه. فقال: «ألا رَجُلٌ يُضيفُ هذا رحمه الله»؟ فقام رجل من الأنصار يقال له: أبو طلحة. فانطلق به إلى رحله، وساق الحديث بنحو الذي قبله، وذكر فيه نزولَ الآية[3].

وذكر المهدويُّ عن أبي هريرة أنَّ هذا نزل في ثابت بنِ قيس ورجلٍ من الأنصار ـ نزل به ثابت ـ يقال له: أبو المتوكِّل، فلم يكن عند أبي المتوكِّل إلا قوته وقوت صِبيانه، فقال لامرأته: أطفئي السراج ونوِّمي الصبيةَ؛ وقَدَّم ما كان عنده إلى ضيفه. وكذا ذكر النحَّاس قال: قال أبو هريرة: نزل برجل من الأنصار ـ يقال له: أبو المتوكِّل ـ ثابت بن قيس ضيفاً، ولم يكن عنده إلا قوته وقوت صِبيانه، فقال لامرأته:

---

(١) الترمذي (٣٣٠٤)، ومسلم (٢٠٥٤): (١٧٣).

(٢) مسلم (٢٠٥٤)، وهو عند البخاري (٤٨٨٩)، والواحدي في أسباب النزول ص٤٤٥ - ٤٤٦ بنحوه.

(٣) مسلم (٢٠٥٤): (...).

أطفئي السراج ونوِّمي الصبية؛ فنزلت: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» إلى قوله: «فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». وقيل: إنَّ فاعل ذلك أبو طلحة[١]. وذكر القشيريُّ أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم: وقال ابن عمر: أُهديَ لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأسُ شاة فقال: إنَّ أخي فلاناً وعيالَه أحوجُ إلى هذا منَّا، فبعثه إليهم، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها سبعةُ أبيات، حتى رجعت إلى أولئك؛ فنزلت: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ»[٢]. ذكره الثعلبيُّ عن أنس قال: أُهْدِيَ لرجل من الصحابة رأسُ شاة ـ وكان مجهوداً ـ فوجَّه به إلى جارٍ له، فتداولته سبعةُ أنفس في سبعة أبيات، ثم عاد إلى الأوَّل، فنزلت: «ويُؤْثِرونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ» الآية[٣].

وقال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ للأنصار يوم بني النَّضير: «إن شئتم قسمت للمهاجرين من دياركم وأموالكم، وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم، ولم يقسم لكم من الغنيمة شيئاً» فقالت الأنصار: بل نقسم لإخواننا من ديارنا وأموالنا، ونؤثرهم بالغنيمة، فنزلت: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ» الآية[٤]. والأوَّل أصحُّ[٥].

وفي «الصحيحين» عن أنس: أنَّ الرجل كان يجعل للنبيِّ ﷺ النخلات من أرضه حتى فُتحت عليه قُرَيْظة والنَّضِير، فجعل بعد ذلك يردُّ عليه ما كان أعطاه. لفظ مسلم[٦]. وقال الزُّهريُّ عن أنس بن مالك: لما قدم المهاجرون ـ من مكَّةَ ـ المدينةَ، قَدِموا وليس بأيديهم شيء، وكان الأنصار أهلَ الأرض والعقار، فقاسمهم الأنصار

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٧ بنحوه، وسلف ذكر أبي طلحة في حديث مسلم (٢٠٥٤).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٨٣ - ٤٨٤، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٤٧٩). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: فيه عبيد الله بن الوليد ضعَّفوه.

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٢١٤ بنحوه، وأخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٤٤٦ عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٠، وزاد المسير ٨/ ٢١٤.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٤.

(٦) برقم (١٧٧١)، والبخاري (٣١٢٨).

على أن أعطوهم أنصافَ ثمار أموالهم كلَّ عام، ويكفُونهم العملَ والمؤونة، وكانت أمُّ أنس بن مالك تُدْعَى بأمِّ سُلَيم، وكانت أمَّ عبدِ الله بن أبي طلحة، كان أخاً لأنَسٍ لأمِّه، وكانت أعطت أمُّ أنَسٍ رسولَ الله ﷺ عِذاقاً لها، فأعطاها رسول الله ﷺ أمَّ أيْمَنَ مَوْلَاتَه، أمَّ أسامة بنِ زيد. قال ابنُ شهاب: فأخبرني أنس بن مالك: أنَّ رسول الله ﷺ لما فرغ من قتال أهل خَيْبَر وانصرف إلى المدينة، ردَّ المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا مَنَحُوهم من ثمارهم. قال: فردَّ رسول الله ﷺ إلى أمِّي عِذاقها، وأعطى رسولُ الله ﷺ أمَّ أيْمَن مكانهنَّ من حائطه. خرَّجه مسلم أيضاً[(١)].

الثامنة: الإيثار: هو تقديم الغير على النفس وحظوظِها الدنياوية، رغبةً في الحظوظ الدينية. وذلك ينشأ عن قوَّة اليقين، وتوكيد المحبَّة، والصبر على المشقَّة[(٢)]. يقال: آثرته بكذا، أي: خصصته به وفضَّلته[(٣)]. ومفعول الإيثار محذوف، أي: يؤثرونهم على أنفسهم بأموالهم ومنازلهم، لا عن غِنًى، بل مع احتياجهم إليها[(٤)]، حسب ما تقدَّم بيانه.

وفي «موطأ مالك»: أنَّه بلغه عن عائشة زوج النبيِّ ﷺ، أنَّ مسكيناً سألها وهي صائمة، وليس في بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاة لها: أعطيه إيَّاه. فقالت: ليس لكِ ما تُفطِرين عليه؟ فقالت: أعطيه إيَّاه. قالت: ففعلت. قالت: فلما أمسينا أهْدَى لنا أهلُ بيت، أو إنسانٌ، ما كان يُهدى لنا: شاةً وكَفَنَها. فدعتني عائشة فقالت: كُلِي من هذا، فهذا خير من قُرْصك[(٥)].

قال علماؤنا: هذا من المال الرابح، والفعل الزاكي عند الله تعالى، يعجِّل منه

---

(١) برقم (١٧٧١)، وهو عند البخاري (٢٦٣٠)، وعذاقاً: جميع عَذق، وهي النخلة، والمنيحة: المنحة. النهاية (عذق) و(منح).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٥ .

(٣) اللسان (أثر).

(٤) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٨٧ .

(٥) الموطأ ٢/ ٩٩٧ ، ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان (٣٤٨٢).

ما يشاء، ولا ينقص ذلك مما يدَّخر عنه. ومن تَرَكَ شيئاً لله، لم يجد فَقْدَه. وعائشة رضي الله عنها في فعلها هذا من الذين أثنى الله عليهم بأنَّهم يؤثرون على أنفسهم مع ما هم فيه من الخصاصة، وأنَّ من فعل ذلك، فقد وقي شُحَّ نفسِه، وأفلح فلاحاً لا خسارةَ بعده. ومعنى: شاةٌ وكَفَنَها: فإنَّ العرب ـ أو بعض العرب، أو بعض وجوههم ـ كان هذا من طعامهم، يأتون إلى الشاة أو الخروف إذا سلخوه غَطَّوْه كلَّه بعجِينِ البُرِّ، وكفنُوه به، ثم عَلَّقوه في التَّنُّور، فلا يخرج من وَدَكِه شيء إلا في ذلك الكفن؛ وذلك من طيِّب الطعام عندهم[١].

وروى النسائيُّ عن نافع أنَّ ابن عمر اشتكى واشتهى عِنَباً، فاشْتُرِي له عنقود بدرهم، فجاء مسكين فسأل، فقال: أعطوه إيَّاه. فخالف إنسانٌ، فاشتراه بدرهم، ثم جاء به إلى ابن عمر، فجاء المسكينُ فسأل، فقال: أعطوه إيَّاه. ثم خالف إنسانٌ، فاشتراه بدرهم، ثم جاء به إليه، فأراد السائل أن يرجع، فمنع. ولو علم ابنُ عمر أنَّه ذلك العنقود ما ذاقه[٢]؛ لأنَّ ما خرج للهِ لا يعود فيه.

وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا محمد بن مطرِّف قال: حدَّثنا أبو حازم، عن عبد الرحمن بن سعيد بن يَرْبُوع، عن مالك الدار: أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ أخذ أربع مئة دينار، فجعلها في صُرَّة ثم قال للغلام: اذهب بها إلى أبي عُبيدة بنِ الجرَّاح، ثم تَلَكَّأْ

---

(١) الاستذكار ٢٧/ ٤٠٦ - ٤٠٧، ووقع في مطبوعه: وأفلح فلا حاجة لإحسان بعده. بدل: وأفلح فلاحاً لا خسارة بعده. والوَدَك: دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه. اللسان (ودك).

(٢) لم نقف عليه عند النسائي في المجتبى والكبرى، وأخرجه ابن عبد البر في الاستذكار ٢٧/ ٤٠٧ من طريق القيروان، عن أحمد بن شعيب النسائي، عن الحسن بن الحسن المروذي، والطبراني في الكبير (١٣٠٦٧)، ـ ومن طريقه أبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٢٩٧ ـ من طريق نعيم بن حماد، كلاهما عن ابن المبارك، عن عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر، عن نافع، به.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٣٤٧: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، غير نعيم بن حماد، وهو ثقة. اهـ.

وأخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٩٧ من طريق خبيب بن عبد الرحمن، عن نافع، أن ابن عمر اشتهى عنباً... بنحوه.

ساعةً في البيت حتى تنظرَ ماذا يصنع بها. فذهب بها الغلام إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: وَصَلَه الله ورَحمه، ثم قال: تعالي يا جارية، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، حتى أنفدها. فرجع الغلام إلى عمر، فأخبره، فوجده قد أعدَّ مثلها لمعاذ بن جبل، وقال: اذهب بهذا إلى معاذ بن جبل، وتَلَكّأْ في البيت ساعةً حتى تنظرَ ماذا يصنع، فذهب بها إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: رحمه الله ووَصَله، وقال: يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، وبيت فلان بكذا، فاطَّلعت امرأةُ معاذ فقالت: ونحن! واللهِ مساكين، فأعطنا. ولم يَبْقَ في الخرقة إلا ديناران فدحا[1] بهما إليها. فرجع الغلام إلى عمر فأخبره، فسُرَّ بذلك عمر وقال: إنَّهم إخوة! بعضهم من بعض[2]. ونحوه عن عائشة رضي الله عنها في إعطاء معاوية إيَّاها، وكان عشرة آلاف، وكان المُنْكَدِر دخل عليها[3].

فإن قيل: وردت أخبار صحيحة في النهي عن التصدُّق بجميع ما يملكه المرء، قيل له: إنَّما كره ذلك في حقِّ من لا يُوثَق منه الصبر على الفقر، وخاف أن يتعرَّض للمسألة إذا فقد ما ينفقه. فأمَّا الأنصار الذين أثنى الله عليهم بالإيثار على أنفسهم، فلم يكونوا بهذه الصفة، بل كانوا كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

---

(١) في (م): قد جاء. والمثبت من النسخ الخطية ومصادر التخريج، ودحا: رمى وألقى. اللسان (دحا).

(٢) الزهد لابن المبارك (٥١١) ـ ومن طريقه أخرجه أيضاً الطبراني في الكبير ٢٠/ ٣٣ (٤٦)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٣٧ ـ عن محمد بن مطرِّف، به. قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير، ومالك الدار: لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. اهـ.

وقوله: تلكّأ. في الموضعين، وقعت عند ابن المبارك والطبراني: تلهَّ. وعند أبي نعيم وقعت في الموضع الأول: تلبَّث، وفي الموضع الثاني: وتلهَّ. قال ابن الأثير في النهاية (لها): وحديث عمر أنه بعث إلى أبي عبيدة بمال في صرَّة، وقال للغلام: اذهب بها إليه، ثم تلهَّ ساعة في البيت... أي: تشاغل وتعلَّل.

(٣) بعدها في (د)و(ظ) بياض، والخبر أخرجه ابن سعد في الطبقات ٥/ ٢٨ .

وكان الإيثار فيهم أفضلَ من الإمساك. والإمساك لمن لا يصبر ويتعرَّض للمسألة أَولى من الإيثار[١]. وروي أنَّ رجلاً جاء إلى النبيِّ ﷺ بمثل البيضة من الذهب فقال: هذه صدقة، فرماه بها وقال: «يأتي أحدكم بجميع ما يملكه فيتصدَّق به، ثم يقعد يتكفَّف الناس»[٢]، والله أعلم.

التاسعة: والإيثار بالنفس فوق الإيثار بالمال، وإن عاد إلى النفس. ومن الأمثال السائرة:

والجُودُ بالنَّفْس أقصَى غاية الجُودِ[٣]

ومن عبارات الصوفية الرشيقة في حدِّ المحبة: أنَّها الإيثار، ألا ترى أنَّ امرأة العزيز لمَّا تناهت في حُبِّها ليوسف عليه السلام، آثرته على نفسها فقالت: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١] وأفضل الجودِ بالنفس الجودُ على حماية رسول الله ﷺ، ففي الصحيح: أنَّ أبا طَلْحة تَرَّس على النبيِّ ﷺ يوم أُحُد، وكان النبيُّ ﷺ يتطلَّع ليرى القوم. فيقول له أبو طلحة: لا تُشرِف يا رسولَ الله! لا يصيبونك! نَحْرِي دون نَحْرِك! ووَقَى بيده رسولَ الله ﷺ، فشُلَّت[٤].

وقال حُذيفة العدوِيُّ: انطلقتُ يوم اليَرْمُوك أطلب ابنَ عمٍّ لي - ومعي شيء من الماء - وأنا أقول: إن كان به رَمَقٌ سقيتُه، فإذا أنا به، فقلت له: أَسقيك؟ فأشار برأسه أنْ نَعم، فإذا أنا برجل يقول: آه! آه! فأشار إليَّ ابنُ عمِّي أن أنطلق إليه، فإذا هو هشام

---

(١) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٤٠٨.

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٧٣) و(١٦٧٤)، وابن حبان في صحيحه (٣٣٧٢) واللفظ له. وفي إسناده: محمد ابن إسحاق، وهو مدلِّس، ولم يصرِّح بالتحديث.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٥، وما بعده منه أيضاً، والمثل عجز بيت لمسلم بن الوليد، ذكره العسكري في جمهرة الأمثال ١/ ٩٥، وصدره:

يجود بالنفس إذ ضنَّ الجواد بها

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٥، والخبر أخرجه البخاري (٣٨١١)، ومسلم (١٨١١)، وأحمد (١٢٠٢٤) عن أنس ﷺ.

ابن العاص فقلت: أسقيكَ؟ فأشار أنْ نعم. فسمع آخر يقول: آه! آه! فأشار هشام أن أنطلق إليه، فجئته فإذا هو قد مات. فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات. فرجعت إلى ابن عمّي فإذا هو قد مات. وقال أبو يزيد البِسْطَامِيُّ: ما غَلَبني أحد ما غَلَبني شابٌّ من أهل بَلْخ! قدِم علينا حاجّاً، فقال لي: يا أبا يزيد، ما حدُّ الزهد عندكم؟ فقلت: إنْ وَجَدْنا أكَلْنا. وإن فقدنا صَبَرْنَا. فقال: هكذا كلاب بَلْخ عندنا. فقلت: وما حَدُّ الزهد عندكم؟ قال: إن فَقَدْنا شكرنا، وإن وَجَدْنا آثرنا(١).

وسُئل ذو النُّون المصريُّ: ما حَدُّ الزاهد المنشرح صدره؟ قال: ثلاث: تفريق المجموع، وتَرْكُ طلب المفقود، والإيثار عند القوت. وحكي عن أبي الحسن الأنطاكيِّ: أنَّه اجتمع عنده نيِّف وثلاثون رجلاً بقرية من قُرَى الرِّيِّ، ومعهم أرغفة معدودة لا تُشبع جميعَهم، فكسروا الرغفان، وأطفؤوا السراج، وجلسوا للطعام؛ فلما رفُع، فإذا الطعام بحاله لم يأكل منه أحد شيئاً؛ إيثاراً لصاحبه على نفسه.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الخصاصة: الحاجة التي تختلُّ بها الحال. وأصلها من الاختصاص، وهو انفراد بالأمر. فالخصاصة: الانفراد بالحاجة؛ أي: ولو كان بهم فاقة وحاجة. ومنه قول الشاعر:

أمَّا الربيع إذا تكون خصاصةٌ عاش السقيم به وأثْرَى الْمُقْتِرُ(٢)

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الشُّحُّ والبُخْلُ سواء(٣)، يقال: رجل شحيح: بَيِّن الشُّحِّ والشَّحِّ والشَّحاحة(٤). قال عمرو ابن كلثوم:

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٧ - ٢٨٨ ، وفيه: صبرنا، بدل: شكرنا.

(٢) لم نقف على قائله.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥٠٧ .

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٥٢٩ .

تـرى الـلَّـحِـزَ الـشَّـحـيـحَ إذا أُمِـرَّتْ عـلـيـه لِـمـالِـه فـيـهـا مُـهِـيـنـا[١]

وجعل بعض أهل اللغة الشُّحَّ أشدَّ من البخل. وفي «الصحاح»[٢]: الشُّحُّ: البخلُ مع حِرص، تقول: شَحِحْتَ - بالكسر - تَشَحُّ. وشَحَحْتَ أيضاً تَشُحُّ وتَشِحُّ. ورجل شحيح، وقومٌ شِحاح و أشِحَّة.

والمراد بالآية: الشّحُّ بالزكاة وما ليس بفرض، من صلة ذوي الأرحام والضيافة، وما شاكل ذلك. فليس بشحيح ولا بخيل من أنفق في ذلك، وإن أمسك عن نفسه. ومن وَسَّع على نفسه ولم ينفق فيما ذكرناه من الزكوات والطاعات، فلم يُوقَ شُحَّ نفسه.

وروى الأسْوَد عن ابن مسعود أنَّ رجلاً أتاه فقال له: إنِّي أخاف أن أكون قد هَلكتُ؟ قال: وما ذاك؟ قال: سمعتُ الله عَزَّ وجلَّ يقول: «وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» وأنا رجل شحيح لاأكادُ أن أُخرِجَ من يدي شيئاً. فقال ابن مسعود: ليس ذلك بالشُّحِّ الذي ذكره الله تعالى في القرآن، إنَّما الشُّحُّ الذي ذكره الله تعالى في القرآن أن تأكل مالَ أخيك ظلماً، ولكن ذلك البخل، وبئس الشَّيء البخل[٣]. ففرَّق ﷺ بين الشُّحِّ والبخل.

وقال طاوس: البخل: أن يبخلَ الإنسان بما في يده، والشُّحُّ: أن يَشِحَّ بما في أيدي الناس، يحب أن يكون له ما في أيديهم بالحِلِّ والحرام، لا يقنع. ابن جبير: الشُّحُّ: منع الزكاة وادِّخار الحرام. ابن عُيَيْنَة: الشُّحُّ: الظلم. الليث: ترك الفرائض، وانتهاك المحارم. ابن عباس: من اتَّبع هواه ولم يقبل الإيمان، فذلك الشحيح[٤].

---

(١) معلقة عمرو بن كلثوم بشرح أبي الحسن بن كيسان ص٤٦ ، قال شارحه: اللَّحِز: الضَّيِّق الخُلُق. وأُمِرَّت: أُديرت عليه. والمعنى: فإذا كُرِّرت عليه الخمر اتسعَ صدره، وأنفق ماله.

(٢) مادة (شحح).

(٣) النكت والعيون ٥/٥٠٦ -٥٠٧ ، وأخرجه عنه ابن أبي شيبة ٩/٩٨ ، والطبري ٢٢/٥٢٩ - ٥٣٠ ، والحاكم ٢/ ٤٩٠ من طرق، عن الأسود بن هلال، به. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وقال الذهبي: على شرط مسلم.

(٤) النكت والعيون ٥/٥٠٦ - ٥٠٧ .

ابن زيد: من لم يأخذ شيئاً [لشيء] نهاه الله عنه، ولم يَدْعُه الشُّحُ [على أن يمنع شيئاً من شيء] أمره الله به، فقد وقاه الله شُحَّ نفسه[١].

وقال أنس: قال النبيُّ ﷺ: «بَرِئَ من الشُّحِّ من أدَّى الزكاة، وقَرَى الضيف، وأعطى في النائبة»[٢]. وعنه أنَّ النبيَّ ﷺ كان يدعو: «اللَّهُمَّ إنِّي أعوذ بِكَ من شُحِّ نفسي وإسرافها ووساوسها»[٣].

وقال أبو الهَيَّاج الأسدي: رأيت رجلاً في الطّواف يدعو: اللهمَّ قِنِي شُحَّ نفسي. لا يزيد على ذلك شيئاً، فقلت له؟ فقال: إذا وُقِيتُ شُحَّ نفسي لم أسرق، ولم أزْنِ، ولم أفعل. فإذا الرجل عبد الرحمن بن عَوْف[٤].

قلت: يدلُّ على هذا قوله ﷺ: «اتَّقوا الظلم، فإنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ أهلك من كان قَبلكم، حملهم على أن سَفَكوا دماءهم، واستحلُّوا محارمهم». وقد بيَّنَّاه في آخر «آل عمران»[٥]. وقال كِسرى لأصحابه: أيُّ شيء أضرُّ بابن آدم؟ قالوا: الفقر. فقال كِسرى: الشُّحُّ أضرُّ من الفقر؛ لأنَّ الفقير إذا وجد شبع، والشحيح إذا وجد لم يشبع أبداً[٦].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٧٨، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٣١ - ٥٣٢، وما بين حاصرتين منهما ومن (م).

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ٥٣٠ - ٥٣١، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٨٤٢) من طريق محمد بن إسحاق، عن سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، عن إسماعيل بن عياش، عن مجمع بن جارية، عن عمه، عن أنس، به. ومحمد بن إسحاق هو: ابن عمرو بن عمر بن عمران أبو الحسن القرشي المؤذِّن المعروف بابن الحريص، ختن هشام بن عمار. ذكره ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٥٢/ ٢٦ ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً، وقد توفي سنة (٢٢٨هـ).

وأخرجه أيضاً هناد في الزهد (١٠٦٠)، والطبراني في الكبير (٤٠٩٧)، وابن حبان في الثقات ٤/ ٢٠٢ من طريق مجمع بن يحيى، عن عمِّه خالد بن زيد، مرسلاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٦٨: رواهما الطبراني في الكبير، وفيه: إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع، وهو ضعيف. اهـ. وحسَّن إسناده ابن حجر في الإصابة ٣/ ٥٨.

(٣) أورده الديلمي في الفردوس ١/ ٤٦٠.

(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ٥٣٠، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٤١/ ٢٨٣.

(٥) ٥/ ٤٤١، وسلف تخريج الحديث ثمة.

(٦) روضة العقلاء لابن حبان ص٢٣٨.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني التابعين ومن دخل في الإسلام إلى يوم القيامة[1]. قال ابن أبي ليلى: الناس على ثلاثة منازل: المهاجرون، والذين تبوَّؤوا الدار والإيمان، والذين جاؤوا من بعدهم. فاجْهَدْ ألَّا تخرج من هذه المنازل[2].

وقال بعضهم: كن شَمْساً، فإن لم تستطع فكن قَمَراً، فإن لم تستطع فكن كَوْكباً مضيئاً، فإن لم تستطع فكن كوكباً صغيراً، ومن جهة النور لا تَنقطِع. ومعنى هذا: كن مهاجريّاً. فإن قلت: لا أجد، فكن أنصارِيّاً. فإن لم تجد فاعمل كأعمالهم، فإن لم تستطع فأحبَّهم واستغفر لهم كما أمَرَك الله. وروى مصعب بن سعد قال: الناس على ثلاثة منازل، فمضت منزلتان وبقِيت منزلة، فأحسن ما أنتم عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت[3].

وعن جعفر بن محمد بن علي، عن أبيه، عن جدِّه عليِّ بنِ الحسين ﷺ، أنَّه جاءه رجل فقال له: يابنَ بنتِ رسول الله ﷺ، ما تقول في عثمان؟ فقال له: يا أخي أنت من قوم قال الله فيهم: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ» الآية؟ قال: لا. قال: فواللهِ لئن لم تكن من أهل الآية فأنت من قوم قال الله فيهم: «والَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإيمَانَ» الآية؟ قال: لا. قال: فوالله لئن لم تكن من أهل الآية الثالثة لتخرجنَّ من الإسلام! وهي قوله تعالى: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ولِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٦.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٢١، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٣٣، وابن أبي حاتم في التفسير ٦/ ١٨٦٨ (١٠٣٠٣).

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥٠٧.

بِالْإِيمَانِ» الآية. وقد قيل: إنَّ محمد بن علي بن الحسين ﷺ، روى عن أبيه: أنَّ نفراً من أهل العِراق جاؤوا إليه، فسبُّوا أبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ ثم عثمان ـ ﷺ ـ فأكثروا، فقال لهم: أمِنَ المهاجرين الأوَّلين أنتم؟ قالوا: لا. فقال: أفمن الذين تبوَّؤوا الدار والإيمان من قبلهم؟ فقالوا: لا. فقال: قد تبرَّأتم من هذين الفريقين! أنا أشهد أنَّكم لستم من الذين قال الله عزَّ وجلَّ: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا للذين آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ» قوموا، فعل الله بكم وفعل!! ذكره النحَّاس[1].

الثانية: هذه الآية دليل على وجوب محبَّة الصحابة؛ لأنَّه جعل لمن بعدهم حظّاً في الفَيْء ما أقاموا على محبَّتهم وموالاتهم والاستغفار لهم، وأنَّ مَن سبَّهم أو واحداً منهم أو اعتقد فيه شرّاً أنَّه لا حقَّ له في الْفَيْء، روي ذلك عن مالك وغيره. قال مالك: من كان يُبْغِض أحداً من أصحاب محمَّد ﷺ، أو كان في قلبه عليهم غِلٌّ، فليس له حقٌّ في فَيْء المسلمين؛ ثم قرأ: «والَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» الآية[2].

الثالثة: هذه الآية تدلُّ على أنَّ الصحيح من أقوال العلماء قسمة المنقول، وإبقاء العقار والأرض، شملاً بين المسلمين أجمعين ـ كما فعل ﷺ ـ إلا أن يجتهد الوالي فينفذ أمراً فيمضي عمله فيه، لاختلاف الناس عليه، وأنَّ هذه الآية قاضية بذلك؛ لأنَّ الله تعالى أخبر عن الْفَيْء وجعله لثلاثِ طوائف: المهاجرين والأنصار ـ وهم معلومون ـ «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ». فهي عامَّة في جميع التابعين والآتِيْنَ بعدهم إلى يوم الدين. وفي الحديث الصحيح: أنَّ النبيَّ ﷺ خرج إلى المقبرة فقال: «السلام عليكم دارَ قوم مؤمنين، وإنَّا إنْ شاء اللهُ بكم لاحقونَ، ودِدْت أن رأيت إخواننا». قالوا: يا رسول الله، ألسنا بإخوانك؟ فقال: «بل أنتم أصحابي، وإخوانُنا الذين لم يأتوا بعدُ، وأنا فَرَطُهم على

(١) وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٨ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٦ ، وقول مالك أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/ ٣٢٧ .

الحَوْض». فبيَّن ﷺ أنَّ إخوانهم كلُّ من يأتي بعدهم[١]. لا كما قال السُّدِّيُّ والكَلْبيُّ: إنَّهم الذين هاجروا بعد ذلك[٢]. وعن الحسن أيضاً «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ»: مَن قصد إلى النبيِّ ﷺ إلى المدينة بعد انقطاع الهجرة.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ نصب في موضع الحال[٣]، أي: قائلين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أُمِروا أن يستغفروا لمن سَبَقَ هذه الأمَّة من مؤمني أهل الكتاب. قالت عائشة رضي الله عنها: فأُمِروا أن يستغفروا لهم، فسبُّوهم. الثاني: أمروا أن يستغفروا للسابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار[٤].

قال ابن عباس: أمر الله تعالى بالاستغفار لأصحاب محمَّد ﷺ، وهو يعلم أنَّهم سَيُفْتَنُونَ. وقالت عائشة: أُمِرْتُم بالاستغفار لأصحاب محمَّد فسببتموهم، سمعتُ نبيَّكم ﷺ يقول: «لا تذهب هذه الأمَّة حتى يلعنَ آخرُها أوَّلَها»[٥]. وقال ابن عمر: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا رأيتم الذين يسبُّون أصحابي فقولوا: لعن الله أشَرَّكم»[٦]. وقال العوَّام بن حَوْشَب: أدركتُ صدر هذه الأمَّة يقولون: اذكروا محاسن أصحابِ رسول الله ﷺ حتى تألف عليهم القلوب، ولا تذكروا ما شَجَر بينهم فتُحرِّشوا[٧] الناس عليهم[٨].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٦٧ ، والحديث أخرجه مسلم (٢٤٩)، وأحمد (٧٩٩٣) .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥٠٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٩٨ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٠٧ ، وقول عائشة أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٤٧ (١٨٨٥٦).

(٥) أخرجه البغوي في التفسير ٤/ ٣٢١ ، وفي الباب لقوله ﷺ: «حتى يلعن آخرها أولها» عن أويس القرني عن النبي ﷺ قال: «احفظوني في أصحابي، فإن من أشراط الساعة أن يلعن آخر هذه الأمة أولها،...» الحديث، أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٨٧ .

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٣٦٢)، والذهبي في ميزان الاعتدال ٢/ ٢٥٦ ، قال الطبراني: لم يروِ هذا الحديث عن عبيد الله إلا سيف، تفرَّد به النضر. وقال الذهبي: رواه الترمذي عن أبي بكر بن نافع، عن العتكي، وقال: هذا منكر.

(٧) في (د) و(م): فتجسَّروا. والمثبت من (ظ) ومصادر التخريج.

(٨) أخرجه ابن عدي في الكامل ٤/ ١٣٥٠ ، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٣/ ٢١٥ بتمامه، =

وقال الشعبيُّ: تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة، سئلت اليهود: مَن خيرُ أهل مِلَّتكم؟ فقالوا: أصحاب موسى. وسئلت النصارى: من خير أهل ملَّتكم؟ فقالوا: أصحاب عيسى. وسئلت الرافضة من شرُّ أهل مِلَّتكم؟ فقالوا: أصحاب محمَّد، أُمِروا بالاستغفار لهم، فسبُّوهم، فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة، لا تقوم لهم راية، ولا تثبت لهم قدم، ولا تجتمع لهم كلمة، كلَّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله بسفك دمائهم وإدحاض حجَّتهم. أعاذنا الله وإيَّاكم من الأهواء المضلَّة[1]. ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: حِقْداً وحسداً ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾

تعجُّبٌ من اغترار اليهود بما وعدهم المنافقون من النصر مع علمهم بأنَّهم لا يعتقدون ديناً ولا كتاباً. ومن جملة المنافقين عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سَلُول، وعبد الله بن نَبْتَل، ورفاعة بن زيد. وقيل: رافعة بن تابوت، وأوْس بن قَيْظِيٍّ[2]، كانوا من الأنصار ولكنَّهم نافقوا، وقالوا ليهود قُريظة والنَّضير: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾. وقيل: هو من قول بني النَّضير لقُرَيْظَة[3]. وقوله: ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ يعنون محمَّداً ﷺ، لا نطيعه في قتالكم. وفي هذا دليل على صحَّة نُبُوَّة محمَّدٍ ﷺ من جهة علم الغيب[4]؛ لأنَّهم أُخرجوا فلم يَخرجوا، وقوتلوا فلم ينصروهم[5]، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ

= والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي (١٣٩٨) مختصراً. وفي إسناده: شهاب بن خراش، قال عنه ابن عدي: ولشهاب أحاديث ليست بكثيرة، وفي بعض رواياته ما ينكر عليه....

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٢١ ، وأخرجه عنه ابن الجوزي في الموضوعات (٤١٣) مطولاً.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ٥٣٥ عن مجاهد، وذكر فيه: رفاعة، أو رافعة بن تابوت، ودون ذكر: رفاعة بن زيد، وذكره الرازي في تفسيره ٢٩/ ٢٨٨ ، وقول مجاهد في التفسير ٢/ ٦٦٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٩ .

(٤) الكشاف ٤/ ٨٥ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٤٧ .

يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: في قولهم وفعلهم.

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ أي: منهزمين[١]. ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ قيل: معنى «لَا يَنْصُرُونَهُمْ» طائعين. «وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ» مكرهين «لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ». وقيل: معنى «لَا يَنْصُرُونَهُمْ» لا يدومون على نصرهم. هذا على أنَّ الضميرين متفقان. وقيل: إنَّهما مختلفان، والمعنى: لئن أُخرِج اليهود لا يخرج معهم المنافقون، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، «وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ» أي: ولئن نصر اليهودُ المنافقين «لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ». وقيل: «لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ» أي: عَلِمَ الله منهم أنَّهم لا يخرجون إن أُخرجوا. «وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ» أي: عَلِمَ الله منهم ذلك. ثم قال: «لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ» فأخبر عمَّا قد أخبر أنَّه لا يكون، كيف كان يكون لو كان؟[٢] وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨]. وقيل: معنى «وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ» أي: ولئن شئنا أن ينصروهم زَيَّنَّا ذلك لهم. «لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ».

قوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ﴾ يا معشرَ المسلمين ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي: خوفاً وخشية[٣] ﴿فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني صدور بني النَّضير. وقيل: في صدور المنافقين[٤].

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/٣٤٦.

(٢) الكشاف ٤/ ٨٥، وتفسير الرازي ٢٩/ ٢٨٩.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢.

(٤) زاد المسير ٨/ ٢١٧ - ٢١٨، وعزا القول الأول للفراء، والثاني لمقاتل، وقول الفراء في معاني القرآن له ٣/ ١٤٦.

ويحتمل أن يرجع إلى الفريقين، أي: يخافون منكم أكثر مما يخافون من ربِّهم ذلك الخوف .﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفقهون قَدْرَ عظمة الله وقدرته[١].

قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ يعني اليهود[٢] ﴿إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ أي: بالحيطان والدُّور، يظنُّون أنَّها تمنعهم منكم .﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ أي: من خَلْف حيطان يستترون بها؛ لجُبْنِهم وَرَهْبَتِهم.

وقراءة العامة: «جُدُرٍ» على الجمع، وهو اختيار أبي عبيدة وأبي حاتِم؛ لأنَّها نظير قوله تعالى: «فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ» وذلك جمع. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن كثير وابن مُحَيْصِن وأبو عمرو: «جِدَارٍ» على التوحيد[٣]؛ لأنَّ التوحيد يؤدِّي عن الجمع[٤]. وروي عن بعض المكِّيِّين: «جَدْر» بفتح الجيم وإسكان الدال[٥]، وهي لغة في الجدار. ويجوز أن يكون معناه: مِن وراء نخيلهم وشجرهم[٦]، يقال: أَجْدَرَ النخلُ: إذا طلعت رؤوسه في أوَّل الربيع. والجَدْر: نبتٌ، واحدته: جَدْرة[٧]. وقُرِئ: «جُدْر» بضمِّ الجيم وإسكان الدال[٨]، جمع الجدار. ويجوز أن تكون الألف في الواحد، كألف كِتاب، وفي الجمع، كألف ظِراف. ومثله: ناقة هِجَانٌ، ونُوقٌ هجان؛ لأنَّك تقوله في التثنية:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٩٩ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢ .

(٣) السبعة ص٦٣٢ ، والتيسير ص٢٠٩ ، والنشر ٢/ ٣٨٦ .

(٤) الحجة للفارسي ٦/ ٢٨٤ .

(٥) القراءات الشاذة ص١٥٤ عن ابن كثير في رواية.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٩ .

(٧) تهذيب اللغة ١٠/ ٦٣٤ .

(٨) القراءات الشاذة ص١٥٤ ، والمحتسب ٢/ ٣١٦ ، وما بعده منه أيضاً.

هجانان، فصار لفظ الواحد والجمع مشتبهين في اللفظ، مختلفين في المعنى، قاله ابن جِنّي[١].

قوله تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ يعني عداوة بعضهم لبعض. وقال مجاهد: «بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ» أي: بالكلام والوعيد لنفعلنَّ كذا. وقال السُّدِّيُّ: المراد اختلاف قلوبهم حتى لا يتَّفقوا على أمر واحد[٢]. وقيل: «بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ» أي: إذا لم يلقَوْا عدوّاً نسبوا أنفسهم إلى الشِّدَّة والبأس، ولكن إذا لَقُوا العدوَّ انهزموا. ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ يعني اليهود والمنافقين، قاله مجاهد. وعنه أيضاً: يعني المنافقين. الثورِيُّ: هم المشركون وأهل الكتاب. وقال قتادة: «تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً» أي: مجتمعين على أمر ورأي. «وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى» متفرِّقة. فأهل الباطل مختلفة آراؤهم، مختلفة شهادتهم، مختلفة أهواؤهم، وهم مجتمعون في عداوة أهلِ الحقِّ. وعن مجاهد أيضاً: أراد أن دين المنافقين مخالف لدين اليهود[٣]. وهذا ليقوِّيَ أنفس المؤمنين عليهم. وقال الشاعر:

إلى الله أشكو نِيَّةً شَقَّت العَصَا ... هي اليوم شَتَّى وهي أمس جُمَّعُ[٤]

وفي قراءة ابن مسعود: «وقلوبهم أشَتّ»[٥] يعني أشدَّ تشتيتاً، أي: أشدَّ اختلافاً[٦]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي: ذلك التشتيت والكفر بأنَّهم لا عقلَ لهم يعقلون به أمر الله[٧].

---

(١) في الخصائص ٢/ ١٠١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٦.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٦٥، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٣٨.

(٤) القائل: قيس بن الملوَّح، وهو في ديوانه ص١٩١، والنِّيَّة والنوى جميعاً: البُعد. اللسان (نوي).

(٥) القراءات الشاذة ص١٥٤.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٥٠٨.

(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٦.

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

قال ابن عباس: يعني به قَيْنُقَاع، أمكن الله منهم قبل بني النَّضير[1]. وقال قتادة: يعني بني النَّضِير، أمكن الله منهم قبل قُرَيظة. مجاهد: يعني كفَّار قريش يوم بدر[2]. وقيل: هو عامٌّ في كلِّ من انتقم منه على كفره قبل بني النَّضِير من نوح إلى محمد ﷺ[3]. ومعنى ﴿وَبَالَ﴾ جزاءَ كفرهم. ومن قال: هم بنو قُرَيظة، جعل «وَبَالَ أَمْرِهِمْ» نزولهم على حكم سعد بن معاذ، فحكم فيهم بقَتْل المقاتلة وسَبْيِ الذُّرِّيَّة. وهو قول الضحَّاك[4]. ومن قال: المراد بنو النَّضِير قال: «وَبَالَ أَمْرِهِمْ» الجلاء والنفي. وكان بين النّضير وقُرَيظة سنتان[5]. وكانت وقعة بدر قبل غزوة بني النَّضير بستَّة أشهر؛ فلذلك قال: «قَرِيباً» وقد قال قوم: غزوة بني النَّضير بعد وقعة أحد[6]. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ هذا ضرب مثلٍ للمنافقين واليهود في تخاذلهم، وعدم الوفاء في نُصْرتهم[7]. وحَذَف حرف العطف، ولم يقل: وكمثل الشيطان؛ لأنَّ حذف حرف العطف كثير، كما تقول: أنت عاقل، أنت كريم، أنت عالم.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٣٩.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥٠٩، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٦٦٥، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٤٠.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٠ بنحوه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٠٩، وخبر تحكيم سعد بن معاذ في بني قريظة أخرجه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨)، وهو عند أحمد (١١١٦٨) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢.

(٦) سلف الكلام عليها ص٣٤٠-٣٤١ من هذا الجزء.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٢.

وقد روي عن النبيِّ ﷺ: أنَّ الإنسان الذي قال له الشيطان: اكفر، راهبٌ تُركت عنده امرأة أصابها لَمَمٌ ليَدْعُوَ لها، فزيَّن له الشيطان، فوطئها فحملت، ثم قتلها؛ خوفاً أن يفتضح، فدلَّ الشيطانُ قومَها على موضعها، فجاؤوا فاستنزلوا الراهب ليقتلوه، فجاء الشيطان فوعده أنَّه إن سجد له أنجاه منهم، فسجد له فتبرَّأ منه، فأسلمه. ذكره القاضي إسماعيل وعليُّ بنُ المدِيني عن سفيان بن عُيَيْنة، عن عمرو بن دينار، عن عروة بن عامر، عن عُبيد بن رفاعة الزُّرَقيِّ، عن النبيِّ ﷺ[1].

وذكر خبره مطوَّلاً ابنُ عباس ووهب بن مُنَبِّه. ولفظهما مختلف. قال ابن عباس في قوله تعالى: «كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ»: كان راهب في الفَتْرة يقال له: برصيصا، قد تعبَّد في صَوْمعته سبعين سنة، لم يعصِ الله فيها طَرْفةَ عين، حتى أعيا إبليسَ، فجمع إبليس مردةَ الشياطين فقال: ألا أجد منكم من يكفيني أمر برصيصا؟ فقال الأبيض ـ وهو صاحب الأنبياء، وهو الذي قصد النبيَّ ﷺ في صورة جبريل ليوسوس إليه على وجه الوحي، فجاء جبريل فدخل بينهما، ثم دفعه بيده حتى وقع بأقصى الهند؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠] ـ فقال: أنا أكْفِيكَه. فانطلق فتزيّا بزِيِّ الرهبان، وحَلَق وسط رأسه حتى أتى صومعة برصِيصا فناداه فلم يجبه، وكان لا ينفتل من صلاته إلا في كلِّ عشرة أيام يوماً، ولا يُفطر إلا في كلِّ عشرة أيام، وكان يواصل العشرة الأيام والعشرين والأكثر؛ فلما رأى الأبيضُ أنَّه لا يجيبه أقبل على العبادة في أصل صَوْمعته، فلما انفتل برصيصا من صلاته، رأى الأبيضَ قائماً يصلِّي في هيئة حسنة من هيئة الرهبان، فندم حين لم يجبه، فقال: ما حاجتك؟ فقال: أن أكونَ معك، فأتأدَّب بأدبك، وأقتبس من عملك، ونجتمع على العبادة. فقال: إنِّي في

---

(١) التعريف والإعلام ص١٦٧ ، وأخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان (٦١)، وابن الجوزي في المنتظم ٢/ ١٥٨ وفي تلبيس إبليس ص٢٦ من طريق عبد الرحمن بن يونس، عن سفيان بن عيينة، به. ورواية عبيد بن رفاعة عن النبي ﷺ مرسلة. وأخرجه أيضاً ابن الجوزي في المنتظم ٢/ ١٥٨ عن وهب ابن منبِّه مطوَّلاً، وسيأتي.

شغل عنك. ثم أقبل على صلاته، وأقبل الأبيض أيضاً على الصلاة، فلما رأى برصيصا شدَّة اجتهاده وعبادته قال له: ما حاجتك؟ فقال: أن تأذن لي فأرتفعَ إليك. فأَذِنَ له، فأقام الأبيض معه حَوْلاً لا يُفطر إلا في كلِّ أربعين يوماً يوماً واحداً، ولا ينفتل من صلاته إلا في كلِّ أربعين يوماً، وربما مدَّ إلى الثمانين، فلما رأى برصيصا اجتهاده، تقاصرت إليه نفسه. ثم قال الأبيض: عندي دعوات يَشْفِي الله بها السقيم والمبتلى والمجنون. فعلَّمه إياها. ثم جاء إلى إبليس فقال: قد واللهِ أهلكتُ الرجلَ. ثم تعرَّض لرجل فخنقه، ثم قال لأهله ـ وقد تصوَّر في صورة الآدميين ـ: إنَّ بصاحبكم جنوناً أفأطِبّه؟ قالوا: نعم. فقال: لا أقوى على جِنِّيَّته، ولكن اذهبوا به إلى برصيصا، فإنَّ عنده اسم الله الأعظم الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب، فجاؤوه، فدعا بتلك الدعوات، فذهب عنه الشيطان. ثم جعل الأبيض يفعل بالناس ذلك، ويرشدهم إلى برصيصا فيعافَوْن. فانطلق إلى جارية من بناتِ الملوك بين ثلاثة إخوة، وكان أبوهم ملكاً فمات واستخلف أخاه، وكان عمُّها مَلِكاً في بني إسرائيل، فعذَّبها وخنقها، ثم جاء إليهم في صورة رجل متطبِّب ليعالجها فقال: إنَّ شيطانها مارد لا يطاق، ولكن اذهبوا بها إلى برصيصا فدعوها عنده، فإذا جاء شيطانها دعا لها فبرئت. فقالوا: لا يجيبنا إلى هذا. قال: فابْنُوا صومعةً في جانب صومعته، ثم ضعوها فيها، وقولوا: هي أمانة عندك فاحتسب فيها. فسألوه ذلك، فأبى، فبنَوْا صومعةً، ووضعوا فيها الجارية، فلما انفتل من صلاته عاينَ الجاريةَ وما بها من الجمال، فَأُسْقِط في يده، فجاءها الشيطان فخنقها فانفتل من صلاته ودعا لها فذهب عنها الشيطان، ثم أقبل على صلاته فجاءها الشيطان فخنقها، وكان يكشف عنها ويتعرَّض بها لبرصيصا، ثم جاءه الشيطان فقال: وَيْحَكَ! واقِعْها، فما تجد مثلَها ثم تتوب بعد ذلك. فلم يزل به حتى واقعها، فحملت وظهر حَمْلها. فقال له الشيطان: ويحكَ! قد افتُضحتَ، فهل لك أن تقتلها ثم تتوبَ؛ فلا تفتضح، فإن جاؤوك، سألوك فقل: جاءها شيطانها، فذهب بها. فقتلها برصيصا ودفنها ليلاً، فأخذ الشيطان طَرف ثوبها

حتى بقي خارجاً من التراب، ورجع برصيصا إلى صلاته. ثم جاء الشيطان إلى إخوتها في المنام فقال: إنَّ برصيصا فعل بأختكم كذا وكذا، وقتلها ودفنها في جبل كذا وكذا، فاستعظموا ذلك وقالوا لبرصيصا: ما فعلت أختنا؟ فقال: ذهب بها شيطانها. فصدَّقوه وانصرفوا. ثم جاءهم الشيطان في المنام وقال: إنَّها مدفونة في موضع كذا وكذا، وإنَّ طرف ردائها خارج من التراب، فانطلَقوا فوجدوها، فهدموا صومعته وأنزلوه وخنقوه، وحملوه إلى الملك فأقرَّ على نفسه، فأَمَرَ بقتله. فلما صُلب قال الشيطان: أتعرفني؟ قال: لا والله! قال: أنا صاحبك الذي علَّمتك الدعوات، أما اتقيتَ الله، أما استحييتَ وأنت أعبد بني إسرائيل! ثم لم يكفِك صنيعك حتى فضحتَ نفسك، وأقررت عليها وفضحت أشباهك من الناس! فإن متَّ على هذه الحالة، لم يفلح أحد من نظرائك بعدك. فقال: كيف أصنع؟ قال: تطيعني في خصلة واحدة وأنجيك منهم، وآخذ بأعينهم. قال: وما ذاك؟ قال: تسجد لي سجدةً واحدة، فقال: أنا أفعل. فسجد له من دون الله. فقال: يا برصيصا، هذا أردت منك؛ كان عاقبة أمرك أن كفرت بربِّك، إنِّي بريء منك، إنِّي أخاف الله ربَّ العالمين[1].

وقال وهب بن منَبِّه. إنَّ عابداً كان في بني إسرائيل، وكان من أعبدِ أهل زمانه، وكان في زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت، وكانت بِكراً، ليست لهم أخت غيرها، فخرج البعثُ على ثلاثتهم، فلم يَدْروا عند من يخلِّفون أختهم، ولا عند من يأمنون عليها، ولا عند من يضعونها. قال: فاجتمع رأيهم على أن يخلِّفوها عند عابد بني إسرائيل، وكان ثقةً في أنفسهم، فأَتَوْه فسألوه أن يخلِّفوها عنده، فتكون في كَنَفه وجواره إلى أن يقفلوا من غَزاتهم، فأبى ذلك عليهم وتعوَّذ بالله منهم ومن أختهم. قال: فلم يزالوا به

(١) تفسير البغوي ٤/٣٢٢ - ٣٢٤، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/٣٣٤٨ (١٨٨٦٠)، وأخرجه الطبري ٢٢/٥٤٣ عن محمد بن سعد، عن أبيه، عن عمِّه، عن أبيه، عن أبيه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، والراوي عن ابن عباس عطية بن سعد العوفي ومن قبله من رجال الإسناد ضعفاء، وأخرجه أيضاً الخرائطي في اعتلال القلوب ص١١٥ - ١١٦ بإسناد آخر عن ابن عباس، وبنحوه مختصراً.

حتى أطاعهم[1] فقال: أنزلوها في بيتٍ حِذاءَ صَوْمعتي. فأنزلوها في ذلك البيت، ثم انطلقوا وتركوها، فمكثت في جوار ذلك العابد زماناً، يُنزِل إليها الطعام من صومعته، فيضعه عند باب الصومعة، ثم يُغلِق بابه ويصعد في صومعته، ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ما وضع لها من الطعام. قال: فتلطَّف له الشيطان فلم يزل يرغِّبه في الخير، ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهاراً، ويخوِّفه أن يراها أحد فيعلقها. قال: فلبث بذلك زماناً، ثم جاءه إبليس فرغَّبه في الخير والأجر، وقال له: لو كنت تمشي إليها بطعامها حتى تضعه في بيتها كان أعظمَ لأجرك. قال: فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها فوضعه في بيتها، قال: فلبث بذلك زماناً، ثم جاءه إبليس فرغَّبه في الخير وحَضَّه عليه، وقال: لو كنتَ تكلِّمها وتحدِّثها فتأنس بحديثك، فإنَّها قد استوحشت وحشةً شديدة. قال: فلم يزل به حتى حدَّثها زماناً، يطَّلع عليها من فوق صومعته. قال: ثم أتاه إبليس بعد ذلك فقال: لو كنتَ تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدِّثها، وتقعد على باب بيتها فتحدِّثك، كان آنسَ لها. فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدِّثها، وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها، فلبثا زماناً يتحدَّثان، ثم جاءه إبليس فرغَّبه في الخير والثواب فيما يصنع بها، وقال: لو خرجتَ من باب صومعتك فجلست قريباً من باب بيتها، كان آنسَ لها. فلم يزل به حتى فعل. قال: فلبثا زماناً، ثم جاءه إبليس فرغَّبه في الخير، وفيما له من حسن الثواب فيما يصنع بها، وقال له: لو دنوتَ من باب بيتها فحدَّثتها ولم تَخرج من بيتها. ففعل، فكان ينزل من صومعته فيقعد على باب بيتها فيحدِّثها. فلبثَا بذلك حيناً،

---

(١) في النسخ: أطعمهم. والمثبت من المنتظم لابن الجوزي ٢/ ١٥٩ وما بعدها، والكلام منه بإسناده عن وهب بن منبِّه.

وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٥/ ٢١٣، وعبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٨٥، والطبري ٢٢/ ٥٤١، والحاكم ٢/ ٤٨٢ عن علي بن أبي طالب بنحوه مختصراً، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

وأخرجه الطبري في التفسير ٢٢/ ٥٤٢ عن ابن مسعود ﷺ بنحوه مختصراً.

ثم جاءه إبليس فقال: لو دخلتَ البيت معها تحدِّثها ولم تتركها تُبرز وجهها لأحد، كان أحسنَ بك. فلم يزل به حتى دخل البيت، فجعل يُحدِّثها نهارَه كلَّه، فإذا أمسى صعد في صومعته. قال: ثم أتاه إبليس بعد ذلك، فلم يزل يزيِّنها له حتى ضرب العابد على فخذها وقبَّلها. فلم يزل به إبليس يحسِّنها في عينه، ويسوِّل له حتى وقع عليها، فأحبلها، فولدت له غلاماً. فجاءه إبليس فقال له: أرأيتَ إن جاء إخوة هذه الجارية وقد وَلدتْ منك! كيف تصنعُ؟! لا آمنُ عليك أن تُفتضَح أو يفضحوك! فاعمِد إلى ابنها فاذبحه وادفنه؛ فإنَّها ستكتم عليكَ؛ مخافةَ إخوتها أن يطَّلعوا على ما صنعتَ بها، ففعل. فقال له: أتراها تكتم إخوتها ما صنعتَ بها وقتلتَ ابنها! خذها فاذبحها وادفنها مع ابنها. فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها في الحَفِيرة مع ابنها، وأطبق عليها صخرةً عظيمة، وسوَّى عليها التراب، وصعد في صومعته يتعبَّد فيها، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث، حتى قفل إخوتها من الغزو، فجاءوه فسألوه عنها، فنعاها لهم وترحَّم عليها، وبكى لهم وقال: كانت خيرَ أمَة، وهذا قبرها فانظروا إليه. فأتى إخوتها القبر فبكَوْا على قبرها وترحَّموا عليها، وأقاموا على قبرها أيَّاماً ثم انصرفوا إلى أهاليهم. فلما جَنَّ عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم، أتاهم الشيطان في النوم في صورة رجل مسافر، فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم، فأخبره بقول العابد وموتها وترحُّمه عليها، وكيف أراهم موضع قبرها، فكذَّبه الشيطان وقال: لم يَصْدُقْكم أمْرَ أختكم، إنَّه قد أحبل أختكم وولدت منه غلاماً، فذبحه وذبحها معه؛ فزعاً منكم، وألقاها في حفيرة احتفرها خَلْفَ الباب الذي كانت فيه عن يمين من دخله. فانْطَلِقوا فادخلوا البيتَ الذي كانت فيه عن يمين من دخله، فإنَّكم ستجدونهما هنالك جميعاً كما أخبرتكم. قال: وأتى الأوسطَ في منامه، وقال له مثل ذلك. ثم أتى أصغرَهم فقال له مثل ذلك. فلما استيقظ القوم، استيقظوا متعجِّبين لما رأى كلُّ واحد منهم. فأقبل بعضهم على بعض، يقول كل واحد منهم: لقد رأيتُ عجباً، فأخبر بعضهم بعضاً بما رأى. قال أكبرهم: هذا حُلم ليس بشيء، فامضوا بنا ودَعُوا هذا. قال أصغرهم: لا

أمضي حتى آتي ذلك المكان فأنظر فيه. قال: فانطلقوا جميعاً حتى دخلوا البيت الذي كانت فيه أختهم، ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذي وصف لهم في منامهم، فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين في الحفيرة كما قيل لهم، فسألوا عنه العابد، فصدَّق قولَ إبليس فيما صنع بهما. فاستعدَوْا عليه مَلِكَهم، فأُنزِل من صومعته فقدَّموه لِيُصْلَب، فلما أَوثقوه[١] على الخشبة أتاه الشيطان فقال له: قد علمتَ أنِّي صاحبك الذي فتنتُك في المرأة حتى أحبلتها وذبحتها وذبحتَ ابنها، فإن أنتَ أطعتني اليوم، وكفرتَ بالله الذي خلقك، خلَّصتك مما أنتَ فيه. قال: فكفر العابد بالله، فلما كفر، خلَّى عنه الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه. قال: ففيه نزلت هذه الآية: «كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ» إلى قوله: «جَزَاءُ الظَّالِمِينَ».

قال ابن عباس: فضرب الله هذا مثلاً للمنافقين مع اليهود. وذلك أن الله تعالى أمر نبيَّه عليه السلام أن يُجْلي بني النَّضِير من المدينة، فَدَسَّ إليهم المنافقون ألَّا تخرجوا من دياركم، فإن قاتلوكم كنَّا معكم، وإن أخرجوكم كنا معكم، فحاربوا النبيَّ ﷺ، فخذلهم المنافقون، وتبرَّؤوا منهم كما تبرَّأ الشيطان من بَرْصِيصَا العابد. فكان الرهبان بعد ذلك لا يمشون إلا بالتَّقِيَّة والكتمان. وطمع أهل الفسوق والفجور في الأحبار فرموهم بالبُهتان والقبيح، حتى كان أمر جُريج الراهب، وبرَّأه الله، فانبسطت بعده الرهبان وظهروا للناس[٢].

وقيل: المعنى: مَثَلُ المنافقين في غدرهم[٣] لبني النَّضِير كمثل إبليس إذ قال لكفار قريش: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾[٤] الآية [٤٨ من

---

(١) في (م): أوقفوه.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٥ ، واتقيت الشيء تقيَّة: حذرته. اللسان (وقي)، وخبر جريج سلف تخريجه ٥/ ١٣٩ .

(٣) في (د): وعدهم.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٤٨ .

سورة الأنفال]. وقال مجاهد: المراد بالإنسان ها هنا جميع الناس في غرور الشيطان إيَّاهم[١].

ومعنى قوله تعالى: «إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ» أي: أغواه حتى قال: إنِّي كافر. وليس قول الشيطان: «إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ» حقيقة، إنَّما هو على وجه التبرُّؤ من الإنسان، فهو تأكيد لقوله تعالى: «إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ».

وفتح الياء من «إنِّي» نافع وابن كثير وأبو عمرو. وأسكن الباقون[٢]. ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ أي: عاقبة الشيطان وذلك الإنسان ﴿أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَآ﴾ نصب على الحال. والتثنية ظاهرة فيمن جعل الآية مخصوصة في الراهب والشيطان. ومن جعلها في الجنس، فالمعنى: وكان عاقبة الفريقين أو الصنفين. ونصب «عَاقِبَتَهُمَا» على أنَّه خبر «كان»، والاسم «أَنَّهُمَا فِي النَّارِ»، وقرأ الحسن: «فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا» بالرفع[٣]، على الضِّدِّ من ذلك. وقرأ الأعمش: «خَالِدَانِ فِيهَا» بالرفع[٤]، وذلك خلاف المرسوم. ورفعه على أنَّه خبر «أنَّ» والظرف ملغى[٥].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في أوامره ونواهيه، وأداء فرائضه، واجتناب معاصيه. ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ يعني: يوم القيامة[٦]. والعرب تكني عن المستقبل بالغدِ. وقيل: ذِكْر الغَدِ؛ تنبيهاً على أنَّ الساعة قريبة، كما قال الشاعر:

---

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٦٦٥ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٤٤ - ٥٤٥ .

(٢) السبعة ص٦٣٢ ، والنشر ٢/ ٣٨٦ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٠١ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٥٤ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٥٤ .

(٥) المشكل لمكي ٢/ ٧٢٦ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٠٢ .

وإنَّ غـداً لـلـنـاظـريـن قـريـب[١]

وقال الحسن وقتادة: قرَّب الساعة حتى جعلها كغَدٍ. ولا شكَّ أنَّ كلَّ آتٍ قريبٌ[٢]، والموت لا محالة آتٍ. ومعنى «ما قَدَّمت» يعني: من خير أو شرٍّ[٣]. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أعاد هذا؛ تكريراً، كقولك: اعجل اعجل، اِرْمِ اِرْمِ. وقيل: التقوى الأولى: التوبة فيما مضى من الذنوب. والثانية: اتِّقاء المعاصي في المستقبل. ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قال سعيد بن جبير: أي: بما يكون منكم[٤]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: تركوا أمره ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أن يعملوا لها خيراً، قاله ابن حبَّان. وقيل: نسوا حقَّ الله فأنساهم حقَّ أنفسهم، قاله سفيان. وقيل: «نَسُوا اللهَ» بترك شكره وتعظيمه. «فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ» بالعذاب أن يذكر بعضهم بعضاً، حكاه ابن عيسى. وقال سهل بن عبد الله: «نَسُوا اللهَ» عند الذنوب «فَأَنْسَاهُم أَنْفُسَهُمْ» عند التوبة[٥].

ونسب تعالى الفعل إلى نفسه في «أَنْسَاهُمْ» إذ كان ذلك بسبب أمره ونهيه الذي تركوه. وقيل: معناه: وجدهم تاركين أمره ونهيه، كقولك: أحمدت الرجل: إذا وجدته محموداً. وقيل: «نَسُوا اللهَ» في الرخاء «فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ» في الشدائد.

---

(١) هذا عجز بيت أورده ابن حبان في روضة العقلاء ص٢٧ ، ولم ينسبه، وصدره هكذا:

ألـم تَـرَ أن الـيـوم أسـرع ذاهـب

والبيت ذكره ضمن أبيات لم ينسبها، وهي لأبي العتاهية في ديوانه ص٢١ ، دون ذكر البيت الآنف الذكر.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٢٩١ عن قتادة، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٤٧ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥١٠ عن ابن زيد، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٥٤٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥١١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٥١١ ، وقول سفيان أخرجه الطبري ٢٢/ ٥٤٨ .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ قال ابن جبير: العاصون. وقال ابن زيد: الكاذبون[١]. وأصل الفسق: الخروج، أي: الذين خرجوا عن طاعة الله.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ﴾ أي: في الفَضْل والرتبة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي: المقرَّبون المكرَّمون. وقيل: الناجون من النار[٢]. وقد مضى الكلام في معنى هذه الآية في «المائدة»[٣] عند قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [الآية: ١٠٠] وفي سورة «السجدة»[٤] عند قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [الآية: ١٨] وفي سورة «ص»[٥]: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [الآية: ٢٨] فلا معنى للإعادة، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا﴾ حثٌّ على تأمُّل مواعظ القرآن، وبيَّن أنَّه لا عذر في ترك التدبُّر؛ فإنَّه لو خوطب بهذا القرآنِ الجبالُ مع تركيب العقل فيها، لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعةً متصدِّعةً، أي: متشقِّقةً من خشية الله. والخاشع: الذليل. والمتصدِّع: المتشقِّق[٦]. وقيل: «خَاشِعاً» لله بما كلَّفه من طاعته. «مُتَصَدِّعاً» من خشية الله أن يعصيَه فيعاقبه. وقيل:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٥١١ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥١١ .

(٣) ٨/ ٢٢٥ -٢٢٦ .

(٤) ١٧/ ٣٧ .

(٥) ١٨/ ١٨٨ - ١٨٩ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٠ .

هو على وجه المَثَل للكفار(١).

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي: إنَّه لو أنزل هذا القرآن على جبل، لخشع لوعده، وتصدَّع لوعيده، وأنتم أيُّها المقهورون بإعجازه لا ترغبون في وعده، ولا ترهبون من وعيده؟! وقيل: الخطاب للنبيِّ ﷺ، أي: لو أنزلنا هذا القرآن يا محمَّد على جبل لما ثبت، وتصدَّع من نزوله عليه، وقد أنزلناه عليك وثبَّتْناك له، فيكون ذلك امتناناً عليه أن ثبَّته لما لا تثبت له الجبال. وقيل: إنَّه خطاب للأمَّة، وأنَّ الله تعالى لو أنذر بهذا القرآن الجبال لتصدَّعت من خشية الله. والإنسان أقلّ قوَّةً وأكثر ثباتاً، فهو يقوم بحقِّه إن أطاع، ويقدر على ردِّه إن عصى؛ لأنَّه موعود بالثواب، ومزجور بالعقاب(٢).

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ قال ابن عباس: عالم السِّرِّ والعلانية. وقيل: ما كان وما يكون. وقال سهل: عالم بالآخرة والدنيا(٣). وقيل: «الْغَيْبِ» ما لم يَعْلَم العباد ولا عاينوه. «وَالشَّهَادَةِ» ما عَلموا وشاهدوا(٤). ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تقدَّم(٥).

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ أي: المنزَّه عن كلّ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٠ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥١٢ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٥١٢ .

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٨ .

(٥) ١/ ١٥٩ - ١٦٠ .

نقص، والطاهر عن كلِّ عيب. والقَدَس ـ بالتحريك ـ: السَّطْل، بلغة أهل الحجاز؛ لأنَّه يتطهَّر به. ومنه القادوس: لواحد الأواني التي يُستخرج بها الماء من البئر بالسانِية[١]. وكان سِيبويه يقول: قَدُّوس وسَبُّوح، بفتح أوَّلهما. وحكى أبو حاتم عن يعقوب أنَّه سمع عند الكسائيِّ أعرابيّاً فصيحاً يُكْنَى أبا الدينار يقرأ: «القَدُّوس» بفتح القاف[٢]. قال ثعلب: كلُّ اسم على فَعُّول، فهو مفتوح الأوَّل، مثل سَفُّود وكَلُّوب وتَنّور وسَمُّور وشَبُّوط، إلا السُّبُّوح والقُدُّوس فإنَّ الضمَّ فيهما أكثر، وقد يفتحان. وكذلك الذُّرُّوح ـ بالضمِّ ـ وقد يفتح[٣].

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ أي: ذو السلامة من النقائص. وقال ابن العربيِّ: اتَّفق العلماء ـ رحمة الله عليهم ـ على أنَّ معنى قولنا في الله «السَّلَامُ»: النسبة، تقديره: ذو السلامة. ثم اختلفوا في ترجمة النسبة على ثلاثة أقوال: الأوَّل: معناه الذي سلِم من كلِّ عيب، وبَرِئ من كلِّ نقص. الثاني: معناه ذو السلام، أي: المسلِّم على عباده في الجنَّة، كما قال: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس:٥٨]. الثالث: أنَّ معناه الذي سلم الخَلْقُ من ظلمه[٤].

قلت: وهذا قول الخطابي، وعليه ـ والذي قبله ـ يكون صفةَ فعل. وعلى أنَّه البريء من العيوب والنقائص يكون صفةَ ذات. وقيل: السلام معناه: المسلِّم لعباده[٥].

﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ أي: المصدِّق لرسله بإظهار معجزاته عليهم، ومصدِّق المؤمنين ما وعدهم به من الثواب، ومصدِّق الكافرين ما أوعدهم من العقاب[٦]. وقيل: «المؤمن»

---

(١) الأسنى ص٢٢٩ ، وما بعده منه أيضاً، والسانية: الناضحة، وهي الناقة التي يُستقى عليها. اللسان (سنا).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٠٤ بنحوه.

(٣) الأسنى ص٢٢٩، والسَّفُّود: حديدة يشوى به اللحم. والكلُّوب بمعناه. والسَّمُّور: دابة معروفة تسوَّى من جلودها فِراء غالية الأثمان. والشبُّوط: ضرب من السمك. والذرُّوح: دُوَيْبَّة أعظم من الذباب شيئاً. اللسان (سفد) و(كلب) و(سمر) و(شبط) و(ذرح) على الترتيب.

(٤) الأسنى ص٢٢٠ - ٢٢١ .

(٥) الأسنى ص٢١٩ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٦ .

الذي يؤمِّن أولياءه من عذابه[١]، ويؤمِّن عباده من ظلمه[٢]، يقال: آمنه، من الأمان الذي هو ضدُّ الخوف، كما قال تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤] فهو مؤمن، قال النابغة:

والمُؤمِنِ العائذاتِ الطيرَ يَمْسَحُها رُكْبانُ مَكَّةَ بينَ الغِيلِ والسَّنَدِ[٣]

وقال مجاهد: المؤمن الذي وَحَّد نفسه بقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[٤] [آل عمران: ١٨]. وقال ابن عباس: إذا كان يوم القيامة أخرج أهل التوحيد من النار، وأوَّل من يخرج من وافق اسمُه اسمَ نبيٍّ، حتى إذا لم يَبْقَ فيها من يوافق اسمه اسمَ نبيٍّ، قال الله تعالى لباقيهم: أنتم المسلمون وأنا السلام، وأنتم المؤمنون وأنا المؤمن، فيُخرجهم من النار؛ ببركة هذين الاسمين[٥]. ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ﴾ تقدَّم الكلام في المهيمن في «المائدة»[٦]، وفي «العزيز» في غير موضع[٧]. ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ قال ابن عباس: هو العظيم. وجبروت الله: عظمته. وهو على هذا القول صفة ذات[٨]، من قولهم: نخلة جَبَّارة. قال امرؤ القيس:

سوامق جبَّار أثِيثٍ فروعُه وعالَيْنَ قِنْواناً من البُسْرِ أحْمرا[٩]

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٤٨.

(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٥٥٢.

(٣) ديوان النابغة ص٣٥، إلا أنه ورد فيه: والسعد، بدل: والسند. قال في زهر الأكم لليوسي ١/ ٨٠: وأراد بالعائذات هذه الطير، والمؤمن هو الله تعالى، وقوله: يمسحها ركبان مكة. أي: يمسحون عليها ولا يهيجونها، والغيل والسعد: أَجَمتان بين مكة والمدينة. والمعنى: أي: أقسم بالله تعالى الذي أمَّن الطير العائذات أن تصاد أو أن تؤخذ.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥٠ دون نسبة.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) ٨/ ٣٥.

(٧) ٢/ ٤٠٣.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٧.

(٩) الأسنى ص٣٧٦ - ٣٧٧، والبيت في شرح ديوان امرئ القيس ص٥٧، قال شارحه: والسوامق: النخل المرتفعات الطوال. والجبَّار: الذي قد فات اليدَ لطوله. والأثيث: الغزير. وعالين قنواناً: أي =

يعني النخلة التي فاتت اليَدَ.

فكان هذا الاسم يدلُّ على عظمة الله وتقديسه عن أن تناله النقائص وصفات الحدث. وقيل: هو من الجَبْر، وهو الإصلاح، يقال: جبرت العظم فجبَر، إذا أصلحته بعد الكسر، فهو فعَّال من جبر، إذا أصلح الكسير وأغنى الفقير[1]. وقال الفرَّاء: هو من أَجبره على الأمر، أي: قهره. قال: ولم أسمع فعَّالاً من أفعل إلا في جبَّار، ودرَّاك من أدرك. وقيل: الجبَّار لذي لا تُطاق سطوته.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي تكبَّر بربوبيَّته فلا شيء مثله. وقيل: المتكبِّر عن كلِّ سوء، المتعظِّم عمَّا لا يليق به من صفات الحدث والذَّمِّ. وأصل الكبر والكبرياء: الامتناع وقلَّة الانقياد[2]. وقال حميد بن ثور:

عَفَت مثل ما يعفو الفَصيل فأصبحتْ ... بها كبرياءُ الصَّعْبِ وهي ذلولُ[3]

والكبرياء في صفات الله مدح، وفي صفات المخلوقين ذمٌّ[4]. وفي «الصحيح» عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربِّه تبارك وتعالى أنَّه قال: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني في واحد منهما، قصمته، ثم قذفته في النار»[5]. وقيل: المتكبِّر، معناه: العالي. وقيل: معناه: الكبير؛ لأنَّه أَجَلُّ من أن

= قد أدرك هذا النخل وأينع فتمايلت عروقه، وإنما قصد تشبيه ما على الهوادج من الصوف الأحمر والأصفر مع ارتفاعها بهذه النخل الطوال وما فيها من ألوان.

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٧.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٢٧.

(٣) ديوان حميد بن ثور الهلالي ص٥٨، إلا أنه ورد فيه: الطليح، بدل: الفصيل.وركوب، بدل: ذلول. وعفت الأرض: غطَّاها النبات.وعفا البعير: سمن وكثر شعر ظهره وطال حتى غطى دبره. والطليح: البعير المهزول المعيي. القاموس المحيط (عفا) و(طلح).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥١٤.

(٥) أخرجه أحمد (٩٣٥٩) دون ذكر لفظة: قصمته. وهي عند الحاكم ١/ ٦١ بلفظ: الكبرياء ردائي، فمن نازعني ردائي قصمته. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه بهذا اللفظ، إنما أخرجه مسلم [٢٦٢٠] من طريق الأغر، عن أبي هريرة بغير هذا اللفظ. وقال الذهبي: أخرجه مسلم من حديث الأغر، عن أبي هريرة [وأبي سعيد الخدري قالا: قال رسول الله ﷺ: العزُّ إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني، عَذَّبته] بنحو منه. اهـ.

يتكلَّف كبراً. وقد يقال: تظلَّم بمعنى ظلم، وتشتَّم بمعنى شتم[١]، واستقرَّ بمعنى قرَّ. كذلك المتكبِّر بمعنى الكبير. وليس كما يوصف به المخلوق، إذا وصف بتفعَّل إذا نسب إلى ما لم يكن منه.

ثم نَزَّه نفسه فقال ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تنزيهاً لجلالته وعظمته ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ «الْخَالِقُ» هنا المقدِّر. و«الْبَارِئُ» المنشئ المخترع[٢]. و«الْمُصَوِّرُ» مصوِّر الصور ومركِّبها على هيئات مختلفة[٣]. فالتصوير مرتَّب على الخلق والبراية وتابع لهما. ومعنى التصوير: التخطيط والتشكيل. وخلق الله الإنسان في أرحام الأمهات ثلاث خِلَق: جعله عَلَقَةً، ثم مُضْغَةً، ثم جعله صورة، وهو التشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يُعرف بها ويتميَّز عن غيره بِسمتها. فتبارك الله أحسن الخالقين[٤]. وقال النابغة[٥]:

الخالق البارئ المصوِّر في الْـ ... أرحامِ ماءً حتى يصير دماً

وقد جعل بعض الناس الخَلْق بمعنى التصوير[٦]، وليس كذلك، وإنَّما التصوير آخِراً، والتقدير أوّلاً، والبراية بينهما. ومنه قوله الحقّ: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠] وقال زُهير:

ولأنتَ تَفْري ما خَلَقْتَ وبعـ ... ـضُ القوم يَخْلُقُ ثم لا يَفْرِي[٧]

---

(١) الوسيط ٤/ ٢٧٩.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٥١٤.
(٣) الأسنى ص٣٤٩.
(٤) الأسنى ص٣٥٠.
(٥) وهو: الجعدي، والبيت في ديوانه ص١٣٣.
(٦) وهما ابن العربي وابن الحصار كما ذكر ذلك القرطبي في الأسنى ص٣٣٦، والكلام منه.
(٧) سلف ١/ ٣٤١.

يقول: تُقَدِّر ما تُقَدِّر ثم تَفْرِيه، أي: تُمضيه على وَفْق تقديرك، وغيرك يقدِّر ما لا يتمُّ له ولا يقع فيه مراده؛ إمَّا لقصوره في تصوُّر تقديره، أو لعجزه عن تمام مراده. وقد أتينا على هذا كلِّه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[١] والحمد لله.

وعن حاطب بن أبي بَلْتَعَة أنَّه قرأ: «الباريءُ المصوَّرَ» بفتح الواو ونصب الراء، أي: الذي يُبرِئُ المصوَّر، أي: يميِّز ما يصوِّره بتفاوت الهيئات. ذكره الزَّمَخْشَرِيُّ[٢].

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدَّم الكلام فيه[٣].

وعن أبي هريرة قال: سألتُ خليلي أبا القاسم رسولَ الله ﷺ عن اسم اللهِ الأعظم فقال: «يا أبا هريرة، عليك بآخرِ سورة الحشر فأَكْثِر قراءَتها» فأعدتُ عليه، فأعاد عليَّ، فأعدتُ عليه، فأعاد عليَّ[٤]. وقال جابر بن زيد: إنَّ اسم الله الأعظم هو الله؛ لمكان هذه الآية[٥]. وعن أنس بن مالك: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الحشر، غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر»[٦]. وعن أبي أُمامة قال: قال النبيُّ ﷺ: «من قرأ خواتيم سورة الحشر في ليل أو نهار، فقبضه اللهُ في تلك الليلة أو ذلك اليوم، فقد أَوجب الله له الجنَّة»[٧].

---

(١) ص٣٣٦ وما بعدها.

(٢) في الكشاف ٤/ ٨٧ - ٨٨ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٥٤ عن اليماني.

(٣) ١/ ٤٢٨ و٢/ ٤٠٣ و١٣/ ٨٩.

(٤) أخرجه الثعلبي كما في الكافي الشاف لابن حجر ص ١٦٧ من رواية علي بن رزيق، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة، به، وعلي بن رزيق: ذكره ابن ماكولا في الإكمال ٤/ ٥٣ وقال: المقرئ المصري، يروي عن ابن لهيعة، روى عنه حرملة بن يحيى. اهـ. وهشام ابن سعد هو أبو عباد المدني، صدوق له أوهام. التهذيب.

(٥) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ١/ ٢٠٩ ، وابن أبي شيبة ١٠/ ٢٧٣ ، والطبري ٢٢/ ٥٥٥ .

(٦) أخرجه الثعلبي كما في الكافي الشاف ص١٦٧ من رواية يزيد بن أبان، عن أنس، به، ويزيد بن أبان هو: أبو عمرو الرَّقَاشي القاصُّ، زاهد ضعيف. التهذيب.

(٧) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٥٠١)، والقزويني في التدوين ٤/ ٢٦ من طريق محمد بن زياد الألهاني، عن أبي أمامة، به.

قال البيهقي: تفرَّد به سليم بن عثمان هذا عن محمد بن زياد. اهـ. قلنا: وسُلَيْم بن عثمان هو: الفوزي الحمصي، متَّهم واهٍ. المغني في الضعفاء ١/ ٢٨٤ .

تفسير سورة الحشر

[وكان ابن عباس يقول : سورة بنى النضير] [١] . وهى مدنية .

قال سعيد بن منصور : حدثنا هُشَيم ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس: سورة الحشر ؟ قال : أنزلت فى بنى النضير .

ورواه البخارى ومسلم من وجه آخر ، عن هُشَيْم ، به [٢] . ورواه البخارى من حديث أبى عَوانة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : قُل : سورة النَّضير [٣] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) ﴾ .

يخبر تعالى أن جميع ما فى السموات وما فى الأرض من شىء يسبح له ويمجده ويقدسه ، ويصلى له ويوحده [٤] ، كقوله : ﴿ **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ [وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ]** [٥] ﴾ [الإسراء:٤٤] . وقوله : ﴿ **وَهُوَ الْعَزِيزُ** ﴾ أى : منيع الجناب ﴿ **الْحَكِيمُ** ﴾ فى قَدره وشرعه .

وقوله : ﴿ **هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** ﴾ يعنى : يهود بنى النضير . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والزهرى ، وغير واحد : كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم

(١) زيادة من أ .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٨٢) وصحيح مسلم برقم (٣٣١) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٨٨٣) .

(٤) فى م : « وحده » .

(٥) زيادة من م .

عهداً وذمة ، على ألا يقاتلهم ولا يقاتلوه ، فنقضوا العهد الذى كان بينهم وبينه ، فأحل الله بهم بأسه الذى لا مَرَدَّ [(١)] له ، وأنزل عليهم قضاءه الذى لا يُصَدّ ، فأجلاهم النبى ﷺ ، وأخرجهم من حصونهم الحصينة التى ما طمع فيها المسلمون ، وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله ، فما أغنى عنهم من الله شيئاً ، وجاءهم ما لم يكن ببالهم ، وسيّرهم رسول الله وأجلاهم من المدينة ، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالى الشام ، وهى أرض المحشر والمنشر ، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر. وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم ، فكانوا يخربون ما فى بيوتهم من المنقولات التى يمكن أن تحمل معهم ؛ ولهذا قال: ﴿ **يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِى الأَبْصَارِ**﴾ أى : تفكروا فى عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله، وكذب كتابه ، كيف يحل به من بأسه المخزى له فى الدنيا ، مع ما يدخره له فى الآخرة من العذاب الأليم .

قال أبو داود : حدثنا محمد بن داود بن سفيان ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر ، عن الزهرى ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ ، أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبى ، ومن كان معه يعبد [معه] [(٢)] الأوثان من الأوس والخزرج ، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر : إنكم آويتم صاحبنا ، وإنا نقسم بالله لنقاتلنه ، أو لتخرجنه ، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا ، حتى نقتل مُقَاتلتكم ونستبيح نساءكم ، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبى ومن كان معه من عبدة الأوثان ، اجتمعوا لقتال النبى ﷺ ، فلما بلغ ذلك النبى ﷺ لقيهم ، فقال :« لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم ؟ » ، فلما سمعوا ذلك من النبى ﷺ تفرقوا ، فبلغ ذلك كفار قريش ، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود : إنكم أهل الحلقة والحصون ، وإنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ، ولا يحول بيننا وبين خَدَم نسائكم شىء ــ وهى الخلاخيل ــ فلما بلغ كتابهم النبى ﷺ اجتمعت بنو النضير بالغدر ، فأرسلوا إلى النبى ﷺ : اخرج إلينا فى ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبراً ، حتى نلتقى بمكان المنصف فيسمعوا منك ، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك ، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ [بالكتائب] [(٣)] فحصرهم ، قال لهم: « إنكم والله لا تأمنوا عندى إلا بعهد تعاهدونى عليه » . فأبوا أن يعطوه عهداً ، فقاتلهم يومهم ذلك ، ثم غدا الغَد على بنى قريظة بالكتائب ، وترك بنى النضير ، ودعاهم إلى أن يعاهدوه ، فعاهدوه ، فانصرف عنهم . وغدا إلى بنى النضير بالكتائب فقاتلهم ، حتى نزلوا على الجلاء . فجلت بنو النضر ، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها ، وكان نخل بنى النضير لرسول الله ﷺ خاصة ، أعطاه الله إياها وخصه بها ، فقال : ﴿ **وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ** ﴾ يقول : بغير قتال ، فأعطى النبى ﷺ أكثرها للمهاجرين ، قسمها بينهم، وقسم منها لرجلين من الأنصار وكانا ذوى حاجة ، ولم يقسم من الأنصار غيرهما ، وبقى

---

(١) فى م : « لا يرد » .

(٢ ، ٣) زيادة من سنن أبى داود .

منها صدقة رسول الله ﷺ التى فى أيدى بنى فاطمة [١] .

ولنذكر ملخص غزوة بنى النضير على وجه الاختصار ، وبالله المستعان .

وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازى والسيَر : أنه لما قُتِل أصحابُ بئر معونة ، من أصحاب رسول الله [٢] ﷺ ، وكانوا سبعين ، وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمرى ، فلما كان فى أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بنى عامر ، وكان معهما عهد من رسول الله ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو ، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : « لقد قتلت رجلين، لأدينَّهما » . وكان بين بنى النضير وبنى عامر حلف وعهد ، فخرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير يستعينهم فى دية ذينك الرجلين ،وكان منازل بنى النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيها .

قال محمد بن إسحاق بن يسار فى كتابه السيرة : ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير ، يستعينهم فى دية ذينك القتيلين من بنى عامر ، اللذين قتل [٣] عمرو بن أمية الضمرى ؛ للجوار الذى كان رسول الله ﷺ عقد لهما ، فيما حدثنى يزيد بن رُومان ، وكان بين بنى النضير وبنى عامر عَقد وحلف . فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم فى دية ذينك القتيلين قالوا : نعم ، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت ، مما استعنت بنا عليه . ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن [٤] تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ــ ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم ــ فَمَن [٥] رجل يعلو على هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدُهم ، فقال : أنا لذلك ، فصَعَد ليلقى عليه صخرة كما قال ، ورسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه ، فيهم أبو بكر وعمر وعلى ، رضى الله عنهم . فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة ، فلما استلبث النبى ﷺ أصحابه قاموا فى طلبه فلقوا رجلا مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه ، فقال : رأيته داخلاً المدينة . فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به ،وأمر رسولُ الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم . ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه فى الحصون ، فأمر رسولُ الله ﷺ بقطع النخل والتَّحريق فيها . فنادوه: أن يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها ؟

وقد كان رهط من بنى عوف بن الخزرج ، منهم عبد الله بن أبى [بن] [٦] سلول ، ووديعة ، ومالك بن أبى قوقل [٧] ، وسُوَيد وداعس ، قد بعثوا إلى بنى النضير : أن اثبتوا وتَمَنَّعوا فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرَجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم ، فلم يفعلوا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ، ففعل ، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نِجاف بابه ، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به . فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام ، وخَلّوا الأموال لرسول الله ﷺ ، فكانت لرسول الله خاصة

(١) سنن أبى داود برقم (٣٠٠٤) .
(٢) فى م : « أصحاب النبى » . (٣) فى م : « قتلهما » . (٤) فى م : « لم » .
(٥) فى أ : « فمر » . (٦) زيادة من م ، أ . (٧) فى أ : « نوفل » .

يضعها حيث شاء ، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار . إلا أن سهل بن حُنَيف وأبا دُجانة سماك بن خَرَشَة ذكرا فَقْرًا ، فأعطاهما رسول الله ﷺ .

قال : ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان : يامين بن عُمَير [١] بن كعب بن عمرو بن جحاش، وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاها .

قال ابن إسحاق : وقد حدثنى بعض آل يامين : أن رسول الله ﷺ قال ليامين : « ألم تر ما لقيتُ من ابن عمك ، وما هم به من شأنى » . فجعل يامين بن عُمَير [٢] لرجل جُعل على أن يقتل عمرو بن جحاش ، فقتله فيما يزعمون .

قال ابن إسحاق : ونزل فى بنى النضير سورة الحشر بأسرها [٣] .

وهكذا روى يونس بن بُكَيْر ، عن ابن إسحاق ، بنحو ما تقدم [٤] .

فقوله : ﴿ **هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** ﴾ يعنى : بنى النضير ﴿ **مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ** ﴾ .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن أبى سعد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال :من شك فى أن أرض المحشر هاهنا ـ يعنى الشام فَلْيَتْل [٥] هذه الآية : ﴿**هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ** ﴾ ، قال لهم رسول الله ﷺ : «اخرجوا » . قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى أرض المحشر » .

وحدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن عوف ، عن الحسن قال : لما أجلى رسول الله ﷺ بنى النضير ، قال : « هذا أول الحشر ، وأنا على الأثر » .

ورواه ابن جرير ، عن بُنْدَار ، عن ابن أبى عدى ، عن عوف ، عن الحسن ، به [٦] .

وقوله : ﴿ **مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا** ﴾ أى : فى مدة حصاركم لهم وقصَرها ، وكانت ستة أيام ، مع شدة حصونهم ومنعتها ؛ ولهذا قال : ﴿**وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا** ﴾ أى : جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم فى بال ، كما قال فى الآية الآخرى : ﴿ **قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ [النحل:٢٦] .

وقوله : ﴿ **وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ** ﴾ أى : الخوف والهَلَع والجَزَع ، وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذى نُصر بالرعب مسيرةَ شهر ، صلوات الله وسلامه عليه .

(١ ، ٢) فى م : « بن عمرو » .

(٣) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٩٠ـ١٩٢) وتفسير الطبرى (٢٨/ ٢١) .

(٤) فى م : « مما تقدم » . (٥) فى م ، أ : « فليقرأ » .

(٦) تفسير الطبرى (٢٨/ ٢٠) ورواه ابن سعد فى الطبقات (٢/ ٤٢) عن هوذة بن خليفة ، عن عوف ، عن الحسن به وهو مرسل .

وقوله : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ : قد تقدم تفسير ابن إسحاق لذلك ، وهو نقض [١] ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم ، وتَحملها على الإبل ، وكذا قال عروة بن الزبير ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد .

وقال مقاتل بن حيان : كان رسول الله ﷺ يقاتلهم ، فإذا ظهر على دَرْب أو دار ، هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال . وكان [٢] اليهود إذا علَوا مكاناً أو غلبوا على دَرْب أو دار ، نقبوا من أدبارها ثم حصنوها ودربوها ، يقول الله تعالى : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِى الأَبْصَارِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى الدُّنْيَا ﴾ أى: لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء ، وهو النفى من ديارهم وأموالهم ، لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبى ، ونحو ذلك ، قاله الزهرى ، عن عُرْوَة ، والسُّدِّى وابن زيد ؛ لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم فى الدار الدنيا مع ما أعد لهم فى الآخرة من العذاب فى نار جهنم .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن صالح ـ كاتب الليث ـ حدثنى الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب قال : أخبرنى عروة بن الزبير قال : ثم كانت وقعة بنى النضير ، وهم طائفة من اليهود ، على رأس ستة أشهر من وقعة بدر . وكان منزلهم بناحية من المدينة ، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء ، وأن لهم ما أقَلَّت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة ، وهى السلاح ، فأجلاهم رسول الله ﷺ قبَل الشام . قال : والجلاء أنه كُتب عليهم فى آى من التوراة ، وكانوا من سبط لم يصبهم الجلاء قبل ما سلط عليه رسول الله ﷺ ، وأنزل الله فيهم : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿وَلِيُخْزِىَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

وقال عكرمة : الجلاء : القتل . وفى رواية عنه : الفناء .

وقال قتادة : الجلاء : خروج الناس من البلد إلى البلد .

وقال الضحاك : أجلاهم إلى الشام ، وأعطى كل ثلاثة بعيراً وسقاء ، فهذا الجلاء .

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أحمد بن كامل القاضى ، حدثنا محمد بن سعيد [٣] العوفى ، حدثنى أبى ، عن عمى ، حدثنى أبى عن جدى ، عن ابن عباس قال : كان النبى [٤] ﷺ قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مَبْلَغ ، فأعطوه ما أراد منهم ، فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم ، وأن يخرجهم من أرضهم ومن ديارهم وأوطانهم ، وأن يسيرهم إلى أذرعات الشام ، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاء ، والجلاء إخراجهم من أرضهم [٥] إلى أرض أخرى [٦] .

وروى أيضاً من حديث يعقوب بن محمد الزهرى ، عن إبراهيم بن جعفر بن محمود بن محمد

---

(١) فى أ : « بعض » . (٢) فى م : « وكانت » . (٣) فى أ : « سعد » .
(٤) فى م : « كان رسول الله » . (٥) فى م : « أرض » .
(٦) دلائل النبوة للبيهقى (٣/٣٥٩) وإسناده مسلسل بالضعفاء .

ابن مسلمة ، عن أبيه ، عن جده ، عن محمد بن مسلمة ؛ أن رسول الله ﷺ بعثه إلى بنى النضير ، وأمره أن يؤجلهم فى الجلاء ثلاث ليال [١] [٢] .

وقوله : ﴿وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ أى : حتم لازم لا بد لهم منه .

وقوله : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أى: إنما فَعلَ الله بهم ذلك وسلَّط عليهم رسوله وعباده المؤمنين ؛ لأنهم خالفوا الله ورسوله ، وكذبوا بما أنـزل الله على رسله المتقدمين فى [٣] البشارة بمحمد ﷺ ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم . ثم قال : ﴿ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِىَ الْفَاسِقِينَ﴾ اللين: نوع من التمر ، وهو جيد .

قال أبو عبيدة : وهو ما خالف العجوة والبَرْنىّ من التمر .

وقال كثيرون [٤] من المفسرين : اللينة : ألوان التمر سوى العجوة .

قال ابن جرير : هو جميع النخل . ونقله عن مجاهد : وهو البُوَيرة أيضاً ؛ وذلك أن رسول الله ﷺ لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم [٥] إهانة لهم ، وإرهاباً وإرعاباً لقلوبهم . فروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان أنهم قالوا : [فبعث بنو النضير] [٦] يقولون لرسول الله ﷺ : إنك تنهى عن الفساد ، فما بالك تأمر بقطع الأشجار ؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة ، أى : ما قطعتم وما تركتم من الأشجار ، فالجميع بإذن الله ومشيئته وقدرته [٧] ورضاه ، وفيه نكاية العدو [٨] ، وخزى لهم ، وإرغام لأنوفهم .

وقال مجاهد : نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل ، وقالوا : إنما هى مغانم المسلمين . فنزل[٩] القرآن بتصديق من نهى عن قطعه ، وتحليل من قطعه من الإثم ، وإنما قطعه وتركه بإذنه .

وقد روى نحو هذا مرفوعاً ، فقال النسائى : أخبرنا الحسن بن محمد ، عن [١٠] عفان ، حدثنا حفص بن غياث ، حدثنا حبيب بن أبى عمرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، فى قوله : ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِىَ الْفَاسِقِينَ ﴾ قال : يستنزلونهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل ، فحاك فى صدورهم ، فقال المسلمون : قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً ، فلنسألن رسول الله ﷺ : هل لنا فيما قطعنا من أجر ؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل الله : ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ ﴾ [١١] .

---

(١) فى م : « أيام » .
(٢) دلائل النبوة (٣/ ٣٦٠) .
(٣) فى م : « من » . (٤) فى م : « كثير » . (٥) فى م : « نخلهم » .
(٦) فى هـ بياض ، وفى م : « بنو قريظة » وهو خطأ ، والمثبت من تفسير الطبرى . ومستفادا من هامش ط. الشعب .
(٧) فى م : « وقدره » . (٨) فى م : « للعدو » . (٩) فى م : « فأنزل » .
(١٠) فى م : « بن » .
(١١) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٧٤) .

وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده : حدثنا سفيان بن وَكِيع ، حدثنا حفص ، عن ابن جريج ، عن سليمان بن موسى ، عن جابر ـ وعن أبى الزبير ، عن جابر ـ قال : رخص لهم فى قطع النخل، ثم شدد عليهم ، فـأتوا [١] النبى ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، علينا إثم فيما قطعنا ؟ أو علينا وزر فيما تركنا ؟ فـأنزل الله ، عز وجل : ﴿ **مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ**﴾[٢] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن موسى بن عقبة ، عن نافع ، عن ابن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ قطع نخل بنى النضير وحَرّق .

وأخـرجه صاحبا الصحيح من روايـة موسى بن عقبة ، بنحوه [٣] ، ولفظ البخارى من طريق عبد الرزاق ، عن ابن جريج ، عن موسى بن عقبة ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : حاربت[٤] النضيرُ وقريظة ، فأجلى بنى النضير وأقر قريظة ومَنّ عليهم حتى حاربت قريظة فقتل رجالهم وقسم[٥] نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين ، إلا بعضهم لحقوا بالنبى ﷺ فأمَّنهم وأسلموا ، وأجلى يهود المدينة كلهم بنى قينقاع ، وهم رهط عبد الله بن سلام ،ويهود بنى حارثة ،وكلّ يهود بالمدينة .

ولهما أيضا عن قتيبة ، عن الليث بن سعد ، عن نافع ، عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ حَرّق نخل بنى النضير وقطع ـ وهى البُوَيرةُ ـ فأنزل الله ، عز وجل فيه : ﴿ **مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [٦] .

وللبخارى ، رحمه الله ، من رواية جُوَيْرية بن أسماء عن نافع ، عن عبد الله بن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ حَرّق نخل بنى النضير [٧] . ولها يقول حسان بن ثابت ، رضى الله عنه :

وَهَـان عَلى سَراة بنى لُؤىّ   حَـريـق بالبُـوَيـرة مُسْتَـطِيرُ

فأجابه أبو سفيان بن الحارث يقول :

أدَام اللهُ ذلـكَ مـن صَنـيع   وَحـرّق فى نَـوَاحيها السَّعير
سَتَـعلم أيُّـنا منْـها بِـنُـزْهٍ   وَتَعْلَمُ أىّ أرْضينَـا نَضِيــرُ

---

(١) فى م : « فسألوا » .
(٢) مسند أبى يعلى (٤/ ١٣٥) وفيه سفيان بن وكيع ، وهو ضعيف .
تنبيه : رواية سليمان بن موسى عن جابر لم أجدها فى مسند أبى يعلى المطبوع فلعلها سقطت .
(٣) المسند (٢/ ٧) وصحيح البخارى برقم (٢٠٢١) وصحيح مسلم برقم (١٧٤٦)
(٤) فى م : « حارب » .   (٥) فى م : « فقتل من رجالهم وسبى وقسم » .
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٨٨٤) وصحيح مسلم برقم (١٧٤٦) .
(٧) فى هـ ، أ : « نخل بنى النضير ، وقطع البويرة » ، وقوله : « وقطع البويرة » غير ثابت فى البخارى ، ويبدو أنه سهو من الناسخ . مستفاداً من هامش ط ـ الشعب .

كذا رواه البخارى [١] ، ولم يذكره ابن إسحاق .

وقال محمد بن إسحاق : وقال كعب بن مالك يذكر إجلاء بنى النضير وقتل ابن الأشرف :

لَقَد خزيت[٢] بغَدْرَتِها الحُبُور ... كَذَاكَ الدهرُ ذو صَرْف يَدُورُ

وَذَلك أنَّهم كفَـرُوا بِـرَبّ ... عَظـيم أمــرُهُ أمــرٌ كَبيرُ

وقَـد أوتـوا معاً فَهماً وعلما ... وَجَــاءهُمُ مــن الله النَّذيرُ

نَذيـر صَــادق أدّى[٣] كتابا ... وآيـــات مُبَـيَّنَـةً تُـنـيــرُ

فقال[٤] : ما أتيت بأمر صدق ... وأنـت بمنكـر منــا جَـديـرُ

فَقال : بَلى لَقد أديتُ حقاً ... يُصَدّقنى بــه الفَهم الخَبـيـرُ

فَمن يَتْبعه يُهدَ لِكُل رُشُد ... وَمَن يَكفُر بـه يُجزَ الكَفُورُ

فَلَمَّا أشربُـوا غَـدْراً وكُفْـراً ... وَجَدّ بهم عن الحَقّ النّفورُ

أرَى الله النبىّ بِرأى صدْق ... وكانَ الله يَحكُم لا يَجُورُ

فَـأيَّـدَهُ وَسَلَّـطَـه عَـلَيـهم ... وكَـانَ نَصيرهُ نـعـْم النَّصيرُ

فَغُودرَ منْهمُو كَعب صريعاً ... فَذَلَّتْ بعدَ مَصْرَعه النَّضيرُ

عَلى الكَفَّين ثـمَّ وقَـدْ عَلَتْهُ ... بـأيـدينـا مُشَهَّـرة ذكُــورُ

بـأمْــر مُحَمَّد إذ دَس لَيلا ... إلى كَعب أخَا كَعب يَسيرُ

فَمَا كَرَه فَــأنـزلَــه بِمكـْر ... وَمحمودُ أخُو ثقَة جَسُورُ

فَتلْك بَنُو النَّضير بدار سَوء ... أبَارَهُمُ بما اجترموا المُبيرُ

غَداة أتاهمُ فى الـزَّحْف رَهواً ... رَسُولُ الله وَهْوَبهم بَصيرُ

وَغَسَّـانُ الـحـمـاةُ مُـوازرُوه ... عَلَى الأعداء وهولهم وَزيرُ

فَقَالَ: السلْم ويحكمُ فَصَدّوا ... وَحَالفَ أمْرَهَم كَذبٌ وَزُورُ

فَـذَاقُوا غـبّ أمْرهُمُ دبَـالا ... لكـُلّ ثَـلاثَـة منهُم بَعيرُ

وَأجـلوا عَـامـدين لقَينُقَـاع ... وَغُودرَ مِنْهُم نَخْل ودُورُ [٥]

قال : وكان مما [٦] قيل من الأشعار فى بنى النضير قولُ ابن لُقَيم العَبْسىّ ــ ويقال : قالها قيس

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٠٣٢) .

(٢) فى أ : « خربت » .

(٣) فى م : « أوتى » .

(٤) فى م: « فقالوا » .

(٥) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١٩٩/٢) .

(٦) فى م : « ومما كان » .

ابن بحر بن طريف ، قال ابن هشام الأشجعى :

أهلى فداءٌ لامرئ غير هَالك ... أحَلّ [١] اليهودَ بالحَسى [٢] المُزَنَّم

يَقيلُونَ فى جَمْر الغَضاة وبُدِّلُوا ... أهَيضبَ عـودا بالوَدى المُكَمَّم

فإن يَكُ ظَنى صادقاً بمُحَمد ... يَرَوا خَيلَه بينَ الصَّلا ويَرمْرَم [٣]

يَؤمّ بها عَمرو بنُ بُهثَةَ إنّهُمْ ... عَدُو وما حَىّ صَديق كمُجْرم

عَلَيهنّ أبطالُ مَساعيرُ فى الوَغَى ... يَهُزّونَ أطرافَ الوَشيج المُقَوّم

وكُـلّ رَقيـق الشَّفـرتَين مُـهَنَّـدٍ ... تُورثْنَ مـن أزْمـان عـاد وَجُرْهُمِ

فَمَن مُبلغٌ عَنى قُرَيشاً رسَالَة ... فَهَلْ بَعدَهُم فى المَجْد من مُتكرّم

بأنّ أخاكمُ فاعلَمنّ مُحَمَّداً ... تَليدُ النَّدى بينَ الحَجُون وزَمْزَم

فَدينُوا له بالحَقّ تَجْسُمْ أمُورُكم ... وتَسْمُوا منَ الدنْيا إلى كُل مُعْظَم

نبى تـلافَتـه مـنَ الله رَحَـمـةٌ ... وَلا تَسْألُوهُ أمْـرَ غَـيب مُرَجَّم

فَقَدْ كانَ فى بَدْر لَعَمْرى عِبرَةٌ ... لكُم يـا قُـرَيش والقَليب المُلَمَّم

غَدَاة أتَى فى الخَزْرَجيَّةِ عامِداً ... إليكُم مُطيعـاً للعَظيمِ المُكَرّم

مُعَاناً بروُح القُدْس يَنْكى عَدوه ... رَسُولاً مِـنَ الرّحمن حَقّا بِمَعْلم

رَسُولاً منَ الرّحمن يَتْلُو كتابَهُ ... فَـلَـمّا أنـارَ الحَـقّ لـم يَتَلعْثَم

أرَى أمْرَهُ يَزْدَادُ فى كُلّ مَوْطن ... عُلُوّا لأمـرْ حَمَّه اللهُ مُحْكَم [٤]

وقد أورد ابن إسحاق ، رحمه الله ، هاهنا أشعاراً كثيرة ، فيها آداب ومواعظ وحكم ، وتفاصيل للقصة ، تركنا باقيها اختصاراً واكتفاء بما ذكرناه ، ولله الحمد والمنة .

قال ابن إسحاق : كانت وقعة بنى النضير بعد وقعة أحد وبعد بئر معونة . وحكى البخارى ، عن الزهرى ، عن عروة أنه قال : كانت وقعة بنى النضير بعد بدر بستة أشهر [٥] .

﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ

---

(١) فى أ : « أجلى » . (٢) فى م ، أ : « بالحس » . (٣) فى أ : « بين الصفا وبزمزم » .

(٤) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٩٥) .

(٥) صحيح البخارى (٧/ ٣٢٩) « فتح » .

الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) ﴾ .

يقول تعالى مبيناً لمال الفيء ، وما صفته ؟ وما حكمه ؟ فالفيء: كلّ مال أخذ من الكفار بغير (١) قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب ، كأموال بنى النضير هذه ، فإنها مما لم يُوجف المسلمون عليه (٢) بخيل ولا ركاب ، أى : لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة ، بل نزل أولئك من الرعب الذى ألقى الله فى قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ ، فأفاءه الله على رسوله ؛ ولهذا تصرف فيه كما شاء ، فردّه على المسلمين فى وجوه البر والمصالح التى ذكرها الله ، عز وجل ، فى هذه الآيات ، فقال : ﴿**وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ**﴾ أى : من بنى النضير ﴿ **فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ** ﴾ يعنى : الإبل ، ﴿ **وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ أى : هو قدير لا يُغالَب ولا يُمانع ، بل هو القاهر لكل شىء .

ثم قال : ﴿ **مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ** ﴾ أى: جميع البلدان التى تُفتَح هكذا ، فحكمها حكم أموال بنى النضير ؛ ولهذا قال : ﴿ **فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ** ﴾ إلى آخرها والتى بعدها . فهذه مصارفُ أموال الفىء ووجوهه .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن عمرو ومَعْمَر ، عن الزهرى ، عن مالك بن أوس بن الحَدَثان ، عن عمر ، رضى الله عنه ، قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة (٣) ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته (٤) ــ وقال مرّة : قوت (٥) سنته ــ وما بقى جعله فى الكُرَاع والسلاح فى سبيل الله ، عز وجل .

هكذا أخرجه أحمد هاهنا مختصراً ، وقد أخرجه الجماعة فى كتبهم ــ إلا ابن ماجة ــ من حديث سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن الزهرى ، به (٦) . وقد رويناه مطولاً ، فقال أبو داود ، رحمه الله :

حدثنا الحسن بن على ومحمد بن يحيى بن فارس ــ المعنى واحد ــ قالا : حدثنا بشر بن عُمَر الزهرانى ، حدثنى مالك بن أنس ، عن ابن شهاب ، عن مالك بن أوس قال : أرسل إلىَّ عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، حين تعالى النهار ، فجئته فوجدته جالساً على سرير مُفضياً إلى رُماله ، فقال حين دخلت عليه : يا مالِ ، إنه قد دَفّ أهل أبيات (٧) من قومك ، وقد أمرت فيهم بشىء ، فاقسم فيهم . قلت : لو أمرتَ غيرى بذلك ؟ فقال : خذه . فجاءه (٨) يرفا ، فقال : يا أمير

---

(١) فى م : « من غير » . (٢) فى م : « عليه المسلمون » . (٣) فى م : « خاصة » .
(٤) فى م : « سنة » . (٥) فى أ : « مسيرة » .
(٦) المسند (١/ ٢٥) وصحيح البخارى برقم (٤٨٨٥) وصحيح مسلم برقم (١٧٥٧) وسنن أبى داود برقم (٢٩٦٥) وسنن الترمذى برقم (١٧١٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٧٥) .
(٧) فى أ : « أهل بنات » . (٨) فى م : « فجاء » .

المؤمنين، هل لك فى عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ؟ فقال : نعم . فأذن لهم فدخلوا ، ثم جاءه يرفا فقال : يا أمير المؤمنين ، هل لك فى العباس وعلى ؟ قال : نعم . فأذن لهم فدخلوا ، فقال العباس : يا أمير المؤمنين ، اقض بينى وبين هذا ــ يعنى : علياً ــ فقال بعضهم : أجل يا أمير المؤمنين ، اقض بينهما وأرحهما . قال مالك بن أوس: خُيِّل إلىَّ أنهما قَدّما أولئك النفر لذلك . فقال عمر ، رضى الله عنه : اتئدا . ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : « لا نُورَث ، ما تركنا صدقة » . قالوا : نعم . ثم أقبل على علىّ والعباس فقال : أنشدُكُما بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ، ما تركنا صدقة» . فقالا : نعم . فقال : فإن الله خص رسوله بخاصة لم يخص بها أحداً من الناس ، فقال: ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . فكان الله أفاء على رسوله أموال بنى النضير ، فوالله ما استأثر بها عليكم ولا أحرزها دونكم،فكان رسول الله ﷺ يأخذ منها نفقة سنة ــ أو : نفقته ونفقة أهله سنة ــ ويجعل ما بقى أسوة المال . ثم أقبل علىّ أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض : هل تعلمون ذلك ؟ قالوا : نعم . ثم أقبل على علىٍّ والعباس فقال : أنشدُكما بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض : هل تعلمان ذلك ؟ قالا : نعم . فلما تُوفى رسول الله ﷺ قال أبو بكر: « أنا ولىّ رسول الله » ، فجئت أنت وهذا إلى أبى بكر ، تطلب أنتَ ميراثك من ابن أخيك ، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها ، فقال أبو بكر ، رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « لا نورث ، ما تركنا صدقة » . والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق . فوليها أبو بكر ، فلما توفى قلتُ : أنا وَلِىّ رسول الله ﷺ وولىّ أبى بكر ، فَوليتها ما شاء الله أن أليها ، فجئت أنت وهذا ، وأنتما جَميع وأمركما واحد ، فسألتمانيها ، فقلت : إن شئتما فأنا أدفعها إليكما على أنّ عليكما عهد الله أن تلياها بالذى كان رسول الله ﷺ يليها ، فأخذتماها منى علَى ذلك ، ثم جئتمانى لأقضى بينكما بغير ذلك . والله لا أقضى بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة ، فإن عَجزتُما عنها فَردَّاها إلى .

أخرجوه من حديث الزهرى ، به[1] . وقال الإمام أحمد :

حدثنا عارم وعفان قالا : حدثنا معتمر ، سمعت أبى يقول : حدثنا أنس بن مالك ، عن نبىّ الله ﷺ أن الرجل كان يجعل له من ماله النخلات ، أو كما شاء الله ،حتى فُتحَت عليه قريظة والنضير . قال : فجعل يَرُدّ بعد ذلك ، قال : وإن أهلى أمرونى أن آتى النبى ﷺ فأسأله الذى كان أهله أعطوه أو بعضه ، وكان نبى الله ﷺ قد أعطاه أمّ أيمن ، أو كما شاء الله ، قال : فسألتُ النبى ﷺ فأعطانيهن ، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوبَ فى عنقى وجعلت تقول : كلا ، والله الذى لا إله إلا هو لا يُعطيكَهُنّ وقد أعطانيهن ، أو كما قالت ، فقال نبى الله : « لك كذا وكذا » . قال : وتقول :

(١) سنن أبى داود برقم (٢٩٦٣) وصحيح البخارى برقم (٣٠٩٤) وصحيح مسلم برقم (١٧٥٧) وسنن النسائى (٧/ ١٣٦) وسنن الترمذى برقم (١٦١٠) .

كلا ، والله . قال : ويقول : « لك كذا وكذا » . قال : وتقول : كلا والله . قال : « ويقول : لك كذا وكذا » . قال : حتى أعطاها ، حسبت أنه قال : عشرة أمثال أو قال قريباً من عشرة أمثاله ، أو كما قال .

رواه البخارى ومسلم من طُرُق عن معتمر ، به (١) .

وهذه المصارف المذكورة فى هذه الآية هى المصارف المذكورة فى خُمس الغَنيمة . وقد قدمنا الكلام عليها فى سورة « الأنفال » بما أغنى عن إعادته هاهنا ، ولله الحمد (٢) .

وقوله : ﴿ **كَىْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ** ﴾ أى: جعلنا هذه المصارف لمال الفىء لئلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها ، بمحض الشهوات والآراء ، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء .

وقوله : ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ أى : مهما أمركم به فافعلوه ، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا يحيى بن أبى طالب ، حدثنا عبد الوهاب ، حدثنا سعيد ، عن قتادة، عن الحسن العوفى ، عن يحيى بن الجزار ، عن مسروق قال : جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت : بلغنى أنك تنهى عن الواشمة والواصلة ، أشىء وجدته فى كتاب الله أو عن رسول الله ﷺ ؟ قال : بلى ، شىء وجدته فى كتاب الله وعن رسول الله ﷺ . قالت : والله لقد تصفحتُ ما بين دفتى المصحف فما وجدت الذى تقول ! . قال : فما وجدت فيه : ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ ؟ قالت : بلى . قال : فإنى سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن الواصلة والواشمة والنامصة . قالت : فلعله فى بعض أهلك . قال : فادخلى فانظرى . فدخلت فَنَظرت ثم خرجَت ، قالت : ما رأيتُ بأسا . فقال لها : أما حفظت وصية العبد الصالح : ﴿ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ** ﴾ [هود:٨٨] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن منصور ، [عن إبراهيم] (٣) ، عن علقمة ، عن عبد الله ــ هو ابن مسعود ــ قال : لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والمتنمصات، والمُتفَلِّجات للحُسْن ، المغيرات خلق الله ،عز وجل. قال: فبلغ امرأة فى البيت يقال لها: « أم يعقوب » ، فجاءت إليه فقالت : بلغنى أنك قلت كيتَ وكيتَ . قال : ما لى لا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ ، وفى كتاب الله . فقالت : إنى لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته . فقال : إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه . أما قرأت :﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾؟ قالت : بلى . قال : فإن النبى ﷺ نهى عنه . قالت : [إنى] (٤) لأظن أهلك يفعلونه . قال : اذهبى فانظرى .

---

(١) المسند (٣/ ٢١٩) وصحيح البخارى برقم (٣١٢٨ ، ٤٠٣٠ ، ٤١٢٠) وصحيح مسلم برقم (١٧٧١) .

(٢) فى أ : « ولله الحمد والمنة » .

(٣) زيادة من مسند الإمام أحمد والبخارى ومسلم .

(٤) زيادة من م ، أ ، والمسند .

فذهَبت فلم تر من حاجتها شيئا ، فجاءت فقالت : ما رأيتُ شيئاً . قال: لو كانت كذلك لم تُجَامعنا .

أخرجاه في الصحيحين ، من حديث سفيان الثوري (١) .

وقد ثبت في الصحيحين أيضاً عن أبي هُرَيرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » (٢) .

وقال النسائي : أخبرنا أحمد بن سعيد ، حدثنا يزيد ، حدثنا منصور بن حيان ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عُمَر وابن عباس : أنهما شهدا على رسول الله ﷺ : أنه نهى عن الدُّبَاء والحَنْتَم والنَّقير والمزفَّت ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ أي : اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجره ؛ فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه ، وارتكب ما عنه زجره ونهاه .

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠) ﴾ .

يقول تعالى مبيناً حال الفقراء المستحقين لمال الفيء أنهم ﴿ **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا** ﴾ أي : خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿**وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ أي : هؤلاء الذين صدَقوا قولهم بفعلهم ، وهؤلاء هم سادات المهاجرين .

ثم قال تعالى مادحاً للأنصار ، ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حَسَدهم ، وإيثارهم مع الحاجة ، فقال : ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ أي : سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم .

قال عمر : وأوصى الخليفة [من] (٤) بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم كرامتهم . وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تَبوّؤوا الدار والإيمان من قبل ، أن يقبل من محسنهم ،

---

(١) المسند (١/ ٤٣٣) وصحيح البخاري برقم (٤٨٨٧) وصحيح مسلم برقم (٢١٢٥) .

(٢) صحيح البخاري برقم (٧٢٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٣٣٧) .

(٣) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٧٨) .

(٤) زيادة من أ .

وأن يعفو [١] عن مسيئهم . رواه البخارى هاهنا أيضا [٢] .

وقوله : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ أى : مِنْ كَرَمهم وشرف أنفسهم ، يُحبّون المهاجرين [٣] ويواسونهم بأموالهم .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا حميد ، عن أنس قال : قال المهاجرون : يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً فى قليل ولا أحسن بذلاً فى كثير ، لقد كَفَونا المؤنة ، وأشركونا فى المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله ! قال : « لا ، ما أثنيتم عليهم ودَعَوتُمُ الله لهم » [٤] .

لم أره فى الكتب من هذا الوجه .

وقال البخارى : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا سفيان ، عن يحيى بن سعيد ، سمع أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال : دعا النبى ﷺ الأنصار أن يُقطع لهم البحرين ، قالوا : لا ، إلا أن تُقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها . قال : « إما لا ، فاصبروا حتى تلقونى ، فإنه سيصيبكم [بعدى] [٥] أثرة » .

تفرد به البخارى من هذا الوجه [٦] .

وقال البخارى : حدثنا الحكم بن نافع ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة قال : قالت الأنصار : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل . قال : لا . فقالوا : تكفونا المؤنَةَ ونَشركْكُم فى الثمرة ؟ قالوا : سمعنا وأطعنا . تفرد به دون مسلم [٧] .

﴿ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ أى : ولا يجدون فى أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف ، والتقديم فى الذكر والرتبة .

قال الحسن البصرى : ﴿ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ يعنى : الحسد .

﴿ مِّمَّا أُوتُوا ﴾ : قال قتادة : يعنى فيما أعطى إخوانهم . وكذا قال ابن زيد . ومما يستدل به على هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد حيث قال :

حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن الزهرى ، عن أنس قال : كنا جُلوساً مع رسول الله ﷺ، فقال : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » . فطلع رجل من الأنصار تَنطُف[٨] لحيته من وضوئه ، قد تَعلّق[٩] نعليه بيده الشمال ، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى . فلما كان فى اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ مثل مقالته [١٠] أيضاً ، فطلع

(١) فى م : « وأن يعفى » .
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٨٨) .
(٣) فى أ : « يحبون من هاجر إليهم » .
(٤) المسند (٣ / ٢٠٠) .
(٥) زيادة من صحيح البخارى .
(٦) صحيح البخارى برقم (٣٧٩٤) .
(٧) صحيح البخارى برقم (٢٣٢٥) .
(٨) فى م : « ينفض » .
(٩) فى م : « قد علق » .
(١٠) فى م : «مثل حاله » .

ذلك الرجل على مثل حاله الأولى [١] . فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال : إنى لاحيت أبى فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تؤوينى [٢] إليك حتى تمضى فعلتُ . قال : نعم . قال أنس : فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالى [٣] ، فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تَعارّ وتقلب على فراشه ، ذكر الله وكبر ، حتى يقوم لصلاة الفجر . قال عبد الله : غير أنى لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحتقر عمله ، قلت : يا عبد الله ، لم يكن بينى وبين أبى غَضَب ولا هَجْر [٤] ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرَار [٥] : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » . فطلعت أنت الثلاث المرار [٦] ، فأردت أن آوى إليك لأنظر ما عملكَ فأقتدى به ، فلم أرك تعمل كثير [٧] عمل ، فما الذى بلغ بك ما قال رسولُ الله ﷺ ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت . فلما وليت دعانى فقال : ما هو إلا ما رأيت ، غير أنى لا أجدُ فى نفسى لأحد من المسلمين غشّا ، ولا أحسُد أحداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : هذه التى بلغت بك ، وهى التى لا تُطاق [٨] .

ورواه النسائى فى اليوم والليلة ، عن سُوَيد بن نصر ، عن ابن المبارك ، عن معمر به[٩]. وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين،لكن رواه عقيل وغيره عن الزهرى ،عن رجل،عن أنس [١٠]. فالله أعلم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ يعنى: ﴿ مِّمَّا أُوتُوا ﴾ : المهاجرون . قال : وتكلم فى أموال بنى النضير بعض من تكلم من الأنصار ، فعاتبهم الله فى ذلك ، فقال : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، قال : وقال رسول الله : « إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم » . فقالوا : أموالنا بيننا قطائع . فقال رسول الله ﷺ : « أو غير ذلك ؟ » . قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « هم قوم لا يعرفون العمل ، فتكفونهم وتقاسمونهم [١١] الثمر » . فقالوا : نعم يا رسول الله [١٢] .

وقوله : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ [١٣] ﴾ يعنى : حاجة ، أى : يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ، ويبدؤون بالناس قبلهم فى حال احتياجهم إلى ذلك .

وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أفضلُ الصدقة جَهدُ المقلّ » . وهذا المقام

---

(١) فى م : « الأول » .
(٢) فى أ : « أن تورينى » .
(٣) فى م : « الليالى الثلاث » .
(٤) فى م ، أ : « ولا هجرة » .
(٥) فى م : « مرات » .
(٦) فى م : « المرات » .
(٧) فى م : « كبير » .
(٨) فى م : « لا نطيق » ، وفى أ : « لا تطيق » .
(٩) المسند (٣/١٦٦) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٦٩٩) .
(١٠) انظر : تحفة الأشراف للمزى (١/ ٣٩٥) وكلام الحافظ ابن حجر فى النكت الظراف بهامشه .
(١١) فى م : « ويقاسمونكم » .
(١٢) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٨/٢٨) .
(١٣) ذكر فى « م » بقية الآية .

أعلى من حال الذين وَصَف اللهُ بقوله : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ [١] ﴾ [الإنسان:٨] . وقوله : ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ [البقرة:١٧٧] .

فإن هؤلاء يتصدقون وهم يحبون ما تصدقوا به ، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به ، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه . ومن هذا المقام تصدق الصديق ، رضى الله عنه ، بجميع ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما أبقيت لأهلك ؟ » . فقال : أبقيت لهم الله ورسوله . وهذا [٢] الماء الذى عُرِض [٣] على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك ، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه ، وهو جريح مثقل أحوجَ ما يكون إلى الماء ، فرده الآخر إلى الثلث ، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم ، رضى الله عنهم وأرضاهم .

وقال البخارى : حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن كثير ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنا فُضيل بن غَزوان، حدثنا أبو حازم الأشجعى ، عن أبى هُرَيرة قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أصابنى الجهدُ ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال النبى ﷺ : « ألا رجل يُضَيِّفُ هذا الليلة ، رحمه الله ؟ » . فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله . فذهب إلى أهله فقال لامرأته : ضَيفُ رسول الله ﷺ لا تَدّخريه شيئاً . فقالت : والله ما عندى إلا قوتُ الصبية . قال : فإذا أراد الصبيةُ العَشَاء فنوّميهم وتعالى فأطفئى السراج ونَطوى بطوننا الليلة . ففعلَت ، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ ، فقال : « لقد عجب الله ، عز وجل ــ أو : ضحك ــ من فلان وفلانة » . وأنزل الله عز وجل : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [٤] .

وكذا رواه البخارى فى موضع آخر ، ومسلم والترمذى والنسائى من طرق ، عن فضيل بن غزوان ، به نحوه [٥] . وفى رواية لمسلم تسمية هذا الأنصارى بأبى طلحة ، رضى الله عنه .

وقوله: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى :من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح .

قال أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا داود بن قيس الفراء ، عن عُبَيد الله بن مِقْسَم ، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظلّم ، فإن الظُّلم ظلماتٌ يوم القيامة ، واتقوا الشُحَّ ، فإن الشّحَّ أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سَفكُوا دماءهم واستَحلُّوا محارمهم » .

انفرد بإخراجه مسلم ، فرواه عن القَعْنَبِىّ ، عن داود بن قيس ، به [٦] .

وقال الأعمش وشعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن عبد الله بن الحارث ، عن زهير بن الأقمر ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا الظُّلْم ؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الفُحْش ، فإن الله لا يحب الفحش ولا التَّفَحُّشَ ، وإياكم والشُّحَّ ؛ فإنه أهلكَ من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالفجور ففجروا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » .

---

(١) فى أ : « حبه مسكيناً » . (٢) فى م : « وهكذا » . (٣) فى م : « اعرضوه » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٨٩) .

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٧٩٨) وصحيح مسلم برقم (٢٠٥٤) وسنن الترمذى برقم (٣٣٠٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٨٢) .

(٦) المسند (٣/٣٢٣) وصحيح مسلم برقم (٢٥٧٨) .

ورواه أحمد وأبو داود من طريق شعبة ، والنسائى من طريق الأعمش ، كلاهما عن عمرو بن مُرّة ، به [١] .

وقال الليث ، عن يزيد [بن الهاد] [٢] ، عن سُهَيل بن أبى صالح ، عن صفوان بن أبى يزيد ، عن القعقاع بن اللجلاج [٣] ، عن أبى هريرة ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخانُ جهنم فى جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد أبداً » [٤].

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبدة بن سليمان ، أخبرنا ابن المبارك ، حدثنا المسعودى، عن جامع بن شداد ، عن الأسود بن هلال قال : جاء رجل إلى عبد الله فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إنى أخاف أن أكون قد هلكت ! فقال له عبد الله : وما ذاك ؟ قال : سمعت الله يقول : ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ ، وأنا رجل شحيح ، لا أكاد أن أخرج من يدى شيئاً ! فقال عبد الله : ليس ذلك [٥] بالشح الذى ذكر فى القرآن ، إنما الشح الذى ذكر الله فى القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً ، ولكن ذلك [٦] البخل ، وبئس الشىء البخل » [٧] .

وقال سفيان الثورى ، عن طارق بن عبد الرحمن ، عن سعيد بن جبير ، عن أبى الهياج الأسدى قال : كنت أطوف بالبيت ، فرأيت رجلاً يقول :« اللهم قنى شح نفسى » . لا يزيد على ذلك ، فقلت لـه ، فـقـال : إنى إذا وقيت شـح نفسى لم أسـرق ولـم أزن ولم أفـعل » ، وإذا الـرجـل عبد الرحمن بن عوف ، رضى الله عنه . ورواه ابن جرير [٨] .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن إسحاق ، حدثنا سلميان بن عبد الرحمن الدمشقى ، حدثنا إسماعيل بن عيّاش ، حدثنا مُجَمع بن جارية الأنصارى ، عن عمه يزيد بن جارية ، عن أنس بن مالك ، عن رسول الله ﷺ قال : « بَرِئَ من الشح مَن أدى الزكاة ، وقَرَى الضيف ، وأعطى فى النائبة » [٩] .

وقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ : هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفىء ، وهم المهاجرون ثم الأنصار ، ثم التابعون بإحسان ، كما قال فى آية براءة : ﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** ﴾ [التوبة : ١٠٠] . فالتابعون لهم بإحسان

---

(١) المسند (٢/ ١٥٩) وسنن أبى داود برقم (١٦٩٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٨٣) .
(٢) زيادة من م ، أ . (٣) فى م : « الجلاح » .
(٤) رواه النسائى فى السنن (٦/ ١٣) .
(٥) فى م : « ليس ذاك » . (٦) فى م : « ذاك » .
(٧) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٨/ ٢٩) من طريق جامع به .
(٨) تفسير الطبرى (٢٨/ ٢٩) .
(٩) تفسير الطبرى (٢٨/ ٢٩) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (١٠٨٤٢) من طريق محمد بن إسحاق به، وروى مرسلاً ، رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٤/ ١٨٨) من طريق عمرو بن يحيى وإبراهيم بن إسماعيل ، وابن حبان فى الثقات (٤/ ٢٠٢) من طريق ابن المبارك ، كلهم عن مجمع بن يحيى ، عن عمه مرسلاً .

هم : المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة ، الداعون لهم فى السر والعلانية ؛ ولهذا قال فى هذه الآية الكريم : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ ﴾ أى: قائلين: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً ﴾ أى: بغضاً وحسداً ﴿ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ . وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة : أن الرافضى الذى يسبّ الصحابة ليس له فى مال الفىء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء فى قولهم : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا موسى بن عبد الرحمن المسروقى ، حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر ،عن أبيه ، عن عائشة أنها قالت: أمروا أن يستغفروا لهم، فسبوهم ! ثم قرأت هذه الآية :﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾ الآية .

وقال إسماعيل بن عُلَيَة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن مسروق ، عن عائشة قالت : أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ ، فسببتموهم . سمعتُ نبيكم ﷺ يقول : « لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها » . ورواه البغوى (١) .

وقال أبو داود : حدثنا مُسَدَّد ، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا أيوب ، عن الزهرى قال : قال عمر ، رضى الله عنه : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ ﴾ قال الزهرى : قال عمر : هذه لرسول الله ﷺ خاصة ، قُرى [عربية : فَدَك وكذا] (٢) وكذا ، فما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وللفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ، ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ، فاستوعبت هذه الآية الناس ، فلم يبق أحد من المسلمين إلا له فيها حق ــ قال أيوب: أو قال: حظ ــ إلا بعض من تملكون من أرقائكم . كذا رواه أبو داود ، وفيه انقطاع (٣) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن مَعْمَر ، عن أيوب ، عن عكرمة ابن خالد ، عن مالك بن أوس بن الحَدَثان قال : قرأ عمر بن الخطاب : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ حتى بلغ ﴿ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٠] ، ثم قال هذه لهؤلاء ، ثم قرأ : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ [وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ] (٤) ﴾ [الأنفال: ٤١] ، ثم قال : هذه لهؤلاء ، ثم قرأ : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ حتى بلغ للفقراء ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ ﴾ ، ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ثم قال : استوعبت هذه الآية المسلمين عامة ،

---

(١) معالم التنزيل للبغوى (٨/ ٨٠) وله شاهد فى صحيح مسلم برقم (٣٠٢٢) عن عروة قال : قالت لى عائشة : « يا بن أختى ، أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبى ﷺ فسبوهم » .

(٢) زيادة من م ، أ ، وسنن أبى داود .

(٣) سنن أبى داود برقم (٢٩٦٦) .

(٤) زيادة من م .

وليس أحد إلا له فيها حق [١] ، ثم قال : لئن عشت ليأتين الراعى ـ وهو بسرو حمير ـ نصيبه فيها، لم يعرق فيها جبينه .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبى وأضرابه ، حين بعثوا إلى يهود بنى النضير يَعِدُونهم النصر من أنفسهم ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ ، قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى : لكاذبون فيما وعدوهم به إما أنهم [٢] قالوا لهم قولاً ومن نيتهم ألا يفوا لهم به ، وإما أنهم [٣] لا يقع منهم الذى قالوه ؛ ولهذا قال :﴿ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ أى : لا يقاتلون معهم ، ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ أى : قاتلوا معهم ﴿ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ ﴾ ، وهذه بشارة مستقلة بنفسها .

ثم قال تعالى : ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى : يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله ، كقوله : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء:٧٧] ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ [٤] ﴾ يعنى : أنهم من جُبنهم وهلَعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقابلة [٥] ، بل إما فى حصون أو من وراء جدر [٦] محاصرين ، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة .

---

(١) فى أ : « فيها جزء » .
(٢،٣) فى م : « إما لأنهم » .
(٤) فى م ، أ : « أو من وراء جدار » .
(٥) فى م : « والمقاتلة » .
(٦) فى م ، أ : « أو من وراء جدار » .

ثم قال : ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ أى : عداوتهم [فيما][1] بينهم شديدة ، كما قال : ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام:٦٥] ؛ ولهذا قال : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ أى : تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين ، وهم مختلفون غاية الاختلاف .

قال إبراهيم النخعى : يعنى : أهل الكتاب والمنافقين ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال مجاهد ، والسدى ، ومقاتل بن حيان : [يعنى][2] : كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر .

وقال ابن عباس : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعنى : يهود بنى قينقاع . وكذا قال قتادة ، ومحمد ابن إسحاق .

وهذا القول أشبه بالصواب ، فإن يهود بنى قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا .

وقوله : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ ﴾ يعنى : مثل هؤلاء اليهود فى اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين ، وقول المنافقين لهم : ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ ثم لما حقت الحقائق وجَدَّ بهم الحصار والقتال ، تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة ، مثالهم فى هذا كمثل الشيطان إذ [3]سول للإنسان ــ والعياذ بالله ــ الكفر ، فإذا دخل فيما سوله [4] تبرأ منه وتنصل ، وقال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وقد ذكر بعضهم هاهنا قصة لبعض عباد بنى إسرائيل هى كالمثال لهذا المثل ، لا أنها المرادة وحدها بالمثل ، بل هى منه مع غيرها من الوقائع المشاكله لها ، فقال ابن جرير :

حدثنا خَلاد بن أسلم ، أخبرنا النضر بن شُمَيْل ، أخبرنا شعبة ، عن أبى إسحاق ، سمعت عبد الله بن نَهيك قال : سمعت علياً ، رضى الله عنه ، يقول : إن راهباً تعبد ستين سنة ، وإن الشيطان أراده فأعياه ، فعمد إلى امرأة فأجنَّها ولها إخوة ، فقال لإخوتها: عليكم بهذا القس فيداويها. قال : فجاؤوا بها إليه فداواها ، وكانت عنده ، فبينما هو يوما عندها إذ أعجبته ، فأتاها فحملت ، فعمد إليها فقتلها ، فجاء إخوتها ، فقال الشيطان للراهب : أنا صاحبك ، إنك أعييتنى ، أنا صنعت هذا بك فأطعنى أنجك مما صنعت بك ، اسجد لى سجدة . فسجد له ، فلما سجد له قال: إنى برىء منك ، إنى أخاف الله رب العالمين ، فذلك قوله : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [5] .

وقال ابن جرير : حدثنى يحيى بن إبراهيم المسعودى ، حدثنا أبى ، عن أبيه ، عن جده ، عن الأعمش ، عن عمارة ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن عبد الله بن مسعود فى هذه الآية : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال : كانت

---

(١) زيادة من م ، أ .
(٢) زيادة من أ .
(٣) فى م : « إذا » .
(٤) فى م ، أ : « سوله له » .
(٥) تفسير الطبرى (٢٨/ ٣٣) .

امرأة ترعى الغنم ، وكان لها أربعة أخوة ، وكانت تأوى بالليل إلى صومعة راهب . قال : فنزل الراهب ففجَر بها ، فحملت ، فأتاه الشيطان فقال له : اقتلها ثم ادفنها ، فإنك رجل مُصدَّق يسمع قولك. فقتلها ثم دفنها. قال : فأتى الشيطانُ إخوتها فى المنام فقال لهم : إن الراهب صاحب الصومعة فجَر بأختكم ، فلما أحبلها قتلها ثم دفنها فى مكان كذا وكذا . فلما أصبحوا قال رجل منهم: والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدرى أقصها عليكم أم أترك ؟ قالوا : لا ، بل قصها علينا . قال: فقصها ، فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك ، فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك . فقالوا : فوالله ما هذا إلا لشىء . قال : فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب ، فأتوه فأنزلوه، ثم انطلقوا به فلقيه الشيطان فقال : إنى أنا الذى أوقعتك فى هذا ، ولن ينجيك منه غيرى، فاسجد لى سجدة واحدةً وأنجيك مما أوقعتك فيه . قال : فسجد له ، فلما أتوا به مَلكهم تَبَرأ منه ، وأُخِذَ فقتل [١] .

وكذا روى عن ابن عباس ، وطاوس ، ومقاتل بن حيان ، نحو ذلك .واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو برصيصا ، والله أعلم . وهذه القصة مخالفة لقصة جُرَيج العابد ، فإن جريجاً اتهمته امرأة بَغى بنفسها ، وادعت أن حَملها منه ، ورفعت أمره إلى ولى الأمر ، فأمر به فأنزل من صومعته وخُربت صومعته وهو يقول : ما لكم ؟ ما لكم ؟ فقالوا : يا عدو الله ، فعلت بهذه المرأة كذا وكذا . فقال جريج : اصبروا . ثم أخذ ابنها وهو صغير جداً ثم قال : يا غلام ، من أبوك؟ قال [٢] :أبى الراعى ـــ وكانت قد أمكنته من نفسها فحملت منه ـــ فلما رأى بنو إسرائيل ذلك عظموه كلهم تعظيماً بليغاً وقالوا: نعيد صومعتك من ذهب. قال: لا،بل أعيدوها من طين،كما كانت.

وقوله : ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ﴾ أى :فكانت عاقبة الآمر بالكفر والفاعل له، وتصيرهما [٣] إلى نار جهنم خالدين فيها ، ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : جزاء كل ظالم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عون بن أبى جُحَيْفة ، عن المنذر ابن جرير ، عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فى صدر النهار ، قال : فجاءه قوم حُفَاة عُراة مُجْتَابى النمار ـــ أو : العبَاء ـــ مُتَقَلِّدى السيوف عامتهم من مُضَر ، بل كلهم من مضر ، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة ، قال : فدخل ثم خرج ، فأمر بلالاً فأذن وأقام الصلاة ، فصلى ثم خطب ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ إلى آخر الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء:١] . وقرأ الآية التى فى الحشر : ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ ،

---

(١) تفسير الطبرى (٢٨/ ٣٣) .

(٢) فى م : « فقال » . (٣) فى م : « ومصيرهما » .

تَصَدَّق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بُرِّه ، من صاع تمره ـ حتى قال ـ : ولو بشق تمرة » . قال : فجاء رجل من الأنصار بصُرة كادت كفه تَعجز عنها ، بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب ، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه كأنه مُذْهبة ، فقال رسول الله ﷺ : « مَن سَنَّ فى الإسلام سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده ، من غير أن يَنقُص من أجورهم شىء ، ومن سَنَّ فى الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وِزْرُها ووزر من عمل بها ، من غير أن ينقص من أوزارهم شىء » .

انفرد بإخراجه مسلم من حديث شعبة ، بإسناد مثله (١) .

فقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ : أمر بتقواه ، وهى تشمل فعل ما به أمر ، وترك ما عنه زجر .

وقوله : ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أى : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ : تأكيد ثان ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أى : اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم (٢) ، لا تخفى عليه منكم خافية ، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير .

وقال (٣) : ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أى : لا تنسوا ذكر الله فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التى تنفعكم فى معادكم ، فإن الجزاء من جنس العمل ؛ ولهذا قال : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى : الخارجون عن طاعة الله ، الهالكون يوم القيامة ، الخاسرون يوم معادهم ، كما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون:٩] .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى :حدثنا أحمد بن عبد الوهاب بن نجدة الحوطى ،حدثنا [أبو] (٤) المغيرة ، حدثنا حَريز بن عثمان ، عن نعيم بن نَمحة قال : كان فى خطبة أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه : أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ؟ فمن استطاع أن يقضى الأجل وهو فى عمل الله ، عز وجل ، فليفعل ، ولن تنالوا ذلك إلا بالله ، عز وجل . إن قوماً جعلوا آجالهم لغيرهم ، فنهاكم الله أن تكونوا أمثالهم : ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدموا فى أيام سلفهم ، وخلوا بالشقوة والسعادة ، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تفنى عجائبه فاستضيؤوا منه ليوم ظلمة ، [واتضحوا بسنائه وبيانه] (٥) إن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾

(١) المسند (٣٥٨/٤) وصحيح مسلم برقم (١٠١٧) .

(٢) فى م : « وخفيها » .

(٣) فى م : « وقوله » .

(٤) زيادة من المعجم الكبير للطبرانى .

(٥) زيادة من م ، والمعجم الكبير .

[الأنبياء: ٩٠] ، لا خير فى قول لا يراد به وجه الله ، ولا خير فى مال لا ينفق فى سبيل الله ، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فيمن يخاف فى الله لومة لائم [1] .

هذا إسناد جيد ، ورجاله كلهم ثقات ، وشيخ حَرِيز بن عثمان ، وهو نعيم بن نمحة ، لا أعرفه بنفى ولا إثبات ، غير أن أبا داود السجستانى قد حكم بأن شيوخ حَرِيز كلهم ثقات . وقد روى لهذه الخطبة شواهد من وجوه أخر ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ** ﴾ أى [2] : لا يستوى هؤلاء وهؤلاء فى حكم الله يوم القيامة ، كما قال : ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ [الجاثية: ٢١] ، وقال : ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ** ﴾ الآية [غافر: ٥٨] . وقال : ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾ [ص: ٢٨] ؟ فى آيات أخر دالات على أن الله ، سبحانه ، يكرم الأبرار ، ويهين الفجار ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ **أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ أى : الناجون المسلمون من عذاب الله ، عز وجل .

﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَٰهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)** ﴾ .

يقول تعالى معظماً لأمر القرآن ، ومبيناً علو قدره ، وأنه ينبغى أن تخشع له القلوب ، وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد : ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** ﴾ أى : فإن كان الجبل فى غلظته وقساوته ،لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه ،لخشع وتصدع من خوف الله ، عز وجل ، فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع ، وتتصدع من خشية الله ، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ **وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ .

قال العوفى : عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ [لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا]** [3] ﴾ إلى آخرها ، يقول : لو أنى أنزلت هذا القرآن على جبل حَمَّلته إياه ، لتصدع [4] وخشع من ثقله ، ومن خشية الله . فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآنُ أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع . ثم

---

(١) المعجم الكبير (١/ ٦٠) .

(٢) بياض فى م .

(٣) زيادة من م .

(٤) فى م : « لصدع » .

قال : كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون . وكذا قال قتادة ، وابن جرير .

وقد ثبت فى الحديث المتواتر : أن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر ، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد ، فلما وضع المنبر أول ما وضع ، وجاء النبى ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر ، فعند ذلك حَنّ الجذع وجعل (١) يئن كما يئن الصبى الذى يُسكَّن (٢)، لما كان يُسمَع من الذكر والوحى عنده . ففى بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصرى بعد إيراده : «فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع » (٣) . وهكذا هذه الآية الكريمة، إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته ، لخشعت وتصدعت من خشيته (٤) ، فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم ؟ وقد قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى**﴾ الآية [الرعد:٣١] . وقد تقدم أن معنى ذلك : أى لكان هذا القرآن . وقال تعالى : ﴿ **وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** ﴾ [البقرة:٧٤] .

ثم قال تعالى : ﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾ : أخبر تعالى أنه الذى لا إله إلا هو فلا رب غيره ، ولا إله للوجود سواه ، وكل ما يعبد من دونه فباطل ، وأنه عالم الغيب (٥) والشهادة ، أى : يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا فلا يخفى عليه شىء فى الأرض ، ولا فى السماء من جليل وحقير وصغير وكبير ، حتى الذر فى الظلمات .

وقوله : ﴿ **هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾ : قد تقدم الكلام على ذلك فى أول التفسير ، بما أغنى عن إعادته هاهنا . والمراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات ، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، وقد قال تعالى : ﴿ **وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ** ﴾ [الأعراف:١٥٦] ، وقال : ﴿ **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** ﴾ [الأنعام:٥٤] ، وقال : ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ [يونس:٥٨] .

وقال (٦) : ﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ**﴾ أى: المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة .

وقوله : ﴿ **الْقُدُّوسُ** ﴾ : قال وهب بن منبه : أى الطاهر . وقال مجاهد ، وقتادة : أى المبارك: وقال ابن جريج : تقدسه الملائكة الكرام .

---

(١) حديث حنين الجذع رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٥٨٣) من حديث ابن عمر ، وبرقم (٣٥٨٤،٣٥٨٥) من حديث جابر ، رضى الله عنه .

(٢) فى م : « يسكت » .

(٣) رواه أبو القاسم البغوى كما فى البداية والنهاية للمؤلف (٦/ ١٣٢) من طريق شيبان بن فروخ ، عن مبارك بن فضالة ، عن الحسن ، عن أنس فى قصة الجذع ، ثم زاد : فكان الحسن إذا حدث بهذا الحديث بكى ثم قال : « يا عباد الله الخشبة تحن إلى رسول الله شوقاً إليه لمكانه من الله ، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه » .

(٤) فى م : « من خشية الله » . (٥) فى م : « بالغيب » . (٦) فى م : « ثم قال » .

﴿ السَّلامُ ﴾ أى : من جميع العيوب والنقائص ؛ بكماله (١) فى ذاته وصفاته وأفعاله .

وقوله : ﴿ الْمُؤْمِنُ ﴾ قال الضحاك ، عن ابن عباس: [أى] (٢) أمن خلقه من أن يظلمهم . وقال قتادة : أمَّن بقوله : إنه حق . وقال ابن زيد : صَدّق عبادَه المؤمنين فى إيمانهم به .

وقوله : ﴿ الْمُهَيْمِنُ ﴾ : قال ابن عباس وغير واحد : أى (٣) : الشاهد على خلقه بأعمالهم ، بمعنى : هو رقيب عليهم ، كقوله : ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج:٩] ، وقوله : ﴿ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس:٤٦] .

وقوله : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ الآية [الرعد:٣٣] .

وقوله : ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ أى : الذى قد عزّ كل شيء فقهره ، وغلب الأشياء فلا ينال جنابه ؛ لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه ؛ ولهذا قال : ﴿ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ أى : الذى لا تليق الجَبْرِيّة إلا له ، ولا التكبر إلا لعظمته ، كما تقدم فى الصحيح : « العَظَمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحداً منهما عَذَّبته » .

وقال قتادة : الجبار : الذى جَبَر خلقه على ما يشاء .

وقال ابن جرير : الجبار : المصلحُ أمورَ خلقه ، المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم .

وقال قتادة : المتكبر : يعنى عن كل سوء .

ثم قال : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤) ﴾ .

وقوله : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ : الخلق : التقدير ، والبَراء : هو الفرى ، وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود ، وليس كل من قدر شيئاً ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله ، عز وجل . قال الشاعر يمدح آخر (٥) :

ولأنت تَفرى ما خَلَقت وبعـ ـضُ القوم يَخلُق ثم لا يَفْرى

أى : أنت تنفذ ما خلقت ، أى : قدرت ، بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع ما يريد . فالخلق : التقدير . والفرى : التنفيذ . ومنه يقال : قدر الجلاد ثم فَرَى ، أى : قطع عل ما قدره بحسب ما يريده .

وقوله تعالى : ﴿ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ أى : الذى إذا أراد شيئاً قال له : كن ، فيكون على الصفة التى يريد ، والصورة التى يختار . كقوله : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الإنفطار:٨] ولهذا قال : ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ أى : الذى ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التى يريدها .

---

(١) فى م : « لكماله » . (٢) زيادة من م . (٣) فى م : « إنه » .

(٤) فى م : « يصفون » وهو خطأ .

(٥) هو زهير بن أبى سلمى يمدح به هرم بن سنان ، والبيت فى ديوانه (ص٩٤) أ . هـ مستفاداً من حاشية ط الشعب .

وقوله : ﴿ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ : قد تقدم الكلام على ذلك فى « سورة الأعراف » ، وذكر الحديث المروى فى الصحيحين عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » . وتقدم سياق الترمذى وابن ماجة له ، عن أبى هريرة أيضا ، وزاد بعد قوله : « وهو وتر يحب الوتر » ــ واللفظ للترمذى ــ : « هو الله الذى لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدئ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ،الظاهر ، الباطن، الولى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد ، الصبور » .

وسياق ابن ماجة بزيادة ونقصان ، وتقديم وتأخير ، وقد قدمنا ذلك مبسوطاً مطولاً بطرقه وألفاظه بما أغنى عن إعادته هنا [(١)] [(٢)] .

وقوله : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ كقوله : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : فلا يرام جَنَابه ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى شرعه وقدره . وقد قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، حدثنا خالد ــ يعنى : ابن طَهْمَان ، أبو العلاء الخَفَّاف ــ حدثنا نافع ابن أبى نافع ، عن مَعقِل بن يسار ، عن النبى ﷺ قال : « من قال حين يصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر ، وَكَّل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسى ، وإن مات فى ذلك اليوم مات شهيداً ، ومن قالها حين يمسى كان بتلك المنزلة » .

ورواه الترمذى عن محمود بن غَيْلان ، عن أبى أحمد الزبيرى ، به [(٣)]، وقال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

---

(١) فى م : « ها هنا » .

(٢) تقدم تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية : ١٨٠ من سورة الأعراف .

(٣) المسند (٥/٢٦) وسنن الترمذى برقم (٢٩٢٢) .

٥٩ — سورة الحشر

(مدنية وهى أربع وعشرون)

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ ٥٩ الحشر

بنفى الوجدان نفى الموادة على معنى أنه لاينبغى أن يتحقق ذلك وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال وإن جد فى طلبه كل أحد (ولو كانوا) أى من حاد الله ورسوله والجمع باعتبار معنى من كما أن الإفراد فيما قبله باعتبار لفظها (آباءهم) آباء الموادين (أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) فإن قضية الإيمان بالله تعالى أن يهجر الجميع بالمرة والكلام فى لوقد مر على التفصيل مراراً (أولئك) إشارة إلى الذين لايوادونهم وإن كانوا أقرب الناس إليهم وأمس رحماً وما فيه من معنى البعد لرفعة درجتهم فى الفضل وهو مبتدأ خبره (كتب فى قلوبهم الإيمان) أى أثبته فيها وفيه قطعاً ولا شىء من أعمال الجوارح يثبت فيه (وأيدهم) أى قواهم (بروح منه) أى من عند الله تعالى وهو نور القلب أو القرآن أو النصر على العدو وقيل الضمير للإيمان لحياة القلوب به فمن تجريدية وقوله تعالى (ويدخلهم) الخ بيان لآثار رحمته الأخروية إثر بيان ألطافه الدنيوية أى ويدخلهم فى الآخرة (جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) أبد الآبدين وقوله تعالى (رضى الله عنهم) استئناف جار مجرى التعليل لما أفاض عليهم من آثار رحمته العاجلة والآجلة وقوله تعالى (ورضوا عنه) بيان لابتهاجهم بما أوتوه عاجلا وآجلا وقوله تعالى (أولئك حزب الله) تشريف لهم ببيان اختصاصهم به عز وجل وقوله تعالى (ألا إن حزب الله هم المفلحون) بيان لاختصاصهم بالفوز بسعادة الدارين والفوز بسعادة النشأتين والكلام فى تحلية الجملة بفنون التأكيد كما مر فى مثلها . عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله يوم القيامة .

﴿سورة الحشر مدنية وآياتها أربع وعشرون﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (سبح لله مافى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم) مر مافيه من الكلام فى صدر سورة الحديد وقد كرر الموصول ههنا لزيادة التقرير والتنبيه على استقلال كل من الفريقين بالتسبيح روى أنه عليه الصلاة والسلام لما قدم المدينة صالح بنى النضير وهم رهط من اليهود من ذرية هرون عليه السلام نزلوا المدينة فى فتن بنى إسرائيل انتظاراً لبعثة النبى عليه الصلاة والسلام وعاهدهم أن لايكونوا له ولا عليه فلما ظهر عليه الصلاة والسلام يوم بدر قالوا هو النبى الذى

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ ٥٩ الحشر

نعته فى التوراة لاترد له راية فلما كان يوم أحد ماكان ارتابوا ونكثوا فخرج كعب بن الأشرف فى أربعين راكباً إلى مكة فحالفوا قريشاً إلى الكعبة على قتاله عليه الصلاة والسلام فأمر عليه الصلاة والسلام محمد بن مسلمة الأنصارى فقتل كعباً غيلة وكان أخاه من الرضاعة ثم صبحهم بالكتاب فقال لهم اخرجوا من المدينة فاستمهلوه عليه الصلاة والسلام عشرة أيام ليتجهزوا للخروج فدس عبد الله بن أبى المنافق وأصحابه إليهم لاتخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم ولئن خرجتم لنخرجن معكم فدربوا على الأزقة وحصنوها فحاصرهم النبى عليه الصلاة والسلام إحدى وعشرين ليلة فلما قذف الله فى قلوبهم الرعب وأيسوا من نصر المنافقين طلبوا الصلح فأبى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ماشاؤا من متاعهم فجلوا إلى الشام إلى أريحا وأذرعات إلا أهل بيتين منهم آل أبى الحقيق وآل حيى بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة منهم بالحيرة فأنزل الله تعالى سبح لله مافى السموات - إلى قوله - والله على كل شىء قدير وقوله تعالى (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم) بيان لبعض آثار عزته تعالى وأحكام حكمته إثر وصفه تعالى بالعزة القاهرة والحكمة الباهرة على الإطلاق والضمير راجع إليه تعالى بذلك العنوان إما بناء على كمال ظهور اتصافه تعالى بهما مع مساعدة تامة من المقام أو على جعله مستعاراً لاسم الإشارة كما فى قوله تعالى قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به أى بذلك وعليه قول رؤبة بن العجاج [كأنه فى الجلد توليع البهق] كما هو المشهور كأنه قيل ذلك المنعوت بالعزة والحكمة الذى أخرج الخ ففيه إشعار بأن فى الإخراج حكمة باهرة وقوله تعالى (لأول الحشر) أى فى أول حشرهم إلى الشام وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط وهم أول من أخرج من جزيرة العرب إلى الشام أو هـذا أول حشرهم وآخر حشرهم إجلاء عمر رضى الله عنه إياهم من خيبر إلى الشام وقيل آخر حشرهم حشر يوم القيامة لأن المحشر يكون بالشام (ماظننتم) أيها المسلمون (أن يخرجوا) من ديارهم بهذا الذل والهوان لشدة بأسهم وقوة منعتهم (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله) أى ظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم من بأس الله تعالى وتغيير النظم بتقديم الخبر وإسناد الجملة إلى ضميرهم للدلالة على كمال وثوقهم بحصانة حصونهم واعتقادهم فى أنفسهم أنهم فى عزة ومنعة لايبالى معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع فى معازتهم ويجوز أن يكون مانعتهم خبراً لأن وحصونهم مرتفعاً على الفاعلية (فأتاهم الله) أى أمر الله تعالى وقدره المقدور لهم (من حيث لم يحتسبوا) ولم يخطر ببالهم وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف فإنه

وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ٥٩ الحشر

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ ٥٩ الحشر

مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ٥٩ الحشر

مما أضعف قوتهم وفل شوكتهم وسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة وقيل الضمير فى أتاهم ولم يحتسبوا
* للمؤمنين أى فأتاهم نصر الله وقرىء فآتاهم أى فآتاهم الله العذاب أو النصر (وقذف فى قلوبهم الرعب)
* أى أثبت فيها الخوف الذى يرعبها أى يملؤها (يخربون بيوتهم بأيديهم) ليسدوا بما نقضوا منها من
الخشب والحجارة أفواه الأزقة ولئلا يبقى بعد جلائهم مساكن للمسلمين ولينقلوا معهم بعض آلاتها
* المرغوب فيها مما يقبل النقل (وأيدى المؤمنين) حيث كانوا يخربونها إزالة لمتحصنهم ومتمنعهم وتوسعاً
لمجال القتال ونكاية لهم وإسناد هذا إليهم لما أنهم السبب فيه فكأنهم كلفوهم إياه وأمروهم به قيل
الجملة حال أو تفسير للرعب وقرىء يخربون بالتشديد للتكثير وقيل الإخراب التعطيل أو ترك الشىء
* خراباً والتخريب النقض والهدم (فاعتبروا ياأولى الأبصار) فاتعظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلة
على وجه لا يكاد يهتدى إليه الأفكار واتقوا مباشرة ما أداهم إليه من الكفر والمعاصى أو انتقلوا
من حال الفريقين إلى حال أنفسكم فلا تعولوا على تعاضد الأسباب بل توكلوا على الله عز وجل وقد
٣ استدل به على حجية القياس كما فصل فى موقعه (ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء) أى الخروج عن
* أوطانهم على ذلك الوجه الفظيع (لعذبهم فى الدنيا) بالقتل والسبى كما فعل ببنى قريظة (ولهم فى الآخرة
عذاب النار) استئناف غير متعلق بجواب لولا جىء به لبيان أنهم إن نجوا من عذاب الدنيا بكتابة
٤ الجلاء لا نجاة لهم من عذاب الآخرة (ذلك) أى ما حاق بهم وما سيحيق (بأنهم) بسبب أنهم (شاقوا
* الله ورسوله) وفعلوا ما فعلوا مما حكى عنهم من القبائح (ومن يشاق الله) وقرىء يشاقق الله كما فى
الأنفال والاقتصار على ذكر مشاقته تعالى لتضمنها لمشاقته عليه الصلاة والسلام وليوافق قوله تعالى
* (فإن الله شديد العقاب) وهو إما نفس الجزاء قد حذف منه العائد إلى من عند من يلتزمه أى شديد
العقاب له أو تعليل للجزاء المحذوف أى يعاقبه الله فإن الله شديد العقاب وأياً ما كان فالشرطية تكملة
لما قبلها وتقرير لمضمونه وتحقيق للسببية بالطريق البرهانى كأنه قيل ذلك الذى حاق بهم من العقاب
العاجل والآجل بسبب مشاقتهم لله تعالى ورسوله وكل من يشاق الله كائناً من كان فله بسبب ذلك عقاب
٥ شديد فإذن لهم عقاب شديد (ما قطعتم من لينة) أى أى شىء قطعتم من نخلة وهى فعلة من اللون وياؤها
مقلوبة من واو لكسرة ما قبلها كديمة وتجمع على ألوان وقيل من اللين وتجمع على لين وهى النخلة
* الكريمة (أو تركتموها) الضمير لما وتأنيثه لتفسيره باللينة كما فى قوله تعالى ما يفتح الله للناس من
* رحمة فلا ممسك لها (قائمة على أصولها) كما كانت من غير أن تتعرضوا لها بشىء ما وقرىء على أصلها

وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ٥٩ الحشر

مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ٥٩ الحشر

إما على الاكتفاء من الواو بالضم أو على أنه جمع كرهن وقرىء قائماً على أصوله ذهاباً إلى لفظ ما
* (فبإذن الله) فذاك أى قطعها وتركها بأمر الله تعالى (وليخزى الفاسقين) أى وليذل اليهود ويغيظهم
إذن فى قطعها وتركها لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون فى أموالهم كيف أحبوا ويتصرفون فيها حسبما
شاؤا من القطع والترك يزدادون غيظاً ويتضاعفون حسرة واستدل به على جواز هدم ديار الكفرة
وقطع أشجارهم وإحراق زروعهم زيادة لغيظهم وتخصيص اللينة بالقطع إن كانت من الألوان لاستبقاء
٦ العجوة والبرنية اللتين هما كرام النخيل وإن كانت هى الكرام ليكون غيظهم أشد وقوله تعالى (وما
أفاء الله على رسوله) شروع فى بيان حال ما أخذ من أموالهم بعد بيان ما حل بأنفسهم من العذاب
العاجل والآجل وما فعل بديارهم ونخيلهم من التخريب والقطع أى ما أعاده إليه من مالهم وفيه إشعار
بأنه كان حقيقاً بأن يكون له عليه الصلاة والسلام وإنما وقع فى أيديهم بغير حق فرجعه الله تعالى
إلى مستحقه لأنه تعالى خلق الناس لعبادته وخلق ما خلق ليتوسلوا به إلى طاعته فهو جدير بأن يكون
* للمطيعين (منهم) أى من بنى النضير (فما أوجفتم عليه) أى فما أجريتم على تحصيله وتغنمه من الوجيف
* وهو سرعة السير (من خيل ولا ركاب) هى ما يركب من الإبل خاصة كما أن الراكب عندهم راكبها
لا غير وأما راكب الفرس فإنما يسمونه فارساً ولا واحد لها من لفظها وإنما الواحدة منها راحلة والمعنى
ما قطعتم لها شقة بعيدة ولا لقيتم مشقة شديدة ولا قتالا شديداً وذلك لأنه كانت قراهم على ميلين من
المدينة فمشوا إليها مشياً وما كان فيهم راكب إلا النبى عليه الصلاة والسلام فافتتحها صلحاً من غير أن
* يجرى بينهم مسابقة كأنه قيل وما أفاء الله على رسوله منهم فما حصلتموه بكد اليمين وعرق الجبين (ولكن
الله يسلط رسله على من يشاء) أى سنته تعالى جارية على أن يسلطهم على من يشاء من أعدائهم تسليطاً
خاصاً وقد سلط النبى عليه الصلاة والسلام على هؤلاء تسليطاً غير معتاد من غير أن تقتحموا مضايق
* الخطوب وتقاسوا شدائد الحروب فلا حق لكم فى أموالهم (والله على كل شىء قدير) فيفعل ما يشاء
٧ كما يشاء تارة على الوجوه المعهودة وأخرى على غيرها وقوله تعالى (ما أفاء الله على رسوله من أهل
القرى) بيان لمصارف الفىء بعد بيان إفاءته عليه عليه الصلاة والسلام من غير أن يكون للمقاتلة فيه
حق وإعادة عين العبارة الأولى لزيادة التقرير ووضع أهل القرى موضع ضميرهم للإشعار بشمول

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) ٥٩ الحشر

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) ٥٩ الحشر

---

* مالعقاراتهم أيضاً (فلله وللرسوله ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) اختلف فى قسمة الفىء فقيل يسدس لظاهر الآية ويصرف سهم الله إلى الكعبة وسائر المساجد وقيل يخمس لأن ذكر الله للتعظيم ويصرف الآن سهم الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الإمام على قول وإلى العساكر والثغور على قول وإلى مصالح المسلمين على قول وقيل يخمس خمسة كالغنيمة فإنه عليه الصلاة والسلام
* كان يقسم الخمس كذلك ويصرف الأخماس الأربعة كايشاء والآن على الخلاف المذكور (كيلا يكون)
* أى الفىء الذى حقه أن يكون للفقراء يعيشون به (دولة) بضم الدال وقرىء بفتحها وهى مايدول للإنسان أى يدور من الغنى والجد والغلبة وقيل الدولة بالفتح من الملك بكسرها أو بالضم فى المال
* وبالفتح فى النصرة أى كيلا يكون جداً (بين الأغنياء منكم) يتكاثرون به أو كيلا يكون دولة جاهلية بينكم فإن الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة ويقولون من عز بز وقيل الدولة بالضم مايتداول كالغرفة اسم مايغترف فالمعنى كيلايكون الفىء شيئاً يتداوله الأغنياء بينهم ويتعاورونه فلا يصيب الفقراء والداولة بالفتح بمعنى التداول فالمعنى كيلا يكون ذاتداول بينهم أو كيلا يكون إمساكه تداولا بينهم لايخرجونه إلى الفقراء وقرىء دولة بالرفع على أن كان تامة أى كيلايقع دولة على مافصل من المعانى
* (وما آتاكم الرسول) أى ما أعطاكموه من الفىء أو من الأمر (فخذوه) فإنه حقكم أو فتمسكوا به
* فإنه واجب عليكم (وما نهاكم عنه) عن أخذه أو عن تعاطيه (فانتهوا) عنه (واتقوا الله) فى مخالفته
٨ عليه الصلاة والسلام (إن الله شديد العقاب) فيعاقب من يخالف أمره ونهيه (للفقراء المهاجرين) بدل من لذى القربى وما عطف عليه فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لايسمى فقيراً ومن أعطى أغنياء
* ذوى القربى خص الإبدال بما بعده وأما تخصيص اعتبار الفقر بفىء بنى النضير فتعسف ظاهر (الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم) حيث اضطرهم كفار مكة وأحوجوهم إلى الخروج وكانوا مائة رجل
* فخرجوا منها (يبتغون فضلا من الله ورضوانا) أى طالبين منه تعالى رزقا فى الدنيا ومرضاة فى الآخرة وصفوا أولا بما يدل على استحقاقهم للفىء من الإخراج من الديار والأموال وقيد ذلك ثانياً بما
* يوجب تفخيم شأنهم ويؤكده (وينصرون الله ورسوله) عطف على يبتغون فهى حال مقدرة أى ناوين لنصرة الله تعالى ورسوله أو مقارنة فإن خروجهم من بين الكفار مراغمين لهم مهاجرين إلى المدينة
* نصرة وأى نصرة (أولئك) الموصوفون بما فصل من الصفات الحميدة (هم الصادقون) الراسخون
٩ فى الصدق حيث ظهر ذلك بما فعلوا ظهوراً بينا (والذين تبوأوا الدار والإيمان) كلام مستأنف مسوق

وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ ٥٩ الحشر

لمدح الأنصار بخصال حميدة من جملتها محبتهم للمهاجرين ورضاهم باختصاص الفيء بهم أحسن رضا وأكمله ومعنى تبوئهم الدار أنهم اتخذوا المدينة والإيمان مباءة وتمكنوا فيهما أشد تمكن على تنزيل الحال منزلة المكان وقيل ضمن التبوؤ معنى اللزوم وقيل تبوؤا الدار وأخلصوا الإيمان كقول من قال [علفتها تبناً وماء بارداً] وقيل المعنى تبوؤا دار الهجرة ودار الإيمان لحذف المضاف إليه من الأول وعوض منه اللام وقيل سمى المدينة بالإيمان لكونها مظهره ومنشأه (من قبلهم) أى من قبل هجرة المهاجرين * على المعانى الأول ومن قبل تبوؤ المهاجرين على الأخيرين ويجوز أن يجعل اتخاذ الإيمان مباءة ولزومه وإخلاصه على المعانى الأول عبارة عن إقامة كافة حقوقه التى من جملتها إظهار عامة شعائره وأحكامه ولا ريب فى تقدم الأنصار فى ذلك على المهاجرين لظهور عجزهم عن إظهار بعضها لا عن إخلاصه قلباً واعتقاداً إذ لا يتصور تقدمهم عليهم فى ذلك (يحبون من هاجر إليهم) خبر للموصول أى يحبونهم من * حيث مهاجرتهم إليهم لمحبتهم الإيمان (ولا يجدون فى صدورهم) أى فى نفوسهم (حاجة) أى شيئاً * محتاجا إليه يقال خذ منه حاجتك أى ماتحتاج إليه وقيل إثر حاجة كالطلب والحرازة والحسد والغيظ (مما أوتوا) أى مما أوتى المهاجرون من الفىء وغيره (ويؤثرون) أى يقدمون المهاجرين (على أنفسهم) * فى كل شىء من أسباب المعاش حتى أن من كان عنده امرأتان كان ينزل عن إحداهما ويزوجها واحداً منهم (ولو كان بهم خصاصة) أى حاجة وخلة وأصلها خصاص البيت وهى فرجه والجملة فى حيز الحال وقد * عرفت وجهه مراراً وكان النبى عليه الصلاة والسلام قسم أموال بنى النضير على المهاجرين ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة نفر محتاجين أبا دجانة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف والحرث بن الصمة وقال لهم إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم فى هذه الغنيمة وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شىء من الغنيمة فقالت الأنصار بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها فنزلت وهذا صريح فى أن قوله تعالى والذين تبوؤا الخ مستأنف غير معطوف على الفقراء أو المهاجرين نعم يجوز عطفه على أولئك فإن ذلك إنما يستدعى شركة الأنصار للمهاجرين فى الصدق دون الفىء فيكون قوله تعالى يحبون وما عطف عليه استئنافاً مقرراً لصدقهم أو حالا من ضمير تبوؤا (ومن يوق شح نفسه) الشح بالضم والكسر وقد قرىء به أيضاً اللؤم وإضافته إلى النفس * لأنه غريزة فيها مقتضية للحرص على المنع الذى هو البخل أى ومن يوق بتوفيق الله تعالى شحها حتى يخالفها فيما يغلب عليها من حب المال وبغض الإنفاق (فأولئك) إشارة إلى من باعتبار معناها العام * المنتظم للمذكورين انتظاماً أولياً (هم المفلحون) الفائزون بكل مطلوب الناجون عن كل مكروه والجملة * اعتراض وارد لمدح الأنصار والثناء عليهم وقرىء يوق بالتشديد (والذين جاؤا من بعدهم) هم الذين ١٠

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) ٥٩ الحشر

لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) ٥٩ الحشر

هاجروا بعد ماقوى الإسلام أو التابعون بإحسان وهم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة ولذلك قيل إن الآية قد استوعبت جميع المؤمنين وأياً ماكان فالموصول مبتدأ خبره (يقولون) الخ والجملة مسوقة لمدحهم بمحبتهم لمن تقدمهم من المؤمنين ومراعاتهم لحقوق الأخوة فى الدين والسبق بالإيمان كما أن ماعطفت عليه من الجملة السابقة لمدح الأنصار أى يدعون لهم (ربنا اغفر لنا ولإخواننا) أى فى الدين الذى هو أعز وأشرف عندهم من النسب (الذين سبقونا بالإيمان) وصفوهم بذلك اعترافاً بفضلهم (ولا تجعل فى قلوبنا غلا) وقرىء غمراً وهما الحقد (للذين آمنوا) على الإطلاق (ربنا إنك

١١ رؤف رحيم) أى مبالغ فى الرأفة والرحمة فحقيق بأن تجيب دعاءنا (ألم تر إلى الذين نافقوا) حكاية لما جرى بين الكفرة والمنافقين من الأقوال الكاذبة والأحوال الفاسدة وتعجيب منها بعد حكاية محاسن أحوال المؤمنين وأقوالهم على اختلاف طبقاتهم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب وقوله تعالى (يقولون) الخ استئناف لبيان المتعجب منه وصيغة المضارع للدلالة على استمرار قولهم أو لاستحضار صورته واللام فى قوله تعالى (لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب) للتبليغ والمراد بأخوتهم إما توافقهم فى الكفر أو صداقتهم وموالاتهم واللام فى قوله تعالى (لئن أخرجتم) أى من دياركم قسراً موطئة للقسم وقوله تعالى (لنخرجن معكم) جواب القسم أى والله لئن أخرجتم لنخرجن معكم البتة ونذهبن فى صحبتكم أينماذهبتم (ولا نطيع فيكم) أى فى شأنكم (أحداً) يمنعنا من الخروج معكم (أبداً) وإن طال الزمان وقيل لانطيع فى قتالكم أو خذلانكم وليس بذاك لأن تقدير القتال مترقب بعد ولأن وعدهم لهم على ذلك التقدير ليس بمجرد عدم طاعتهم لمن يدعوهم إلى قتالهم بل نصرتهم عليه كما ينطق به قوله تعالى (وإن قوتلتم لننصرنكم) أى لنعاوننكم على عدوكم على أن دعوتهم إلى خذلان اليهود مما لا يمكن صدوره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين حتى يدعوا عدم طاعتهم فيها ضرورة أنها لوكانت لكانت عند استعدادهم لنصرتهم وإظهار كفرهم ولا ريب فى أن مايفعله عليه الصلاة والسلام عند ذلك قتلهم لا دعوتهم إلى ترك نصرتهم وأما الخروج معهم فليس بهذه المرتبة من إظهار الكفر لجواز أن يدعوا أن خروجهم معهم لما بينهم من الصداقة الدنيوية لا للموافقة فى الدين (والله يشهد إنهم لكاذبون) فى مواعيدهم

١٢ المؤكدة بالأيمان الفاجرة وقوله تعالى (لئن أخرجوا لايخرجون معهم) الخ تكذيب لهم فى كل واحد

لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾   ٥٩ الحشر

لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾   ٥٩ الحشر

كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾   ٥٩ الحشر

من أقوالهم على التفصيل بعد تكذيبهم فى الكل على الإجمال (ولئن قوتلوا لاينصرونهم) وكان الأمر * كذلك فإن ابن أبى وأصحابه أرسلوا إلى بنى النضير ذلك سراً ثم أخلفوهم وفيه حجة بينة لصحة النبوة وإعجاز القرآن (ولئن نصروهم) على الفرض والتقدير (ليولن الأدبار) فراراً (ثم لاينصرون) أى * المنافقون بعد ذلك أى يهلكهم الله ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم أو ليهزمن اليهود ثم لاينفعهم نصرة المنافقين (لأنتم أشد رهبة) أى أشد مرهوبية على أنها مصدر من المبنى للمفعول (فى صدورهم من الله) ١٣ أى رهبتهم منكم فى السر أشد مما يظهرونه لكم من رهبة الله فإنهم كانوا يدعون عندهم رهبة عظيمة من الله تعالى (ذلك) أى ماذكر من كون رهبتهم منكم أشد من رهبة الله (بأنهم) بسبب أنهم (قوم لايفقهون) * أى شيئاً حتى يعلموا عظمة الله تعالى فيخشوه حق خشيته (لايقاتلونكم) أى اليهود والمنافقون بمعنى ١٤ لايقدرون على قتالكم (جميعاً) أى مجتمعين متفقين فى موطن من المواطن (إلا فى قرى محصنة) بالدروب * والخنادق (أو من وراء جدر) دون أن يصحروا لكم ويبارزوكم لفرط رهبتهم وقرىء جدر بالتخفيف * وقرىء جدار وبإمالة فتحة الدال وجدر وجدر وهما الجدار (بأسهم بينهم شديد) استئناف سيق لبيان * أن ماذكر من رهبتهم ليس لضعفهم وجبنهم فى أنفسهم فإن بأسهم بالنسبة إلى أقرانهم شديد وإنما ضعفهم وجبنهم بالنسبة إليكم بما قذف الله تعالى فى قلوبهم من الرعب (تحسبهم جميعاً) مجتمعين متفقين (وقلوبهم * شتى) متفرقة لا ألفة بينها (ذلك بأنهم) أى ما ذكر من تشتت قلوبهم بسبب أنهم (قوم لايعقلون) أى * لايعقلون شيئاً حتى يعرفوا الحق ويتبعوه وتطمئن به قلوبهم وتتحد كلمتهم ويرموا عن قوس واحدة فيقعون فى تيه الضلال وتتشتت قلوبهم حسب تشتت طرقه وتفرق فنونه وأما ماقيل من أن المعنى لايعقلون أن تشتت القلوب مما يوهن قواهم فبمعزل من السداد وقوله تعالى (كمثل الذين من قبلهم) خبر ١٥ مبتدأ محذوف تقديره مثلهم أى مثل المذكورين من اليهود والمنافقين كمثل أهل بدر أو بنى قينقاع على ماقيل إنهم أخرجوا قبل بنى النضير (قريباً) فى زمان قريب وانتصابه بمثل إذ التقدير كوقوع * مثل الخ (ذاقوا وبال أمرهم) أى سوء عاقبة كفرهم فى الدنيا (ولهم) فى الآخرة (عذاب أليم) * لايقادر قدره والمعنى أن حال هؤلاء كحال أولئك فى الدنيا والآخرة لكن لا على أن حال كلهم كحالهم بل حال بعضهم الذين هم اليهود كذلك وأما حال المنافقين فهى مانطق به .

كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ٥٩ الحشر

فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ٥٩ الحشر

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ٥٩ الحشر

وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ٥٩ الحشر

---

١٦ قوله تعالى (كمثل الشيطان) فإنه خبر ثان للمبتدأ المقدر مبين لحالهم متضمن لحال أخرى لليهود وهى اغترارهم بمقابلة المنافقين أولا وخيبتهم آخراً وقد أجمل فى النظم الكريم حيث أسند كل من الخبرين إلى المقدر المضاف إلى ضمير الفريقين من غير تعيين ماأسند إليه بخصوصه ثقة بأن السامع يرد كلامن المثلين إلى مايماثله كأنه قيل مثل اليهود فى حلول العذاب بهم كمثل الذين من قبلهم الخ ومثل المنافقين فى إغرائهم إياهم على القتال حسبما نقل عنهم كمثل الشيطان (إذ قال للإنسان اكفر) أى أغراه على الكفر إغراء الآمر المأمور على المأمور به (فلما كفر قال إنى برىء منك) وقرىء أنا برىء منك إن أريد بالإنسان الجنس فهذا التبرؤ من الشيطان يكون يوم القيامة كما ينبىء عنه قوله تعالى (إنى أخاف الله رب العالمين) وإن أريد به أبو جهل فقوله تعالى اكفر عبارة عن قول إبليس يوم بدر لاغالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم وتبرؤه قوله يومئذ إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله الآية

١٧ (فكان عاقبتهما) بالنصب على أنه خبر كان واسمها (أنهما فى النار) وقرىء بالعكس وقد مر أنه أوضح (خالدين فيها) وقرىء خالدان فيها على أنه خبر أن وفى النار لغو (وذلك جزاء الظالمين) أى الخلود فى النار جزاء الظالمين على الإطلاق دون هؤلاء خاصة

١٨ (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله) أى فى كل ماتأتون وما تذرون (ولتنظر نفس ماقدمت لغد) أى أى شىء قدمت من الأعمال ليوم القيامة عبر عنه بذلك لدنوه أو لأن الدنيا كيوم والآخرة غده وتنكيره لتفخيمه وتهويله كأنه قيل لغد لايعرف كنهه لغاية عظمه وأما تنكير نفس فلاستقلال الأنفس النواظر فيما قدمن لذلك اليوم الهائل كأنه قيل ولتنظر نفس واحدة ذلك (واتقوا الله) تكرير للتأكيد أو الأول فى أداء الواجبات كما يشعر به مابعده من الأمر بالعمل وهذا ترك المحارم كما يؤذن به الوعيد بقوله تعالى (إن الله خبير بما تعملون) أى من المعاصى

١٩ (ولا تكونوا كالذين نسوا الله) أى نسوا حقوقه تعالى وما قدروه حق قدره ولم يراعوا مواجب أوامره ونواهيه حق رعايتها (فأنساهم) بسبب ذلك (أنفسهم) أى جعلهم ناسين لها حتى لم يسمعوا ماينفعها ولم يفعلوا مايخلصها أو أراهم يوم القيامة من الأهوال ما أنساهم أنفسهم (أولئك

لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ٥٩ الحشر

لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ٥٩ الحشر

هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ ٥٩ الحشر

هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ٥٩ الحشر

---

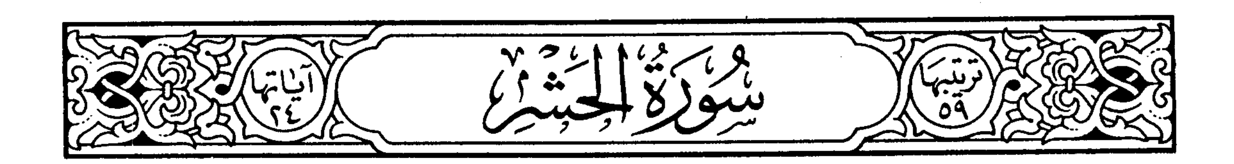
٢٠ هم الفاسقون) الكاملون فى الفسوق (لايستوى أصحاب النار) الذين نسوا الله تعالى فاستحقوا الخلود فى النار (وأصحاب الجنة) الذين اتقوا الله فاستحقوا الخلود فى الجنة ولعل تقديم أصحاب النار فى الذكر للإيذان من أول الأمر بأن المقصور الذى ينبىء عنه عدم الاستواء من جهتهم لا من جهة مقابليهم فإن مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصانا وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد لكن المتبادر اعتباره بحسب نقصان الناقص وعليه قوله تعالى هل يستوى الأعمى والبصير أم هل يستوى الظلمات والنور إلى غير ذلك من المواقع وأما قوله تعالى هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون فلعل تقديم الفاضل فيه لأن صلته ملكة لصلة المفضول والأعدام مسبوقة بملكاتها ولا دلالة فى الآية الكريمة على أن المسلم لا يقتص بالكافر وأن الكفار لايملكون أموال المسلمين بالقهر لأن المراد عدم الاستواء فى الأحوال الأخروية كما ينبىء عنه التعبير عن الفريقين بصاحبية النار وصاحبية الجنة وكذا قوله تعالى (أصحاب الجنة هم الفائزون) فإنه استئناف مبين لكيفية عدم الاستواء بين الفريقين أى هم الفائزون بكل مطلوب الناجون عن كل مكروه (لو أنزلنا هذا القرآن) العظيم الشأن المنطوى على ٢١ فنون القوارع (على جبل) من الجبال (لرأيته) مع كونه علماً فى القسوة وعدم التأثر مما يصادمه (خاشعاً متصدعا من خشية الله) أى متشققاً منها وقرىء مصدعا بالإدغام وهذا تمثيل وتخييل لعلو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ كما ينطق به قوله تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) أريد به توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وعدم تخشعه عند تلاوته وقلة تدبره فيه (هو الله الذى لا إله ٢٢ إلا هو) وحده (عالم الغيب والشهادة) أى ما غاب عن الحس من الجواهر القدسية وأحوالها وما حضر له من الأجرام وأعراضها وتقديم الغيب على الشهادة لتقدمه فى الوجود وتعلق العلم القديم به أو المعدوم والموجود أو السر والعلانية (هو الرحمن الرحيم) (هو الله الذى لا إله إلا هو) كرر لإبراز ٢٣ الاعتناء بأمر التوحيد (الملك القدوس) البليغ فى النزاهة عما يوجب نقصاناً وقرىء بالفتح وهى

هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

٥٩ الحشر

* لغة فيه (السلام) ذو السلامة من كل نقص وآفة مصدر وصف به للمبالغة (المؤمن) واهب الأمن
* وقرىء بالفتح بمعنى المؤمن به على حذف الجار (المهيمن) الرقيب الحافظ لكل شىء مفيعل من الأمن
* بقلب همزته هاء (العزيز) الغالب (الجبار) الذى جبر خلقه على ما أراد أو جبر أحوالهم أى أصلحها
* (المتكبر) الذى تكبر عن كل مايوجب حاجة أو نقصاناً أو البليغ الكبرياء والعظمة (سبحان الله عما يشركون) تنزيه له تعالى عما يشركونه به تعالى أو عن إشراكهم به تعالى إثر تعداد صفاته التى لا يمكن

٢٤ أن يشاركه تعالى فى شىء منها شىء ما أصلا (هو الله الخالق) المقدر للأشياء على مقتضى حكمته (البارىء)
* الموجد لها بريئاً من التفاوت وقيل المميز بعضها من بعض بالأشكال المختلفه (المصور) الموجد
* لصورها وكيفيتها كما أراد (له الأسماء الحسنى) لدلالتها على المعانى الحسنة (يسبح له مافى السموات
* والأرض) ينطق بتنزهه تعالى عن جميع النقائص تنزهاً ظاهراً (وهو العزيز الحكيم) الجامع للكمالات كافة فإنها مع تكثرها وتشعبها راجعة إلى الكمال فى القدرة والعلم . عن النبي عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الحشر غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .



قال البقاعي: وتسمى سورة ـ بني النضير ـ وأخرج البخاري وغيره عن ابن جبير قال: قلت لابن عباس سورة الحشر، قال: قل: سورة بني النضير، قال ابن حجر: كأنه كره تسميتها بالحشر لئلا يظن أن المراد به يوم القيامة وإنما المراد ها هنا إخراج بني النضير.

وهي مدنية، وآيها أربع وعشرون بلا خلاف، ومناسبتها لما قبلها أن في آخر تلك ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ [المجادلة: ٢١] وفي أول هذه ﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب ﴾ [الحشر: ٢] وفي آخر تلك ذكر من حادّ الله ورسوله، وفي أول هذه ذكر من شاقّ الله ورسوله، وأن في الأولى ذكر حال المنافقين واليهود وتولي بعضهم بعضاً، وفي هذه ذكر ما حل باليهود وعدم إغناء تولي المنافقين إياهم شيئاً، فقد روي أن بني النضير كانوا قد صالحوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على أن لا يكونوا عليه ولا له فلما ظهر يوم بدر قالوا: هو النبي الذي نعت في التوراة لا تردّ له راية فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة فخالفوا عليه قريشاً عند الكعبة فأخبر جبريل عليه السلام الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك فأمر بقتل كعب فقتله محمد بن سلمة غيلة وهو عروس بعد أن أخذ بفود رأسه أخوه رضاعاً أو نائلة سلكان بن سلامة أحد بني عبد الأشهل، وكان عليه الصلاة والسلام قد اطلع منهم على خيانة حين أتاهم يستعينهم في دية المسلميْن من بني عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري عند منصرفه من بئر معونة فهموا بطرح الحجر عليه صلى الله تعالى عليه وسلم فعصمه الله تعالى، وبعد أن قتل كعب بأشهر على الصحيح لا على الأثر كما قيل: أمر صلى الله تعالى عليه وسلم بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم وكان ذلك سنة أربع في شهر ربيع الأول وكانوا بقرية يقال لها: الزهرة فسار المسلمون معه عليه الصلاة والسلام وهو على حمار مخطوم بليف.

وقيل: على جمل واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم حتى إذا نزل صلى الله تعالى عليه وسلم بهم وجدهم ينوحون على كعب، وقالوا: ذرنا نبكي شجوناً ثم ائتمر أمرك فقال: اخرجوا من المدينة فقالوا: الموت أقرب لنا من ذلك فتنادوا بالحرب، وقيل: استمهلوه عليه الصلاة والسلام عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ودس المنافقون عبد الله بن أبيّ وأضرابه إليهم أن لا يخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم ولننصرنكم وإن أخرجتم لنخرجن معكم فدربوا على الأزقة وحصنوها ثم أجمعوا على الغدر برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا: اخرج في ثلاثين من أصحابك ويخرج منا ثلاثون ليسمعوا منك فإن صدقوك آمنا كلنا ففعل فقالوا: كيف نفهم ونحن ستون اخرج في ثلاثة ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا ففعل عليه الصلاة والسلام فاشتملوا على الخناجر وأرادوا الفتك فأرسلت امرأة منهم ناصحة إلى أخيها وكان مسلماً فأخبرته بما أرادوا فأسرع إلى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فسارّه بخبرهم قبل أن

يصل إليهم فلما كان من الغد غدا عليهم بالكتائب فحاصرهم ـ على ما قال ابن هشام في سيرته ـ ست ليال، وقيل: إحدى وعشرين ليلة فقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب وأيسوا من نصر المنافقين فطلبوا الصلح فأبى عليه الصلاة والسلام عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاؤوا من المتاع فجلوا إلى الشام إلى أريحاء وأذرعات إلا أهل بيتين منهم آل سلام ابن أبي الحقيق وآل كنانة بن الربيع ابن أبي الحقيق وآل حيي بن أخطب فلحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة وقبض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أموالهم وسلاحهم فوجد خمسين درعاً وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفاً وكان ابن أبيّ قد قال لهم: معي ألفان من قومي وغيرهم أمدكم بها وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان فلما نازلهم صلى الله تعالى عليه وسلم اعتزلتهم قريظة وخذلهم ابن أبيّ وحلفاؤهم من غطفان فأنزل الله تعالى قوله عز وجل:

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾

﴿بسم الله ٱلرَّحْمٰن ٱلرَّحِيم سَبَّحَ لله مَا فِي ٱلسَّماوات وَمَا فِي الأرض وَهُوَ ٱلعَزِيزُ ٱلحَكِيمُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿والله على كل شيء قدير﴾ [الحشر: ٦] وتقدم الكلام على نظير هذه الجملة في صدر سورة الحديد، وكرر الموصول ها هنا لزيادة التقرير والتنبيه على استقلال كل من الفريقين بالتسبيح، وقوله تعالى: **﴿هُوَ ٱلَّذي أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا من أهل ٱلكتاب من ديارهم﴾** بيان لبعض آثار عزته تعالى وأحكام حكمته عز وجل إثر وصفه تعالى بالعزة القاهرة والحكمة الباهرة على الاطلاق، والمراد ـ بالذين كفروا ـ بنو النضير ـ بوزن الأمير ـ وهم قبيلة عظيمة من يهود خيبر كبني قريظة، ويقال للحيين: الكاهنان لأنهما من ولد الكاهن بن هارون كما في البحر، ويقال: إنهم نزلوا قريباً من المدينة في فئة من بني إسرائيل انتظاراً لخروج الرسول ﷺ فكان من أمرهم ما قصه الله تعالى.

وقيل: إن موسى عليه السلام كان قد أرسلهم إلى قتل العماليق، وقال لهم: لا تستحيوا منهم أحداً فذهبوا ولم يفعلوا وعصوا موسى عليه السلام فلما رجعوا إلى الشام وجدوه قد مات عليه السلام فقال لهم بنو إسرائيل: أنتم عصاة الله تعالى والله لا دخلتم علينا بلادنا فانصرفوا إلى الحجاز إلى أن كان ما كان، وروي عن الحسن أنهم بنو قريظة وهو وهم كما لا يخفى، والجار الأول متعلق بمحذوف أي كائنين من أهل الكتاب، والثاني متعلق ـ باخرج ـ وصحت إضافة الديار إليهم لأنهم كانوا نزلوا برية لا عمران فيها فبنوا فيها وسكنوا، وضمير ﴿هو﴾ راجع إليه تعالى بعنوان العزة

والحكمة إما بناءً على كمال ظهور اتصافه تعالى بهما مع مساعدة تامة من المقام، أو على جعله مستعاراً لاسم الاشارة كما في قوله تعالى: ﴿قال أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به ﴾ [الأنعام: ٤٦] أي بذلك فكأنه قيل: ذلك المنعوت بالعزة والحكمة الذي أخرج الخ، ففيه إشعار بأن في الإخراج حكمة باهرة، وقوله تعالى: ﴿لأوّل الحَشْر ﴾ متعلق ـ بأخرج ـ واللام لام التوقيت كالتي في قولهم: كتبته لعشر خلون. ومآلها إلى معنى ـ في ـ الظرفية، ولذا قالوا هنا أي في أول الحشر لكنهم لم يقولوا: إنها بمعنى ـ في ـ إشارة إلى أنها لم تخرج عن أصل معناها وأنها للاختصاص لأن ما وقع في وقت اختص به دون غيره من الأوقات، وقيل: إنها للتعليل وليس بذاك، ومعنى أول الحشر أن هذا أول حشرهم إلى الشام أي أول ما حشروا وأخرجوا، ونبه بالأولية على أنهم لم يصبهم جلاء قبل ولم يجلهم بختنصر حين أجلى اليهود بناءً على أنهم لم يكونوا معهم إذ ذاك وإن نقلهم من بلاد الشام إلى أرض العرب كان باختيارهم، أو لم يصبهم ذلك في الإسلام، أو على أنهم أول محشورين من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام، ولا نظر في ذلك إلى مقابلة الأول بالآخر، وبعضهم يعتبرها فمعنى أول الحشر أن هذا أول حشرهم وآخر حشرهم إجلاء عمر رضي الله تعالى عنه إياهم من خيبر إلى الشام، وقيل: آخر حشرهم حشرهم يوم القيامة لأن المحشر يكون بالشام.

وعن عكرمة من شك أن المحشر ها هنا يعني الشام فليقرأ هذه الآية، وكأنه أخذ ذلك من أن المعنى لأول حشرهم إلى الشام فيكون لهم آخر حشر إليه أيضاً ليتم التقابل، وهو يوم القيامة من القبور، ولا يخفى أنه ضعيف الدلالة؛ وفي البحر عن عكرمة والزهري أنهما قالا: المعنى لأول موضوع الحشر وهو الشام، وفي الحديث أنه ﷺ قال لهم: «اخرجوا قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر» ولا يخفى ضعف هذا المعنى أيضاً، وقيل: آخر حشرهم أن ناراً تخرج قبل الساعة فتحشرهم كسائر الناس من المشرق إلى المغرب، وعن الحسن أنه أريد حشر القيامة أي هذا أوله والقيام من القبور آخره، وهو كما ترى، وقيل: المعنى أخرجهم من ديارهم لأول جمع حشره النبي ﷺ أو حشره الله عز وجل لقتالهم لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن قبل قصد قتالهم، وفيه من المناسبة لوصف العزة ما لا يخفى، ولذا قيل: إنه الظاهر، وتعقب بأن النبي ﷺ لم يكن جمع المسلمين لقتالهم في هذه المرة أيضاً ولذا ركب عليه الصلاة والسلام حماراً مخطوماً بليف لعدم المبالاة بهم وفيه نظر، وقيل: لأول جمعهم للمقاتلة من المسلمين لأنهم لم يجتمعوا لها قبل، والحشر إخراج جمع سواء كان من الناس لحرب أو لا، نعم يشترط فيه كون المحشور جمعاً من ذوي الأرواح لا غير، ومشروعية الإجلاء كانت في ابتداء الاسلام، وأما الآن فقد نسخت، ولا يجوز إلا القتل أو السبي أو ضرب الجزية ﴿مَا ظَنَنتُم ﴾ أيها المسلمون ﴿أَن يَخْرُجُوا ﴾ لشدة بأسهم ومنعتهم ووثاقة حصونهم وكثرة عددهم وعدتهم.

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ ﴾ أي ظنوا أن حصونهم مانعتهم أو تمنعهم من بأس الله تعالى ـ فحصونهم ـ مبتدأ و ﴿مانعتهم ﴾ خبر مقدم، والجملة خبر ﴿أن ﴾ وكان الظاهر لمقابلة ﴿ما ظننتم أن يخرجوا ﴾ وظنوا أن لا يخرجوا والعدول إلى ما في النظم الجليل للإشعار بتفاوت الظنين، وأن ظنهم قارب اليقين فناسب أن يؤتى بما يدل على فرط وثوقهم بما هم فيه فجيء ـ بمانعتهم. وحصونهم ـ مقدما فيه الخبر على المبتدأ؛ ومدار الدلالة التقديم لما فيه من الاختصاص فكأنه لا حصن أمنع من حصونهم، وبما يدل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالي معهما بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم، فجيء بضمير ـ هم ـ وصير اسما ـ لأن ـ وأخبر عنه بالجملة لما في ذلك من التقوى على ما في الكشف وشرح الطيبي، وفي كون ذلك من باب التقوى بحث، ومنع

بعضهم جواز الاعراب السابق بناءً على أن تقديم الخبر المشتق على المبتدأ المحتمل للفاعلية لا يجوز كتقديم الخبر إذا كان فعلاً، وصحح الجواز في المشتق دون الفعل، نعم اختار صاحب الفرائد أن يكون «حصونهم» فاعلاً ـ لمانعتهم ـ لاعتماده على المبتدأ.

وجوز كون ﴿**مانعتهم**﴾ مبتدأ خبره ﴿**حصونهم**﴾، وتعقب بأن فيه الاخبار عن النكرة بالمعرفة إن كانت إضافة مانعة لفظية، وعدم كون المعنى على ذلك إن كانت معنوية بأن قصد استمرار المنع فتأمل، وكانت ﴿**حصونهم**﴾ على ما قيل أربعة: الكتيبة والوطيح والسلالم والنطاة، وزاد بعضهم الوخدة[١] وبعضهم شقاً، والذي في القاموس أنه موضع بخيبر أو واد به ﴿**فَأَتَاهُمُ اللهُ**﴾ أي أمره سبحانه، وقدره عز وجل المتاح لهم ﴿**مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبوا**﴾ ولم يخطر ببالهم؛ وهو على ما روي عن السدي وأبي صالح وابن جريج قتل رئيسهم كعب بن الأشرف فإنه مما أضعف قوتهم وقلّ شوكتهم وسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة، وقيل: ضمير ﴿**أتاهم**﴾ و ﴿**لم يحتسبوا**﴾ للمؤمنين أي فأتاهم نصر الله من حيث لم يحتسبوا، وفيه تفكيك الضمائر.

وقرىء فآتاهم الله، وهو حينئذ متعدّ لمفعولين ثانيهما محذوف. أي فآتاهم الله العذاب أو النصر ﴿**وَقَذَفَ في قُلُوبِهِمُ الرُّعبَ**﴾ أي الخوف الشديد من رعبت الحوض إذ ملأته لأنه يتصور فيه أنه ملأ القلب، وأصل القذف الرمي بقوة أو من بعيد، والمراد به هنا للعرف إثبات ذلك وركزه في قلوبهم.

﴿**يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِم**﴾ ليسدوا بما نقضوا منها من الخشب والحجارة أفواه الأزقة، ولئلا تبقى صالحة لسكنى المسلمين بعد جلائهم ولينقلوا بعض آلاتها المرغوب فيها مما يقبل النقل كالخشب والعمد والأبواب ﴿**وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾ حيث كانوا يخربونها من خارج ليدخلوها عليهم وليزيلوا تحصنهم بها وليتسع مجال القتال ولتزداد نكايتهم، ولما كان تخريب أيدي المؤمنين بسبب أمر أولئك اليهود كان التخريب بأيدي المؤمنين كأنه صادر عنهم، وبهذا الاعتبار عطفت ﴿**أيدي المؤمنين**﴾ على ـ أيديهم ـ وجعلت آلة لتخريبهم مع أن الآلة هي أيديهم أنفسهم ـ فيخربون ـ على هذا إما من الجمع بين الحقيقة والمجاز أو من عموم المجاز، والجملة إما في محل نصب على الحالية من ضمير ﴿**قلوبهم**﴾ أو لا محل لها من الإعراب، وهي إما مستأنفة جواب عن سؤال تقديره فما حالهم بعد الرعب؟ أو معه أو تفسير للرعب بادعاء الاتحاد لأن ما فعلوه يدل على رعبهم إذ لولاه ما خربوها.

وقرأ قتادة والجحدي ومجاهد وأبو حيوة وعيسى وأبو عمرو «يُخَرِّبُونَ» بالتشديد وهو للتكثير في الفعل أو في المفعول، وجوز أن يكون في الفاعل، وقال أبو عمرو بن العلاء: خرب بمعنى هدم وأفسد، وأخرب ترك الموضوع خراباً وذهب عنه، فالإخراب يكون أثر التخريب، وقيل: هما بمعنى عدى خرب اللازم بالتضعيف تارة وبالهمزة أخرى ﴿**فَٱعتَبِرُوا يا أُولِي الأَبْصار**﴾ فاتعظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلة على وجه لا تكاد تهتدي إليه الأفكار، واتقوا مباشرة ما أداهم إليه من الكفر والمعاصي، واعبروا من حالهم في غدرهم واعتمادهم على غير الله تعالى ـ الصائرة سبباً لتخريب بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم ومفارقة أوطانهم مكرهين ـ إلى حال أنفسكم فلا تعولوا على تعاضد الأسباب وتعتمدوا على غيره عز وجل بل توكلوا عليه سبحانه.

واشتهر الاستدلال بالآية على مشروعية العمل بالقياس الشرعي، قالوا: إنه تعالى أمر فيها بالاعتبار وهو العبور

---

(١) قوله: الكتيبة التاء المثناة والتصغير. والوطيح بفتح الواو وكسر الطاء وبالمهملة. والسلالم بضم السين، وقيل: بفتحها. ويقال فيه: السلاليم. والنطاة من النطو. والوخدة بفتح الواو وسكون المعجمة بعدها مهملة اهـ منه.

والانتقال من الشيء إلى غيره، وذلك متحقق في القياس إذا فيه نقل الحكم من الأصل إلى الفرع، ولذا قال ابن عباس في الأسنان: اعتبر حكمها بالأصابع في أن ديتها متساوية، والأصل في الإطلاق الحقيقة وإذ ثبت الأمر ـ وهو ظاهر في الطلب الغير الخارج عن اقتضاء الوجوب أو الندب ـ ثبتت مشروعية العمل بالقياس، واعترض بعد تسليم ظهور الأمر في الطلب بأنا لا نسلم أن الاعتبار ما ذكر بل هو عبارة عن الاتعاظ لأنه المتبادر حيث أطلق، ويقتضيه في الآية ترتيبه بالفاء على ما قبله كما في قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ [آل عمران: ١٣، النور: ٤٤] ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة﴾ [النحل: ٦٦] ولأن القائس في الفرع إذا قدم على المعاصي ولم يتفكر في أمر آخرته يقال: إنه غير معتبر، ولو كان القياس هو الاعتبار ـ لم يصح هذا السلب ـ سلمنا لكن ليس في الآية صيغة عموم تقتضي العمل بكل قياس بل هي مطلقة ـ فيكفي في العمل بها العمل بالقياس العقلي ـ سلمنا لكن العام مخصص بالاتفاق إذ قلتم: إنه إذا قال لوكيله: أعتق غانماً لسواده لا يجوز تعديه ذلك إلى سالم، وإن كان أسود، وهو بعد التخصيص لا يبقى حجة فيما عدا محل التخصيص سلمنا غير أن الخطاب مع الموجودين وقته فيختص بهم، وأجيب بأنه لو كان الاعتبار بمعنى الاتعاظ حيث أطلق لما حسن قولهم: اعتبر فاتعظ لما يلزم فيه حينئذ من ترتب الشيء على نفسه وترتيبه في الآية على ما قبله لا يمنع كونه بمعنى الانتقال المذكور لأنه متحقق في الاتعاظ إذ المتعظ بغيره منتقل من العلم بحال ذلك الغير إلى العلم بحال نفسه فكان مأموراً به من جهة ما فيه من الانتقال ـ وهو القياس. والآيتان على ذلك ـ ولا يصح غير معتبر في القائس العاصي نظراً إلى كونه قائساً، وإنما صح ذلك نظراً إلى أمر الآخرة، وأطلق النفي نظراً إلى أنه أعظم المقاصد وقد أخل به، والآية إن دلت على العموم فذاك وإن دلت على الاطلاق وجب الحمل على القياس الشرعي لأن الغالب من الشارع مخاطبتنا بالأمور الشرعية دون غيرها، وقد برهن على أن العام بعد التخصيص حجة، وشمول حكم خطاب الموجودين لغيرهم إلى يوم القيامة قد انعقد الإجماع عليه، ولا يضر الخلاف في شمول اللفظ وعدمه على أنه إن عم أو لم يعم هو حجة على الخصوم في بعض محل النزاع، ويلزم من ذلك الحكم في الباقي ضرورة أنه لا يقول بالفرق.

هذا وقال الخفاجي في وجه الاستدلال: قالوا: إنا أمرنا في هذه الآية بالاعتبار وهو ردّ الشيء إلى نظيره بأن يحكم عليه بحكمه، وهذا يشمل الاتعاظ والقياس العقلي والشرعي، وسوق الآية الاتعاظ فتدل عليه عبارة وعلى القياس إشارة، وتمام الكلام على ذلك في الكتب الأصولية ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَاءَ﴾ أي الإخراج أو الخروج عن أوطانهم على ذلك الوجه الفظيع ﴿لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ بالقتل كأهل بدر وغيرهم أو كما فعل سبحانه ببني قريظة في سنة خمس إذ الحكمة تقتضيه لو لم يكتب الجلاء عليهم، وجاء أجليت القوم عن منازلهم أي أخرجتهم عنها وأبرزتهم، وجلوا عنها خرجوا أو برزوا، ويقال أيضاً: جلاهم؛ وفرق بعضهم بين الجلاء والإخراج بأن الجلاء ما كان مع الأهل والولد، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد.

وقال الماوردي: الجلاء لا يكون إلا لجماعة، والإخراج قد يكون لواحد ولجماعة، ويقال فيه: الجلأ مهموزاً من غير ألف كالنبأ، وبذلك قرأ الحسن بن صالح وأخوه علي بن صالح وطلحة، وأن مصدرية لا مخففة واسمها ضمير شأن كما توهمه عبارة الكشاف، وقد صرح بذلك الرضي، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ استئناف غير متعلق بجواب ﴿لولا﴾ أي إنهم إن نجوا من عذاب الدنيا وهو القتل لأمر أشق عليهم وهو الجلاء لم ينجوا من عذاب الآخرة؛ فليس تمتعهم أياماً قلائل بالحياة وتهوين أمر الجلاء على أنفسهم بنافع، وفيه إشارة إلى أن القتل أشدّ من الجلاء لا لذاته بل لأنهم يصلون عنده إلى عذاب النار، وإنما أوثر الجلاء لأنه أشق عندهم وأنهم غير معتقدين لما

أمامهم من عذاب النار أو معتقدون ولكن لا يبالون به بالة ولم تجعل حالية لاحتياجها للتأويل لعدم المقارنة.

﴿ذٰلك﴾ أي ما نزل بهم وما سينزل ﴿بأنَّهم﴾ بسبب أنهم ﴿شَاقُّوا ٱللهَ وَرَسُولَهُ﴾ وفعلوا ما فعلوا من القبائح ﴿وَمَن يُشَاقِّ ٱللهَ﴾ وقرأ طلحة يشاقق بالفك كما في الأنفال، والاقتصار على ذكر مشاقته عز وجل لتضمنها مشاقته عليه الصلاة والسلام، وفيه من تهويل أمرها ما فيه، وليوافق قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللهَ شَدِيدُ ٱلعقَابِ﴾ وهذه الجملة إما نفس الجزاء، وقد حذف منه العائد إلى من عند من يلتزمه أي شديد العقاب له أو تعليل للجزاء المحذوف أي يعاقبه الله فإن الله شديد العقاب، وأياً مّا كان فالشرطية تكملة لما قبلها وتقرير لمضمونه وتحقيق للسببية بالطريق البرهاني كأنه قيل: ذلك الذي نزل وسينزل بهم من العقاب بسبب مشاقتهم لله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، وكل من يشاق الله تعالى كائناً من كان فله بسبب ذلك عقاب شديد فإذاً لهم عقاب شديد ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ هي النخلة مطلقاً على ما قال الحسن ومجاهد وابن زيد وعمرو بن ميمون والراغب وهي فعلة من اللون وياؤها مقلوبة من واو لكسر ما قبلها كديمة، وتجمع على ألوان، وقال ابن عباس وجماعة من أهل اللغة: هي النخلة ما لم تكن عجوة، وقال أبو عبيدة وسفيان: ما تمرها لون وهو نوع من التمر، قال سفيان: شديد الصفرة يشف عن نواه فيرى من خارج، وقال أبو عبيدة أيضاً: هي ألوان النخل المختلطة التي ليس فيها عجوة ولا برني، وقال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه: هي العجوة، وقال الأصمعي: هي الدقل، وقيل: هي النخلة القصيرة، وقال الثوري: الكريمة من النخل كأنهم اشتقوها من اللين فتجمع على لين، وجاء جمعها لياناً كما في قول امرىء القيس:

وسالفة كسوق الليا ... ن أضرم فيه القويّ السعر

وقيل: هي أغصان الأشجار للينها، وهو قول شاذ، وأنشدوا على كونها بمعنى النخلة سواء كانت من اللون أو من اللين قول ذي الرمة:

كأن قنودي فوقها عش طائر ... على لينة سوقاء تهفو جنوبها

ويمكن أن يقال: أراد باللينة النخلة الكريمة لأنه يصف الناقة بالعراقة في الكرم فينبغي أن يرمز في المشبه به إلى ذلك المعنى، و ﴿ما﴾ شرطية منصوبة ـ بقطعتم ـ و ﴿من لينة﴾ بيان لها، ولذا أنث الضمير في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ أي أبقيتموها كما كانت ولم تتعرضوا لها بشيء مّا، وجواب الشرط قوله سبحانه: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللهِ﴾ أي فذلك أي قطعها أو تركها بأمر الله تعالى الواصل اليكم بواسطة رسوله ﷺ أو بإرادته سبحانه ومشيئته عز وجل، وقرأ عبد الله والأعمش وزيد بن علي ـ قوماً ـ على وزن فعل كضرب جمع قائم، وقرىء ـ قائماً ـ اسم فاعل مذكر على لفظ ما، وأبقى أصولها على التأنيث، وقرىء ـ أصلها ـ بضمتين، وأصله ﴿أصولها﴾ فحذفت الواو اكتفاءً بالضمة أو هو كرهن بضمتين من غير حذف وتخفيف.

﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلفاسقِينَ﴾ متعلق بمقدر على أنه علة له وذلك المقدر عطف على مقدر آخر أي ليعز المؤمنين وليخزي الفاسقين أي ليذلهم أذن عز وجل في القطع والترك، وجوز فيه أن يكون معطوفاً على قوله تعالى: ﴿بإذن الله﴾ وتعطف العلة على السبب فلا حاجة إلى التقدير فيه، والمراد ـ بالفاسقين ـ أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب، ووضع الظاهر موضع المضمر إشعاراً بعلة الحكم، واعتبار القطع والترك في المعلل هو الظاهر وإخزاؤهم بقطع اللينة لحسرتهم على ذهابها بأيدي أعدائهم المسلمين وبتركها لحسرتهم على بقائها في أيدي أولئك الأعداء كذا في الانتصاف.

قال بعضهم: وهاتان الحسرتان تتحققان كيفما كانت المقطوعة والمتروكة لأن النخل مطلقاً مما يعز على أصحابه فلا تكاد تسمح أنفسهم بتصرف أعدائهم فيه حسبما شاؤوا وعزته على صاحبه الغارس له أعظم من عزته على

صاحبه غير الغارس له، وقد سمعت بعض الغارسين يقول: السعفة عندي كأصبع من أصابع يدي، وتحقق الحسرة على الذهاب إن كانت المقطوعة النخلة الكريمة أظهر، وكذا تحققها على البقاء في أيدي أعدائهم المسلمين إن كانت هي المتروكة، والذي تدل عليه بعض الآثار أن بعض الصحابة كان يقطع الكريمة وبعضهم يقطع غيرها وأقرهما النبي ﷺ لما أفصح الأول بأن غرضه إغاظة الكفار، والثاني بأنه استبقاء الكريمة للمسلمين، وكان ذلك أول نزول المسلمين على أولئك الكفرة ومحاصرتهم لهم، فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام أمر في صدر الحرب بقطع نخيلهم فقالوا: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض فما بال قطع النخل وتحريقها؟ فنزلت الآية ﴿**ما قطعتم من لينة**﴾ الخ، ولم يتعرض فيها للتحريق لأنه في معنى القطع فاكتفى به عنه، وأما التعرض للترك مع أنه ليس بفساد عندهم أيضاً فلتقرير عدم كون القطع فساداً لنظمه في سلك ما ليس بفساد إيذاناً بتساويهما في ذلك.

واستدل بالآية على جواز هدم ديار الكفرة وقطع أشجارهم وإحراق زروعهم زيادة لغيظهم، وحاصل ما ذكره الفقهاء في المسألة أنه إن علم بقاء ذلك في أيدي الكفرة فالتخريب والتحريق أولى، وإلا فالإبقاء أولى ما لم يتضمن ذلك مصلحة، وقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ**﴾ شروع في بيان حال ما أخذ من أموالهم بعد بيان ما حل بأنفسهم من العذاب العاجل والآجل وما فعل بديارهم ونخيلهم من التخريب والقطع أي ما أعاده الله تعالى إلى رسوله ﷺ من أولئك الكفرة ـ وهم بنو النضير ـ و ﴿**ما**﴾ موصولة مبتدأ، والجملة بعدها صلة، والعائد محذوف كما أشرنا إليه، والجملة المتقرنة بالفاء بعد خبر، ويجوز كونها شرطية، والجملة بعد جواب، والمراد بما أفاء سبحانه عليه صلى الله تعالى عليه وسلم منهم أموالهم التي بقيت بعد جلائهم، والمراد بإعادتها عليه عليه الصلاة والسلام تحويلها إليه، وهو إن لم يقتض سبق حصولها له ﷺ نظير ما قيل في قوله تعالى: ﴿**أو لتعودن في ملتنا**﴾ [الأعراف: ٨٨، إبراهيم: ١٣] ظاهر وإن اقتضى سبق الحصول كان فيما ذكر مجازاً، وفيه إشعار بأنها كانت حرية بأن تكون له ﷺ وإنما وقعت في أيديهم بغير حق فأرجعها الله تعالى إلى مستحقها، وكذا شأن جميع أموال الكفرة التي تكون فيئاً للمؤمنين لأن الله عز وجل خلق الناس لعبادته وخلق ما خلق من الأموال ليتوسلوا به إلى طاعته فهو جدير بأن يكون للمطيعين، ولذا قيل للغنيمة التي لا تلحق فيها مشقة: فيء مع أنه من فاء الظل إذا رجع، ونقل الراغب عن بعضهم أنه سمي بذلك تشبيهاً بالفيء الذي هو الظل تنبيهاً على أن أشرف أعراض الدنيا يجري مجرى ظل زائل، و ﴿**أفاء**﴾ على ما في البحر بمعنى المضارع أما إذا كانت ﴿**ما**﴾ شرطية فظاهر، وأما إذا كانت موصوله فلأنها إذا كانت الفاء في خبرها تكون مشبهة باسم الشرط فان كانت الآية نازلة قبل جلائهم كانت مخبرة بغيب، وإن كانت نزلت بعد جلائهم وحصول أموالهم في يد الرسول ﷺ كانت بياناً لما يستقبل، وحكم الماضي حكمه، والذي يدل عليه الإخبار أنها نزلت بعد، روي أن بني النضير لما أجلوا عن أوطانهم وتركوا رباعهم وأموالهم طلب المسلمون تخميسها كغنائم بدر فنزل ﴿**ما أفاء الله على رسوله منهم**﴾ ﴿**فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ**﴾ الخ فكانت لرسول الله ﷺ خاصة، فقد أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله تعالى على رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب وكانت لرسول الله ﷺ خاصة فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله تعالى.

وقال الضحاك: كانت له ﷺ خاصة فآثر بها المهاجرين وقسمها عليهم ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا أبا دجانة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف والحارث بن الصمة أعطاهم لفقرهم، وذكر نحوه ابن هشام إلا أنه ذكر

الأولين ولم يذكر الحارث، وكذا لم يذكره ابن سيد الناس، وذكر أنه أعطى سعد بن معاذ سيفاً لابن أبي الحقيق كان له ذكر عندهم، ومعنى ﴿ما أوجفتم عليه﴾ ما أجريتم على تحصيله من الوجيف وهو سرعة السير، وأنشد عليه أبو حيان قول نصيب:

ألا ربّ ركب قد قطعت وجيفهم ... إليك ولولا أنت لم توجف الركب

وقال ابن هشام: «أوجفتم» حركتم وأتعبتم في السير، وأنشد قول تميم بن مقبل:

مذاويد بالبيض الحديث صقالها ... عن الركب أحياناً إذا الركب أوجفوا

والمآل واحد، و ﴿من﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ خَيْلٍ﴾ زائدة في المفعول للتنصيص على الاستغراق كأنه قيل ـ فما أوجفتم عليه ـ فرداً من أفراد الخيل أصلاً ﴿وَلا رِكَابٍ﴾ ولا ما يركب من الإبل غلب فيه كما غلب الراكب على راكبه فلا يقال في الأكثر الفصيح: راكب لمن كان على فرس أو حمار ونحوه بل يقال: فارس ونحوه، وإن كان ذلك عاماً لغيره وضعاً، وإنما لم يعملوا الخيل ولا الركاب بل مشوا إلى حصون بني النضير رجالاً إلا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فإنه كان على الحمار. أو على جمل ـ كما تقدم ـ لأنها قريبة على نحو ميلين من المدينة فهي قريبة جداً منها، وكان المراد أن ما حصل لم يحصل بمشقة عليكم وقتال يعتدّ به منكم، ولهذا لم يعط صلى الله تعالى عليه وسلم الأنصار إلا من سمعت، وأما إعطاؤه المهاجرين فلعله لكونهم غرباء فنزلت غربتهم منزلة السفر والجهاد، ولما أشير إلى نفي كون حصول ذلك بعملهم أشير إلى علة حصوله بقوله عز وجل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ أي ولكن سنته عز وجل جارية على أن يسلط رسله على من يشاء من أعدائهم تسليطاً خاصاً، وقد سلط رسوله محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم على هؤلاء تسليطاً غير معتاد من غير أن تقتحموا مضايق الخطوب وتقاسوا شدائد الحروب فلا حق لكم في أموالهم، ويكون أمرها مفوضاً إليه صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يشاء كما يشاء تارة على الوجوه المعهودة، وأخرى على غيرها، وقيل: الآية في فدك لأن بني النضير حوصروا وقوتلوا دون أهل فدك وهو خلاف ما صحت به الأخبار، والواقع من القتال شيء لا يعتد به.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿مَا أَفاءَ ٱللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلقُرْبَىٰ وَٱليَتامَىٰ وَٱلمَساكِينِ وَٱبنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ بيان لحكم ما أفاءه الله تعالى على رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم من قرى الكفار على العموم بعد بيان حكم ما أفاءه من بني النضير كما رواه القاضي أبو يوسف في كتاب الخراج عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن عمر بن

الخطاب رضي الله تعالى عنه، ويشعر به كلامه رضي الله تعالى عنه في حديث طويل فيه مرافعة علي كرم الله تعالى وجهه والعباس في أمر فدك أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم فالجملة جواب سؤال مقدر ناشيء مما فهم من الكلام السابق فكأن قائلاً يقول: قد علمنا حكم ما أفاء الله تعالى من بني النضير فما حكم ما أفاء عز وجل من غيرهم؟ فقيل: ﴿**ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى**﴾ الخ، ولذا لم يعطف على ما تقدم، ولم يذكر في الآية قيد الإيجاف ولا عدمه، والذي يفهم من كتب بعض الشافعية أن ما تضمنته حكم الفيء لا الغنيمة ولا الأعم، وفرقوا بينهما قالوا: الفيء ما حصل من الكفار بلا قتال وإيجاف خيل وركاب كجزية وعشر تجارة، وما صولحوا عليه من غير نحو قتال وما جلوا عنه خوفاً قبل تلبل الجيشين أما بعده فغنيمة، وما لمرتد قتل أو مات على ردته، وذمي أو معاهد أو مستأمن مات بلا وارث مستغرق، والغنيمة ما حصل من كفار أصليين حربيين بقتال، وفي حكمه تقابل الجيشين أو إيجاف منا لا من ذميين فإنه لهم ولا يخمس وحكمها مشهور.

وصرح غير واحد من أصحابنا بالفرق أيضاً نقلاً عن المغرب وغيره فقالوا: الغنيمة ما نيل من الكفار عنوة والحرب قائمة وحكمها أن تخمس، وباقيها للغانمين خاصة. والفيء ما نيل منهم بعد وضع الحرب أوزارها وصيرورة الدار دار إسلام، وحكمه أن يكون لكافة المسلمين ولا يخمس أي يصرف جميعه لمصالحهم؛ ونقل هذا الحكم ابن حجر عمن عدا الشافعي رضي الله تعالى عنه من الأئمة الثلاثة، والتخميس عنه استدلالاً بالقياس على الغنيمة المخمسة بالنص بجامع أن كلاً راجع إلينا من الكفار، واختلاف السبب بالقتال وعدمه لا يؤثر، والذي نطقت به الأخبار الصحيحة أن عمر رضي الله تعالى عنه صنع في سواد العراق ما تضمنته الآية، واعتبرها عامة للمسلمين محتجاً بها على الزبير وبلال وسلمان الفارسي وغيرهم حيث طلبوا منه قسمته على الغانمين بعقاره وعلوجه، ووافقه على ما أراد علي وعثمان وطلحة والأكثرون بل المخالفون أيضاً بعد أن قال خاطباً: اللهم اكفني بلالاً وأصحابه مع أن المشهور في كتب المغازي أن السواد فتح عنوة، وهو يقتضي كونه غنيمة فيقسم بين الغانمين، ولذا قال بعض الشافعية: إن عمر رضي الله تعالى عنه استطاب قلوب الغانمين حتى تركوا حقهم فاسترد السواد على أهله بخراج يؤدونه في كل سنة فليراجع وليحقق، وما جعله الله تعالى من ذلك لمن تضمنه قوله تعالى: ﴿**فللّه وللرسول**﴾ إلى ﴿**ابن السبيل**﴾ هو خمس الفيء على ما نص عليه بعض الشافعية، ويقسم هذا الخمس خمسة أسهم: لمن ذكر الله عز وجل وسهمه سبحانه وسهم رسوله واحد، وذكره تعالى ـ كما روي عن ابن عباس والحسن بن محمد بن الحنفية ـ افتتاح كلام للتيمن والتبرك فإن لله ما في السماوات وما في الأرض، وفيه تعظيم لشأن الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقال أبو العالية: سهم الله تعالى ثابت يصرف إلى بناء بيته ـ وهو الكعبة المشرفة ـ إن كانت قريبة وإلا فإلى مسجد كل بلدة ثبت فيها الخمس، ويلزمه أن السهام كانت ستة وهو خلاف المعروف عن السلف في تفسير ذلك، وسهم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم قد كان له في حياته بالإجماع ـ وهو خمس الخمس ـ وكان ينفق منه على نفسه وعياله ويدخر منه مؤونة سنة أي لبعض زوجاته ويصرف الباقي في مصالح المسلمين، وسقط عندنا بعد وفاته عليه الصلاة والسلام قالوا: لأن عمل الخلفاء الراشدين على ذلك ـ وهم أمناء الله تعالى على دينه ـ ولأن الحكم معلق بوصف مشتق ـ وهو الرسول ـ فيكون مبدأ الاشتقاق ـ وهو الرسالة ـ علة ولم توجد في أحد بعده، وهذا كما سقط الصفي.

ونقل عن الشافعي أنه يصرف للخليفة بعده لأنه عليه الصلاة والسلام كان يستحقه لإمامته دون رسالته ليكون ذلك أبعد عن توهم الأجر على الإبلاغ، والأكثرون من الشافعية أن ما كان له صلى الله تعالى عليه وسلم من خمس

الخمس يصرف لمصالح المسلمين كالثغور، وقضاة البلاد والعلماء المشتغلين بعلوم الشرع وآلاتها ولو مبتدئين، والأئمة والمؤذنين ولو أغنياء، وسائر من يشتغل عن نحو كسبه بمصالح المسلمين لعموم نفعهم، وألحق بهم العاجزون عن الكسب والعطاء إلى رأي الإمام معتبراً سعة المال وضيقه، ويقدم الأهم فالأهم وجوباً وأهمها سد الثغور، ورد سهمه صلى الله تعالى عليه وسلم بعد وفاته للمسلمين الدال عليه قوله عليه الصلاة والسلام في الخبر الصحيح: «مالي مما أفاء الله تعالى عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم» صادق بصرفه لمصالح المسلمين كما أنه صادق بضمه إلى السهام الباقية فيقسم معها على سائر الأصناف، ولا يسلم ظهوره في هذا دون ذاك، وسهم لذي القربى وسهم لليتامى وسهم للمساكين وسهم لابن السبيل فهذه خمسة أسهم الخمس، والمراد بذي القربى قرابته ﷺ، والمراد بهم بنو هاشم وبنو المطلب لأنه ﷺ وضع السهم فيهم دون بني أخيهما شقيقهما عبد شمس، ومن ذريته عثمان وأخيهما لأبيهما نوفل مجيباً عن ذلك بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «نحن وبنو المطلب شيء واحد» وشبك بين أصابعه رواه البخاري أي لم يفارقوا بني هاشم في نصرته صلى الله تعالى عليه وسلم جاهلية ولا إسلاماً، وكأنه لمزيد تعصبهم وتواقفهم ـ حتى كأنهم على قلب رجل واحد ـ قيل: لذي القربى دون لذوي بالجمع.

قال الشافعية: يشترك في هذا السهم الغني والفقير لإطلاق الآية ولإعطائه صلى الله تعالى عليه وسلم العباس وكان غنياً، بل قيل: كان له عشرون عبداً يتجرون له، والنساء لأن فاطمة وصفية عمة أبيها رضي الله تعالى عنهما كانا يأخذان منه، ويفضل الذكر كالإرث بجامع أنه استحقاق بقرابة الأب فله مثل حظّي الأنثى، ويستوي فيه العالم والصغير وضدهما، ولو أعرضوا عنه لم يسقط كالارث، ويثبت كون الرجل هاشمياً أو مطلبياً بالبينة، وذكر جمع أنه لا بد معها من الاستفاضة، وبقول الشافعي قال أحمد، وعند مالك الأمر مفوض إلى الإمام إن شاء قسم بينهم وإن شاء أعطى بعضهم دون بعض وإن شاء أعطى غيرهم وإن كان أمره أهم من أمرهم.

وقال المزني والثوري: يستوي الذكر والأنثى ويدفع للقاصي والداني ممن له قرابة، والغني والفقير سواء لإطلاق النص، ولأن الحكم المعلق بوصف مشتق معلل بمبدأ الاشتقاق، وعندنا ذو القربى مخصوص ببني هاشم وبني المطلب للحديث إلا أنهم ليس لهم سهم مستقل ولا يعطون مطلقاً، وإنما يعطى مسكينهم ويتيمهم وابن سبيلهم لاندارجه في ﴿**اليتامى والمساكين وابن السبيل**﴾ لكن يقدمون على غيرهم من هذه الأصناف لأن الخلفاء الثلاثة لم يخرجوا لهم سهماً مخصوصاً، وإنما قسموا الخمس ثلاثة أسهم: سهم لليتامى وسهم للمساكين وسهم لابن السبيل، وعلي كرم الله تعالى وجهه في خلافته لم يخالفهم في ذلك مع مخالفته لهم في مسائل، ويحمل على الرجوع إلى رأيهم إن صح عنه أنه كان يقول: سهم ذوي القربى على ما حكي عن الشافعي، وفائدة ذكرهم على القول بأن استحقاقهم لوصف آخر غير القرابة كالفقر دفع توهم أن الفقير منهم مثلاً لا يستحق شيئاً لأنه من قبيل الصدقة ولا تحل لهم، ومن تتبع الأخبار وجد فيها اختلافاً كثيراً؛ ومنها ما يدل على أن الخلفاء كانوا يسهمونهم مطلقاً، وهو رأي علماء أهل البيت، واختار بعض أصحابنا أن المذكور في الآية مصارف الخمس على معنى أن كلاً يجوز أن يصرف له لا المستحقين فيجوز الاقتصار عندنا على صنف واحد كأن يعطى تمام الخمس لابن السبيل وحده مثلاً.

والكلام مستوفى في شروح الهداية، والمراد باليتامى الفقراء منهم قال الشافعية: اليتيم هو صغير لا أب له وإن كان له جد، ويشترط إسلامه وفقره، أو مسكنته على المشهور أن لفظ اليتيم يشعر بالحاجة، وفائدة ذكرهم مع شمول المساكين لهم عدم حرمانهم لتوهم أنهم لا يصلحون للجهاد وإفرادهم بخمس كامل ويدخل فيهم ولد الزنا، والمنفي لا اللقيط على الأوجه لأنا لم نتحقق فقد أبيه على أنه غني بنفقته في بيت المال، ولا بد في ثبوت اليتيم والإسلام

والفقر هنا من البينة، ويكفي في المسكين وابن السبيل قولهما ولو بلا يمين وإن اتهما، نعم يظهر في مدعي تلف مال له عرف أو عيال أنه يكلف بينة انتهى، واشتراط الفقر في اليتيم مصرح به عندنا في أكثر الكتب وليراجع الباقي.

هذا والأربعة الأخماس الباقية مصرفها على ما قال صاحب الكشف ـ وهو شافعي ـ بعد أن اختار جعل ﴿**للفقراء**﴾ بدلاً من ﴿**ذي القربى**﴾ وما عطف عليه من تضمنه قوله تعالى: ﴿**والذين تبوؤوا**﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿**والذين جاؤوا من بعدهم**﴾ على معنى أن له عليه الصلاة والسلام أن يعم الناس بها حسب اختياره، وقال: إنها للمقاتلين الآن على الأصح، وفي تحفة ابن حجر أنها على الأظهر للمرتزقة وقضاتهم وأئمتهم ومؤذنيهم وعمالهم ما لم يوجد تبرع، والمرتزقة الأجناد المرصودون في الديوان للجهاد لحصول النصرة بهم بعده ﷺ، وصرح في التحفة بأن الأكثرين على أن هذه الأخماس الأربعة كانت له عليه الصلاة والسلام مع خمس الخمس، فجملة ما كان يأخذه صلى الله تعالى عليه وسلم من الفيء أحد وعشرون سهماً من خمسة وعشرين، وكان على ما قال الروياني: يصرف العشرين التي له عليه الصلاة والسلام يعني الأربعة الأخماس للمصالح وجوباً في قول وندباً في آخر، وقال الغزالي: كان الفيء كله له ﷺ في حياته، وإنما خمس بعد وفاته.

وقال الماوردي: كان له صلى الله تعالى عليه وسلم في أول حياته ثم نسخ في آخرها، وقال الزمخشري: إن قوله تعالى: ﴿**ما أفاء الله**﴾ الخ بيان للجملة الأولى يعني قوله تعالى: ﴿**وما أفاء الله على رسوله منهم**﴾ ولذا لم يدخل العاطف عليها بين فيها لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما يصنع بما أفاء الله تعالى عليه وأمره أن يضعه حيث يضع الخمس من الغنائم مقسوماً على الأقسام الخمسة، وظاهره أن الجملة استئناف بياني، والسؤال عن مصارف ما أفاء الله تعالى على رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم من بني النضير الذي أفادت الجملة الأولى أن أمره مفوض إليه صلى الله تعالى عليه وسلم لا يلزم أن يقسم قسمة الغنائم التي قوتل عليها قتالاً معتداً به، وأخذت عنوة وقهراً كما طلب الغزاة لتكون أربعة أخماسها لهم وأن ما يوضع موضع الخمس من الغنائم هو الكل لا أن خمسة كذلك والباقي ـ وهو أربعة أخماسه ـ لمن تضمنه قوله تعالى: ﴿**والذين تبوؤوا**﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿**والذين جاؤوا من بعدهم**﴾ على ما سمعت سابقاً، وأن المراد بأهل القرى هو المراد بالضمير في ﴿**منهم**﴾ أعني بني النضير، وعدل عن الضمير إلى ذلك ـ على ما في الإرشاد ـ إشعاراً بشمول ما في ﴿**ما أفاء الله**﴾ لعقاراتهم أيضاً، واعترض صاحب الكشف ما يشعر به الظاهر من أن الآية دالة على أمره صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يضع الجميع حيث يضع الخمس من الغنائم، ووجه الآية بما أيد به مذهبه، ودقق الكلام في ذلك فليراجع وليتدبر.

وقال ابن عطية ﴿**أهل القرى**﴾ المذكورون في الآية هم أهل الصفراء وينبع ووادي القرى، وما هنالك من قرى العرب التي تسمى قرى عرينة وحكمها مخالف لحكم أموال بني النضير فإن تلك كلها له صلى الله تعالى عليه وسلم خاصة، وهذه قسمها كغيرها، وقيل: المراد بما أفاء الله على رسوله خيبر، وكان نصفها لله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ونصفها الآخر للمسلمين فكان الذي لله سبحانه ورسوله عليه الصلاة والسلام من ذلك الكتيبة والوطيح وسلالم ووخدة، وكان الذي للمسلمين الشق، وكان ثلاثة عشر سهماً، ونطاة وكانت خمسة أسهم، ولم يقسم عليه الصلاة والسلام من خيبر لأحد من المسلمين إلا لمن شهد الحديبية، ولم يأذن صلى الله تعالى عليه وسلم لأحد تخلف عنه عند مخرجه إلى الحديبية أن يشهد معه خيبر إلا جابر بن عبد الله بن عمرو الأنصاري، وروي هذا عن ابن عباس، وخص بعضهم ما أفاء الله تعالى بالجزية والخراج.

وعن الزهري أنه قال: بلغني أنه ذلك، وأنت قد سمعت أن عمر رضي الله تعالى عنه إنما احتج بهذه الآية على

إبقاء سواد العراق بأيادي أهله، وضرب الخراج والجزية عليهم رداً على من طلب قسمته على الغزاة بعلوجه لكن ليس ذلك إلا لأن وصول نفع ما أفاء الله تعالى إلى عامة المسلمين كان بما ذكر دون القسمة فافهم.

وفي إعادة اللام في الرسول وذي القربى مع العاطف ما لا يخفى من الاعتناء، وفيه على ما قيل: تأييد ما لمن يذهب إلى عدم سقوط سهميهما، ووجه إفراد ذي القربى ـ قد ذكرناه غير بعيد ـ ولما كان أبناء السبيل بمنزلة الأقارب قبل: ﴿**وابن السبيل**﴾ بالإفراد كما قيل: ﴿**ولذي القربى**﴾ وعلى ذلك قوله:

أيا جارتا إنا غريبان ها هنا وكل غريب للغريب نسيب

﴿**كَي لا يَكُونَ**﴾ تعليل للتقسيم، وضمير ﴿**يكون**﴾ لما أفاء الله تعالى أي كي لا يكون الفيء ﴿**دُولَةً**﴾ هي بالضم، وكذا بالفتح ما يدول أي ما يدور للإنسان من الغناء والجد والغلبة، وقال الكسائي وحذاق البصرة: ـ الدولة ـ بالفتح في الملك بالضم، و ـ الدولة ـ بالضم في الملك بالكسر، أو بالضم في المال وبالفتح في النصرة قيل: وفي الجاه وقيل: هي بالضم ما يتداول كالغرفة اسم ما يغترف وبالفتح مصدر بمعنى التداول، والراغب وعيسى بن عمر وكثير أنهما بمعنى واحد، وجمهور القراء قرؤوا بضم الدال والنصب، وبالياء التحتية في يكون على أن اسم ﴿**يكون**﴾ الضمير، و ﴿**دولة**﴾ الخبر أي كي لا يكون الفيء جدّاً ﴿**بَينَ الأغنياء منكم**﴾ أي بينهم خاصة يتكاثرون به، أو كي ﴿**لا يكون دولة**﴾ وغلبة جاهلية بينكم فإن الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة ويقولون من عزيز، وقيل: المعنى كي لا يكون شيئاً يتداوله الأغنياء بينهم ويتعاورونه فلا يصيب أحداً من الفقراء.

وقرأ عبد الله «تكون» بالتاء الفوقية على أن الضمير على ما باعتبار المعنى إذ المراد بها الأموال، وقرأ أبو جعفر وهشام كذلك؛ ورفع «دُولَةٌ» بضم الدال على أن كان تامة، و «دولة» فاعل أي كي لا يقع دولة، وقرأ علي والسلمي كذلك أيضاً، ونصب «دَوْلَةً» بفتح الدال على أن كان ناقصاً اسمها ما سمعت، «دَوْلَةً» خبرها، ويقدر مضاف على القول بأنها مصدر إن لم يتجوز فيه، ولم يقصد المبالغة أي كي لا تكون ذات تداول بين الأغنياء لا يخرجونها إلى الفقراء، وظاهر التعليل بما ذكر اعتبار الفقر فيمن ذكر وعدم اتصافه تعالى به ضروري مع أن ذكره سبحانه كان للتيمن عند الأكثرين لا لأن له عز وجل سهماً، وكذا يجل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن أن يسمى فقيراً، وما اشتهر من قوله عليه الصلاة والسلام: «الفقر فخري» لا أصل له، وكيف يتوهم مثله والدنيا كلها لا تساوي عند الله تعالى جناح بعوضة، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم أحب خلقه إليه سبحانه حتى قال بعض العارفين: لا يقال له صلى الله تعالى عليه وسلم زاهد لأنه التارك للدنيا وهو عليه الصلاة والسلام لا يتوجه إليها فضلاً عن طلبها اللازم للترك، وقيل: إن الخبر لو صح يكون المراد بالفقر فيه الانقطاع عن السوي بالمرة إلى الله عز وجل وهو غير الفقر الذي الكلام فيه واعتباره فيمن بعد لا محذور فيه حتى أنه ربما يكون دليلاً على القول بأنه لا يعطى أغنياء ذوي القربى، وإنما يعطى فقراؤهم، وإذا حمل الكلام على ما حملناه عليه كفى في التعليل أن يكون فيمن يدفع إليه شيء من الفيء فقر، ولا يلزم أن كل من يدفع إليه شيء منه فقيراً ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ**﴾ أي ما أعطاكم من الفيء ﴿**فَخُذُوهُ**﴾ لأنه حقكم الذي أحله الله تعالى لكم ﴿**وَمَا نَهاكُمْ عَنْهُ**﴾ أي عن أخذه منه ﴿**فَانتَهُوا**﴾ عنه ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾ في مخالفته عليه الصلاة والسلام ﴿**إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ**﴾ فيعاقب من يخالفه صلى الله تعالى عليه وسلم، وحمل الآية على خصوص الفيء مروي عن الحسن وكان لذلك لقرينة المقام، وفي الكشاف الأجود أن تكون عامة في كل ما أمر به صلى الله تعالى عليه وسلم ونهى عنه، وأمر الفيء داخل في العموم، وذلك لعموم لفظ ﴿**ما**﴾ على أن الواو لا تصح عاطفة فهي اعتراض على سبيل التذييل، ولذلك عقب بقوله تعالى: ﴿**واتقوا الله**﴾ تعميما على تعميم فيتناول كل ما

يجب أن يتقى؛ ويدخل ما سبق له الكلام دخولاً أولياً كدخوله في العموم الأول، وروي ذلك عن ابن جريج.

وأخرج الشيخان وأبو داود والترمذي وغيرهم عن ابن مسعود أنه قال: «لعن الله تعالى الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات لخلق الله تعالى» فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب وكانت تقرأ القرآن: فأتته فقالت: بلغني أنك لعنت كيت وكيت، فقال: مالي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو في كتاب الله عز وجل، فقالت: لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته، قال: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه، أما قرأت قوله تعالى: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾؟ قالت: بلى، قال: فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم قد نهى عنه. وعن الشافعي أنه قال: سلوني عما شئتم أخبركم به من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال عبد الله بن محمد بن هارون: ما تقول في المحرم يقتل الزنبور؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿**وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾. وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن خراش عنه حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر». وحدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر بن كدام عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب أنه أمر بقتل الزنبور، وهذا من غريب الاستدلال، وفيه على علاته ـ ككلام ابن مسعود ـ حمل ما في الآية على العموم، وعن ابن عباس ما يدل على ذلك أيضاً، قيل: والمعنى حينئذ ما آتاكم الرسول من الأمر فتمسكوا به وما نهاكم عن تعاطيه فانتهوا عنه، والأمر جوز أن يكون واحد الأمور وأن يكون واحد الأوامر لمقابلة نهاكم له، قيل: والأول أقرب لأنه لا يقال: أعطاه الأمر بمعنى أمره إلا بتكلف كما لا يخفى، واستنبط من الآية أن وجوب الترك يتوقف على تحقق النهي ولا يكفي فيه عدم الأمر فما لم يتعرض له أمراً ولا نهياً لا يجب تركه ﴿**لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَاجِرِينَ**﴾ قال الزمخشري: بدل من قوله تعالى: ﴿**لذي القربى**﴾ والمعطوف عليه، والذي منع الإبدال من ﴿**لله وللرسول**﴾ وما بعد وإن كان المعنى لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن الله عز وجل أخرج رسوله عليه الصلاة والسلام من الفقراء في قوله سبحانه: و ﴿**ينصرون الله ورسوله**﴾ وأنه يترفع برسول الله عليه الصلاة والسلام عن التسمية بالفقير، وأن الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في تعظيم الله عز وجل، وهذا كما لا يجوز أن يوصف سبحانه بعلامة لأجل التأنيث لفظاً لأن فيه سوء أدب انتهى.

وعنى أنه بدل كل من كل لاعتبار المبدل منه مجموع ما ذكر، قال الإمام: فكأنه قيل: أعني بأولئك الأربعة هؤلاء الفقراء والمهاجرين، وما ذكر من الإبدال من ﴿**لذي القربى**﴾ وما بعده مبني على قوله الحنفية إنه لا يعطى الغني من ذوي القربى وإنما يعطى الفقير، ومن يرى كالشافعي أنه يعطى غنيهم كما يعطى فقيرهم خص الإبدال باليتامى وما بعده، وقيل: يجوز ذلك أيضاً إلا أنه يقول بتخصيص اعتبار الفقر بفيء بني النضير فإنه عليه الصلاة والسلام لم يعط غنياً شيئاً منه، والآية نازلة فيه وفيه تعسف ظاهر.

وفي الكشف أن ﴿**للفقراء**﴾ ليس للقيد بل بياناً للواقع من حال المهاجرين وإثباتاً لمزيد اختصاصهم كأنه قيل: لله وللرسول وللمهاجرين، وقال ابن عطية: ﴿**للفقراء**﴾ الخ بيان لقوله تعالى: ﴿**اليتامى والمساكين وابن السبيل**﴾ وكررت لام الجر لما كان ما تقدم مجروراً بها لتبيين أن البدل هو منها، وقيل: اللام متعلقة بما دل عليه قوله تعالى: ﴿**كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم**﴾ كأنه قيل: ولكن يكون للفقراء المهاجرين.

وسيأتي إن شاء الله تعالى ما خطر لنا في ذلك من الاحتمال بناءً على ما يفهم من ظاهر كلام عمر بن الخطاب بمحضر جمع من الأصحاب ﴿**ٱلَّذِينَ أُخرِجُوا من ديارهم وَأموالهِمْ**﴾ حيث اضطرهم كفار مكة وأحوجوهم إلى

الخروج فخرجوا منها، وهذا وصف باعتبار الغالب، وقيل: كان هؤلاء مائة رجل ﴿يَبتغُونَ فَضْلاً مِّنَ ٱللهِ وَرضواناً﴾ أي طالبين منه تعالى رزقاً في الدنيا ومرضاة في الآخرة، وصفوا أولاً بما يدل على استحقاقهم للفيء من الإخراج من الديار والأموال، وقيد ذلك ثانياً بما يوجب تفخيم شأنهم ويؤكده مما يدل على توكلهم التام ورضاهم بما قدره المليك العلاّم ﴿وَيَنْصُرُونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ﴾ عطف على ﴿يبتغون﴾ فهي حال مقدرة أي ناوين لنصرة الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم أو مقارنة فإن خروجهم من بين الكفار مراغمين لهم مهاجرين إلى المدينة نصرة وأي نصرة ﴿أُولٰئِكَ﴾ الموصون بما ذكر من الصفات الجليلة ﴿هُمُ ٱلصادقُونَ﴾ أي الكاملون في الصدق في دعواهم الإيمان حيث فعلوا ما يدل أقوى دلالة عليه مع إخراجهم من أوطانهم وأموالهم لأجله لا غيرهم ممن آمن في مكة ولم يخرج من داره وماله، ولم يثبت منه نحو ما ثبت منهم لنحو لين منه مع المشركين فالحصر إضافي ووجه بغير ذلك. وحمل بعضهم الكلام على العموم لحذف متعلق الصدق وتمسك به لذلك في الاستدلال على صحة إمامة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه لأن هؤلاء المهاجرين كانوا يدعونه بخليفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، والله تعالى قد شهد بصدقهم فلا بد أن تكون إمامته رضي الله تعالى عنه صحيحة ثابتة في نفس الأمر وهو تمسك ضعيف مستغنية عن مثله دعوى صحة خلافة الصديق رضي الله تعالى عنه بإجماع الصحابة، ومنهم علي كرم الله تعالى وجهه، ونسبة التقية إليه بالموافقة لا يوافق الشيعة عليها متق كدعوى الإكراه بل مستغنية بغير ذلك أيضاً ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ والإِيمانَ﴾ الأكثرون على أنه معطوف على المهاجرين، والمراد بهم الأنصار، والتبوّؤ النزول في المكان، ومنه المباءة للمنزل، ونسبته إلى الدار والمراد بها المدينة ظاهر، وأما نسبته إلى الايمان فباعتبار جعله مستقراً ومتوطناً على سبيل الاستعارة المكنية التخييلية، والتعريف في الدار للتنويه كأنها الدار التي تستحق أن تسمى داراً وهي التي أعدها الله تعالى لهم ليكون تبوؤهم إياها مدحاً لهم.

وقال غير واحد: الكلام من باب:

علفتها تبناً وماءً بارداً

أي تبوؤوا الدار وأخلصوا الإيمان، وقيل: التبوؤ مجاز مرسل عن اللزوم وهو لازم معناه فكأنه قيل: لزموا الدار والإيمان؛ وقيل: في توجيه ذلك أن أل في الدار للعهد، والمراد دار الهجرة وهي تغني غناء الإضافة. وفي ﴿والإيمان﴾ حذف مضاف أي ودار الإيمان فكأنه قيل: تبوؤوا دار الهجرة ودار الإيمان على أن المراد بالدارين المدينة، والعطف كما في قولك: رأيت الغيث والليث وأنت تريد زيداً، ولا يخفى ما فيه من التكلف والتعسف، وقيل: إن الإيمان مجاز عن المدينة سمي محل ظهور الشيء باسمه مبالغة وهو كما ترى، وقيل: الواو للمعية والمراد تبوؤوا الدار مع إيمانهم أي تبوؤوها مؤمنين، وهو أيضاً ليس بشيء، وأحسن الأوجه ما ذكرناه أولاً، وذكر بعضهم أن الدار علم بالغلبة على المدينة كالمدينة، وأنه أحد أسماء لها منها طيبة وطابة ويثرب وجابرة إلى غير ذلك.

وأخرج الزبير بن بكار عن زيد بن أسلم حديثاً مرفوعاً يدل على ذلك ﴿مِن قَبلِهِم﴾ أي من قبل المهاجرين، والجار متعلق بتبوؤوا، والكلام بتقدير مضاف أي من قبل هجرتهم فنهاية ما يلزم سبق الإيمان الأنصار على هجرة المهاجرين، ولا يلزم منه سبق إيمانهم على إيمانهم ليقال: إن الأمر بالعكس، وجوز أن لا يقدر مضاف، ويقال: ليس المراد سبق الانصار لهم في أصل الإيمان بل سبقهم إياهم في التمكن فيه لأنهم لم ينازعوا فيه لما أظهروه.

وقيل: الكلام على التقديم والتأخير، والتقدير تبوؤوا الدار من قبلهم والإيمان فيفيد سبقهم إياهم في تبويء الدار فقط وهو خلاف الظاهر على أن مثله لا يقبل ما لم يتضمن نكتة سرية وهي غير ظاهرة ها هنا؛ وقيل: لا حاجة إلى

شيء مما ذكر، وقصارى ما تدل الآية عليه تقدم مجموع تبوؤىء الأنصار وإيمانهم على تبوىء المهاجرين وإيمانهم، ويكفي في تقدم المجموع تقدم بعض أجزائه وهو ها هنا تبوؤ الدار، وتعقب بمنع الكفاية ولو سلمت لصلح أن يقال: بتقدم تبوىء المهاجرين وإيمانهم على تبوىء الأنصار وإيمانهم لتقدم إيمان المهاجرين ﴿**يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ**﴾ في موضع الحال من الموصول، وقيل: استئناف، والكلام قيل: كناية عن مواساتهم المهاجرين وعدم الاستثقال والتبرم منهم إذا احتاجوا إليهم، وقيل: على ظاهره أي يحبون المهاجر إليهم من حيث مهاجرته إليهم لحبهم الإيمان ﴿**وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِم**﴾ أي ولا يعلمون في أنفسهم.

﴿**حَاجَةً**﴾ أي طلب محتاج إليه ﴿**مِّمَّا أُوتُوا**﴾ أي مما أعطي المهاجرون من الفيء وغيره، وحاصله أن نفوسهم لم تتبع ما أعطي المهاجرون ولم تطمح إلى شيء منه تحتاج إليه، فالوجدان إدراك علمي وكونه في الصدر من باب المجاز، ـ والحاجة ـ بمعنى المحتاج إليه، وهو استعمال شائع يقال: خذ منه حاجتك وأعطاه من ماله حاجته، و ﴿**من**﴾ تبعيضية، وجوز كونها بيانية والكلام على حذف مضاف وهو طلب، وفيه فائدة جليلة كأنهم لم يتصوروا ذلك ولا مرّ في خاطرهم أن ذلك محتاج إليه حتى تطمح إليه النفس.

ويجوز أن يكون المعنى ـ لا يجدون في أنفسهم ما يحصل عليه الحاجة كالحزازة والغيظ والحسد والغبطة لأجل ما أعطي المهاجرون ـ على أن الحاجة مجاز عما يتسبب عنها، قيل: على أنه كناية عما ذكر لأنه لا ينفك عن الحاجة فأطلق اسم اللازم على الملزوم، وما تقدم أولى، وقول بعضهم: أي أثر حاجة تقدير معنى لا إعراب، و ﴿**من**﴾ في قوله تعالى: ﴿**مما أوتوا**﴾ تعليلية ﴿**ويؤثرون**﴾ أي يقدمون المهاجرين ﴿**على أنفسهم**﴾ في كل شيء من الطيبات حتى أن من كان عنده امرأتان كان ينزل عن إحداهما ويزوجها واحداً منهم، ويجوز أن لا يعتبر مفعول ـ يؤثرون ـ خصوص المهاجرين، أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصابني الجهد فأرسل إليه نسائه فلم يجد عندهن شيئاً فقال عليه الصلاة والسلام: «ألا رجل يضيف هذا الرجل الليلة رحمه الله؟ فقال رجل من الأنصار ـ وفي رواية ـ فقال أبو طلحة: أنا يا رسول الله فذهب به إلى أهله فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية قال: إذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فأطفئي السراج ونطوي الليلة لضيف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ففعلت ثم غدا الضيف على رسول الله ﷺ فقال: لقد عجب الله الليلة من فلان وفلانة وأنزل الله تعالى فيهما ﴿**ويؤثرون**﴾» الخ.

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال: أهدي لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رأس شاة فقال: إن أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منا فبعث به إليه فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداوله أهل سبعة أبيات حتى رجع إلى الأول فنزلت ﴿**ويؤثرون على أنفسهم**﴾ ﴿**وَلَو كَانَ بهم خَصَاصَةٌ**﴾ أي حاجة من خصاص البيت وهو ما يبقى بين عيدانه من الفرج والفتوح، والجملة في موضع الحال، وقد تقدم وجه ذلك مراراً ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفسه**﴾ الشح اللؤم وهو أن تكون النفس كزة حريصة على المنع كما قال:

يمارس نفساً بين جنبيه كزة ... إذا همَّ بالمعروف قالت له مهلا

وأضيف إلى النفس لأنه غريزة فيها، وأما البخل فهو المنع نفسه، وقال الراغب: الشح بخل مع حرص؛ وذلك فيما كان عادة، وأخرج ابن المنذر عن الحسن أنه قال: البخل أن يبخل الإنسان بما في يده، والشح أن يشح على ما في أيدي الناس، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب والحاكم

وصححه وجماعة عن ابن مسعود أن رجلاً قال له: إني أخاف أن أكون قد هلكت قال: وما ذاك؟ قال: إني سمعت الله تعالى يقول: ﴿ومن يوق شح نفسه﴾ الآية وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج مني شيء فقال له ابن مسعود: ليس ذاك بالشح ولكنه البخل ولا خير في البخل، وإن الشح الذي ذكره الله تعالى أن تأكل مال أخيك ظلماً، وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال: ليس الشح أن يمنع الرجل ماله ولكنه البخل إنما الشح أن تطمح عين الرجل إلى ما ليس له، ولم أر لأحد من اللغويين شيئاً من هذه التفاسير للشح، ولعل المراد أنه البخل المتناهي بحيث يبخل المتصف به بمال غيره أي لا يودّ جود الغير به وتنقبض نفسه منه ويسعى في أن لا يكون، أو بحيث يبلغ به الحرص إلى أن يأكل مال أخيه ظلماً أن تطمح عينه إلى ما ليس له ولا تسمح نفسه بأن يكون لغيره فتأمل.

وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة «وَمَنْ يُوَقَّ» بشدّ القاف، وقرأ ابن عمر وابن أبي عبلة «شِحَّ» بكسر الشين، وجاء فيه لغة الفتح أيضاً، ومعنى الكل واحد، ومعنى الآية ومن يوق بتوفيق الله تعالى ومعونته شح نفسه حتى يخالفها فيما يغلب عليها من حب المال وبغض الإنفاق ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مكروه، والجملة الشرطية تذييل حسن ومدح للأنصار بما هو غاية لتناوله إياهم تناولاً أولياً، وفي الإفراد أولاً والجمع ثانياً رعاية للفظ من ومعناها وإيماء إلى قلة المتصفين بذلك في الواقع عدداً وكثرتهم معنى:

والناس ألف منهم كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عنا

ويفهم من الآية ذم الشح جداً، وقد وردت أخبار كثيرة بذمه، أخرج الحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن مردويه عن أنس مرفوعاً «ما محق الإسلام محق الشح شيء قط»، وأخرج ابن أبي شيبة والنسائي والبيهقي في الشعب والحاكم وصححه عن أبي هريرة مرفوعاً «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان نار جهنم في جوف عبد أبداً ولا يجتمع الإيمان والشح في قلب عبد أبداً».

وأخرج أبو داود والترمذي ـ وقال غريب ـ والبخاري في الأدب وغيرهم عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً «خصلتان لا يجتمعان في جوف مسلم البخل وسوء الخلق» وأخرج ابن أبي الدنيا وابن عدي والحاكم والخطيب عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «خلق الله تعالى جنة عدن وغرس أشجارها بيده ثم قال لها: انطقي فقالت: قد أفلح المؤمنون فقال الله عز وجل: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾.

وأخرج أحمد والبخاري في الأدب ومسلم والبيهقي عن جابر بن عبد الله أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح قد أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» إلى غير ذلك من الأخبار، لكن ينبغي أن يعلم أن تقوى الشح لا تتوقف على أن يكون الرجل جواداً بكل شيء، فقد أخرج عبد بن حميد وأبو يعلى والطبراني والضياء عن مجمع بن يحيى مرفوعاً «بريء من الشح من أدى الزكاة وقرى الضيف وأدى في النائبة».

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله ما يقرب منه، وكذا ابن جرير والبيهقي عن أنس، وأخرج ابن المنذر عن علي كرم الله تعالى وجهه قال: من أدى زكاة ماله فقد وقى شح نفسه، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ﴾ عطف عند الأكثرين أيضاً على المهاجرين، والمراد بهؤلاء قيل: الذين هاجروا حين قوي الإسلام، فالمجيء حسي وهو مجيئهم إلى المدينة، وضمير ﴿من بعدهم﴾ للمهاجرين الاولين، وقيل: هم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم

القيامة، فالمجيء إما إلى الوجود أو إلى الإيمان، وضمير ﴿**من بعدهم**﴾ للفريقين المهاجرين والأنصار، وهذا هو الذي يدل عليه كلام عمر رضي الله تعالى عنه وكلام كثير من السلف كالصريح فيه، فالآية قد استوعبت جميع المؤمنين، وجملة قوله تعالى: ﴿**يَقُولُونَ**﴾ الخ حالية، وقيل: استئناف ﴿**رَبَّنَا آغفر لَنَا ولإخْواننا**﴾ أي في الدين الذي هو أعز وأشرف عندهم من النسب ﴿**ٱلَّذينَ سَبَقُونَا بالإيمان**﴾ وصفوهم بذلك اعترافاً بفضلهم ﴿**وَلَا تَجْعَل في قُلُوبنَا غلاً**﴾ أي حقداً، وقرىء غمراً ﴿**لِّلَّذينَ آمَنُوا**﴾ على الاطلاق ﴿**رَبَّنَا إنَّكَ رَؤوفٌ رَّحيمٌ**﴾ أي مبالغ في الرأفة والرحمة. فحقيق بأن تجيب دعاءنا، وفي الآية حث على الدعاء للصحابة وتصفية القلوب من بغض أحد منهم، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وجماعة عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي ﷺ فسبوهم ثم قرأت هذه الآية ﴿**والذين جاؤوا**﴾ الخ.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه سمع رجلاً وهو يتناول بعض المهاجرين فدعاه فقرأ عليه ﴿**للفقراء المهاجرين**﴾ الآية، ثم قال: هؤلاء المهاجرون أفمنهم أنت؟ قال: لا، ثم قرأ عليه ﴿**والذين تبوؤوا الدار والإيمان**﴾ الآية، ثم قال: هؤلاء الأنصار أفمنهم أنت؟ قال: لا، ثم قرأ عليه ﴿**والذين جاؤوا من بعدهم**﴾ الآية، ثم قال: أفمن هؤلاء أنت؟ قال: أرجو قال: لا والله ليس من هؤلاء من سب هؤلاء.

وفي رواية أن ابن عمر رضي الله تعالى عنه بلغه أن رجلاً نال من عثمان رضي الله تعالى عنه فدعاه فقرأ عليه الآيات وقال له ما قال، وقال الإمام مالك: من كان له في أحد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم قول سيء أو بغض فلا حظّ له في الفيء أخذاً من هذه الآية، وفيها ما يدل على ذم الغل لأحد من المؤمنين، وفي حديث أخرجه الحكيم الترمذي والنسائي عن أنس رضي الله تعالى عنه «أن النبي ﷺ قال: في أيام ثلاثة يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلع فيها رجل من الأنصار فبات معه عبد الله بن عمرو بن العاص ثلاث ليال مستكشفاً حاله فلم ير له كثير عمل فأخبره الخبر فقال له: ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي غلاً لأحد من المسلمين ولا أحسده على خير أعطاه الله تعالى إياه فقال له عبد الله: هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق ـ وفي رواية ـ أنه قال: لو كانت الدنيا لي فأخذت مني لم أحزن عليها ولو أعطيتها لم أفرح بها وأبيت وليس في قلبي غل على أحد فقال عبد الله: لكني أقوم الليل وأصوم النهار ولو وهبت لي شاة لفرحت بها ولو ذهبت لحزنت عليها والله لقد فضلك الله تعالى علينا فضلاً بيّناً» هذا وذهب بعضهم إلى أن قوله تعالى: ﴿**والذين تبوؤوا**﴾ الخ مبتدأ، وجملة ﴿**يحبون**﴾ الخ خبره، والكلام استئناف مسوق لمدح الأنصار، وجوز كون ذلك معطوفاً على ﴿**أولئك**﴾ فيفيد شركة الانصار للمهاجرين في الصدق، وجملة ﴿**يحبون**﴾ الخ إما استئناف مقرر لصدقهم أو حال من ضمير ﴿**تبوؤوا**﴾ وإلى أن قوله تعالى: ﴿**والذين جاؤوا**﴾ الخ مبتدأ، وجملة ﴿**يقولون**﴾ الخ خبره، والجملة معطوفة على الجملة السابقة مسوقة لمدح هؤلاء بمحبتهم من تقدمهم من المؤمنين ومراعاتهم لحقوق الأخوة في الدين والسبق بالإيمان كما أن ما عطفت عليه من الجملة السابقة لمدح الأنصار.

واستدل لعدم عطف ﴿**الذين تبوؤوا**﴾ على ﴿**المهاجرين**﴾ بما روي أن النبي عليه الصلاة والسلام قسم أموال بني النضير على المهاجرين ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة كما تقدم، وقال عليه الصلاة والسلام لهم: إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم من هذه الغنيمة وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة فقالوا: بل نقسم لهم ـ أي للمهاجرين ـ من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها» فنزلت الآية ﴿**والذين تبوؤوا الدار والإيمان**﴾ إلى آخره، وبعض القائلين بالعطف يقولون: إن قوله تعالى:

﴿**والذين تبوؤوا**﴾ الخ بيان لحكم الأخماس الأربعة على معنى أن له عليه الصلاة والسلام أن يعم الناس بها حسب اختياره وأن الأنصار مصرف من المصارف، ولكن قد اختار صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكون إعطاؤهم بالشرط الذي ذكره عليه الصلاة والسلام لهم، وهم اختاروا ما اختاروا إيثاراً منهم، وذلك لا يخرجهم عن كونهم مصرفاً بل في قوله تعالى: ﴿**ويؤثرون على أنفسهم**﴾ رمز إليه على أن في الأخبار ما هو أصح وأصرح في الدلالة على عطفهم على ما تقدم، وأنهم يعطون من الفيء، وكذا عطف ـ الذين جاؤوا من بعدهم ـ فقد اخرج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حيان وغيرهم عن مالك بن أوس بن الحدثان في حديث طويل أن عمر رضي الله تعالى عنه قال ـ أي في قضاء بين علي كرم الله تعالى وجهه وعمه العباس رضي الله تعالى عنه في فدك، وقد كان عمر دفعها إليهما وأخذ عليهما عهد الله تعالى على أن يعملا فيها بما كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يعمل به فيها فتنازعا ـ إن الله تعالى قال: ﴿**ما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير**﴾ فكانت لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خاصة، ثم قال سبحانه: ﴿**ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فللّه وللرسول ولذي القربى**﴾ إلى آخر الآية، ثم والله ما أعطاها هؤلاء وحدهم حتى قال تعالى: ﴿**للفقراء المهاجرين الذي أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون**﴾، ثم والله ما جعلها لهؤلاء وحدهم حتى قال سبحانه: ﴿**والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**رحيم**﴾ فقسمها هذا القسم على هؤلاء الذين ذكر، ولئن بقيت ليأتين الرويعي بصنعاء حقه ودمه في وجهه، وظاهر هذا الخبر يقتضي أن للمهاجرين سهماً غير السهام السابقة فلا يكون ﴿**للفقراء**﴾ بدل من ـ لذي القربى ـ وما بعده ولا مما بعده دونه، وكذا ظاهر ما في مصحف عبد الله وزيد بن ثابت كما أخرجه ابن الأنباري في المصاحف عن الأعمش ـ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فللّه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والمهاجرين في سبيل الله ـ على أن الإبدال يقتضي ظاهراً كون اليتامى مهاجرين أخرجوا من ديارهم وأموالهم إلى آخر الصفات، وفي صدق ذلك عليهم بعد، وكذا يقتضي كون ابن السبيل كذلك، وفيه نوع بعد أيضاً كما لا يخفى فلعله اعتبر تعلقه بفعل محذوف والجملة استئناف بياني، وذلك أنهم كانوا يعلمون أن الخمس يصرف لمن تضمنه قوله تعالى: ﴿**فللّه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل**﴾ فلما ذكر ذلك انقدح في أذهانهم أن المذكورين مصرف الخمس ولم يعلموا مصرف الأخماس الأربعة الباقية فكأنهم قالوا: فلمن تكون الأخماس الأربعة الباقية أو فلمن يكون الباقي؟ فقيل: تكون الأخماس الاربعة الباقية أو يكون الباقي ﴿**للفقراء المهاجرين**﴾ إلى آخره ولم أر من تعرض لذلك فتأمل، والله تعالى الهادي إلى أحسن المسالك.

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ

قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

﴿أَلَم تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ حكاية لما جرى بين الكفرة والمنافقين من الأقوال الكاذبة والأحوال الفاسدة وتعجيب منها بعد حكاية محاسن أحوال المؤمنين على اختلاف طبقاتهم. والخطاب لرسول الله عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب والآية كما أخرج ابن إسحاق وابن المنذر وأبو نعيم عن ابن عباس في رهط من بني عوف منهم عبد الله بن أبيّ بن سلول ووديعة بن مالك وسويد وداعس بعثوا إلى بني النضير بما تضمنته الجمل المحكية بقوله تعالى: **﴿يَقُولُونَ﴾** الخ.

وقال السدي: أسلم ناس من بني قريظة والنضير وكان فيهم منافقون فبعثوا إلى بني النضير ما قص الله تعالى، والمعول عليه الأول، وقوله سبحانه: **﴿يقولون﴾** استئناف لبيان المتعجب منه، وصيغة المضارع للدلالة على استمرار قولهم، أو لاستحضار صورته، واللام في قوله عز وجل: **﴿لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهلِ الكتاب﴾** للتبليغ؛ والمراد بإخوتهم الإخوة في الدين واعتقاد الفكرة أو الصداقة، وكثر جمع الأخ مراداً به ما ذكر على إخوان، ومراداً به الأخوة في النسب على إخوة، وقل خلاف ذلك، واللام في قوله تعالى: **﴿لَئِن أُخرِجتُم﴾** موطئة للقسم؛ وقوله سبحانه **﴿لَنَخرُجَنَّ مَعَكُم﴾** جواب القسم أي والله لئن أخرجتم من دياركم قسراً لنخرجن من ديارنا معكم البتة ونذهبن في صحبتكم أينما ذهبتم **﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُم﴾** في شأنكم **﴿أَحَداً﴾** يمنعنا من الخروج معكم وهو لدفع أن يكونوا وعدوهم الخروج بشرط أن يمنعوا منه **﴿أَبَداً﴾** وإن طال الزمان، وقيل: لا نطيع في قتالكم أو خذلانكم، قال في الإرشاد: وليس بذاك لأن تقدير القتال مترقب بعد، ولأن وعدهم لهم على ذلك التقدير ليس مجرد عدم طاعتهم لمن يدعوهم إلى قتالهم بل نصرتهم عليه كما ينطق به قوله تعالى: **﴿وَإِن قُوتِلتُم لَنَنصُرَنَّكُم﴾** أي لنعاوننكم على عدوكم على أن دعوتهم إلى خذلان اليهود مما لا يمكن صدوره عن رسول الله ﷺ والمؤمنين حتى يدعوا عدم طاعتهم فيها ضرورة أنها لو كانت لكانت عند استعدادهم لنصرتهم وإظهار كفرهم، ولا ريب في أن ما يفعله عليه الصلاة والسلام عند ذلك قتلهم لا دعوتهم إلى ترك نصرتهم، وأما الخروج معهم فليس بهذه المرتبة من إظهار الكفر لجواز أن يدّعوا أن

خروجهم معهم لما بينهم من الصداقة الدنيوية لا للموافقة في الدين، ونوقش في ذلك، وجواب ﴿إن﴾ محذوف، و ﴿لننصرنكم﴾ جواب قسم محذوف قبل ﴿إن﴾ الشرطية، وكذا يقال فيما بعد على ما هو القاعدة المشهورة فيما إذا تقدم القسم على الشرط ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ في مواعيدهم المؤكدة بالأيمان، وقوله تعالى: ﴿لَئِن أُخرِجُوا لا يَخرُجُونَ مَعَهُم﴾ إلى آخره تكذيب لهم في كل واحد من أقوالهم على التفصيل بعد تكذيبهم في الكل على الإجمال ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُم﴾ وكان الأمر كذلك، والإخبار عن خلفهم في الميعاد قيل: من الإخبار بالغيب وهو من أدلة النبوة وأحد وجوه الإعجاز، وهذا مبني على أن السورة نزلت قبل وقعة بني النضير، وكلام أهل الحديث والسير على ما قيل: يدل على خلافه.

وقال بعض الأجلة: إن قوله تعالى: ﴿يقولون لئن أخرجتم﴾ الخ من باب الإخبار بالغيب بناءً على ما روي أن عبد الله بن أبيّ دس إليهم لا يخرجوا فأطلع الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام على ما دسه ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُم﴾ على سبيل الفرض والتقدير ﴿لَيُوَلُّنَّ﴾ أي المنافقون ﴿الأَدبارَ﴾ فراراً ﴿ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ﴾ بعد ذلك أي يهلكهم الله تعالى ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم، أو ﴿ليولُنَّ﴾ أي اليهود المفروضة نصرة المنافقين إياهم ولينهزمن، ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين، وقيل: الضمير المرفوع في ﴿نصروهم﴾ لليهود، والمنصوب للمنافقين أي ولئن نصر اليهود المنافقين ليولي اليهود الأدبار وليس بشيء، وكأنه دعا قائله إليه دفع ما يتوهم من المنافاة بين ﴿لا ينصرونهم ولئن نصروهم﴾ على الوجه السابق، وقد أشرنا إلى دفع ذلك من غير حاجة إلى هذا التوجيه الذي لا يخفى حاله ﴿لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي أشد مرهوبية على أن ﴿رهبة﴾ مصدر من المبني للمفعول لأن المخاطبين وهم المؤمنين مرهوب منهم لا راهبون ﴿في صُدُورهم منَ الله﴾ أي رهبتهم منكم في السر أشد مما يظهرونه لكم من رهبة الله عز وجل وكانوا يظهرون لهم رهبة شديدة من الله عز وجل، ويجوز أن يراد أنهم يخافونكم في صدورهم أشد من خوفهم من الله تعالى ولشدة البأس والتشجع ما كانوا يظهرون ذلك، قيل: إن ﴿في صدورهم﴾ على الوجه الأول مبالغة وتصوير على نحو رأيته بعيني ﴿ذٰلكَ﴾ أي ما ذكر من كونكم أشد رهبة في صدورهم من الله تعالى ﴿بأَنَّهُم﴾ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ شيئاً حتى يعلموا عظمة الله عز وجل فيخشوه حق خشيته سبحانه وتعالى، والمراد بهؤلاء اليهود، وقيل: المنافقون؛ وقيل: الفريقان ﴿لاَ يُقاتلُونَكُم﴾ أي اليهود والمنافقون، وقيل: اليهود يعني لا يقتدرون على قتالكم ﴿جَميعاً﴾ أي مجتمعين متفقين في موطن من المواطن ﴿إلاَّ في قُرى مُحَصَّنَة﴾ بالدروب والخنادق ونحوها ﴿أو من وَرَاء جُدُر﴾ يتسترون بها دون أن يصحروا لكم ويبارزوكم لقذف الله تعالى الرعب في قلوبهم ومزيد رهبتهم منكم.

وقرأ أبو رجاء والحسن وابن وثاب «جُدْرٍ» بإسكان الدال تخفيفاً، ورويت عن ابن كثير وعاصم والأعمش، وقرأ أبو عمرو وابن كثير في الرواية المشهورة وكثير من المكيين جدار بكسر الجيم وألف بعد الدال وهي مفرد الجدر، والقصد فيه إلى الجنس، أو المراد به السور الجامع للجدر والحيطان.

وقرأ جمع من المكيين وهارون عن ابن كثير «جَدْرٍ» بفتح الجيم وسكون الدال، قال صاحب اللوامح: وهو الجدار بلغة اليمن، وقال ابن عطية: معناه أصل بنيان كسور وغيره، ثم قال: ويحتمل أن يكون من جدر النخل أي من وراء نخلهم إذ هي مما يتقى به عند المصافة ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَديدٌ﴾ استئناف سيق لبيان أن ما ذكر من رهبتهم ليس لضعفهم وجبنهم في أنفسهم فإن بأسهم إذا اقتتلوا شديد وإنما ضعفهم وجبنهم بالنسبة

إليكم بما قذف الله تعالى في قلوبهم من الرعب ﴿تَحْسَبُهُم جَمِيعاً﴾ أي مجتمعين ذوي إلفة واتحاد ﴿وَقُلُوبُهُم شَتَّى﴾ جمع شتيت أي متفرقة لا إلفة بينها يعني أن بينهم إحناً وعدوات فلا يتعاضدون حق التعاضد ولا يرمون عن قوس واحدة، وهذا تجسير للمؤمنين وتشجيع لقلوبهم على قتالهم.

وقرأ مبشر بن عبيد «شَتىً» بالتنوين جعل الألف ألف الإلحاق، وعبد الله ـ وقلوبهم أشت ـ أي أكثر أو أشد تفرقاً ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي ما ذكر من تشتت قلوبهم بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾ شيئاً حتى يعلموا طرق الألفة وأسباب الاتفاق، وقيل: ﴿لا يعقلون﴾ أن تشتت القلوب مما يوهن قواهم المركوزة فيهم بحسب الخلقة ويعين على تدميرهم واضمحلالهم وليس بذاك، وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذينَ من قَبلهم﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره مثلهم أي مثل المذكورين من اليهود بني النضير، أو منهم ومن المنافقين كمثل أهل بدر ـ كما قال مجاهد ـ أو كبني قينقاع ـ كما قال ابن عباس ـ وهم شعب من اليهود الذين كانوا حوالى المدينة غزاهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يوم السبت على رأس عشرين شهراً من الهجرة في شوال قبل غزوة بني النضير حيث كانت في ربيع سنة أربع وأجلاهم عليه الصلاة والسلام إلى أذرعات على ما فصل في كتب السير.

وقيل: أي مثل هؤلاء المنافقين كمثل منافقي الأمم الماضية ﴿قريباً﴾ ظرف لقوله تعالى: ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمرهم﴾ أي ذاقوا سوء عاقبة كفرهم في زمن قريب من عصيانهم أي لم تتأخر عقوبتهم وعوقبوا في الدنيا إثر عصيانهم.

وقيل: انتصاب ﴿قريباً﴾ ـ بمثل ـ إذ التقدير كوقوع مثل الذين، وتعقب بأن الظاهر أنه أريد أن في الكلام مضافاً هو العامل حقيقة في الظرف إلا أنه لما حذف عمل المضاف إليه فيه لقيامه مقامه، ولا يخفى أن المعنى ليس عليه لأن المراد تشبيه المثل بالمثل أي الصفة الغريبة لهؤلاء بالصفة الغريبة للذين من قبلهم دون تشبيه المثل بوقوع المثل، وأجيب بأن الإضافة من إضافة الصفة إلى موصوفها فيرجع التشبيه إلى تشبيه المثل بالمثل فكأنه قيل: مثلهم كمثل الذين من قبلهم الواقع قريباً، وفيه أن ذلك التقدير ركيك وما ذكر لا يدفع الركاكة، والقول بتقدير مضاف في جانب المبتدأ أيضاً أي وقوع مثلهم كوقوع مثل الذين من قبلهم قريباً فيكون قد شبه وقوع المثل بوقوع المثل تعسف لا ينبغي أن يرتكب في الفصيح.

وقيل: إن العامل فيه التشبيه أي يشبهونهم في زمن قريب، وقيل: متعلق الكاف لأنه يدل على الوقوع، وكلا القولين كما ترى، ولا يبعد تعلقه بما تعلقت به الصلة أعني من قبلهم أي الذين كانوا من قبلهم في زمن قريب فيفيد أن قبليتهم قبلية قريبة، ويلزم من ذلك قرب ما فعل بهم وهو المثل، ويكون هذا مطمح النظر في الإفادة ويتضمن تعييرهم بأنهم كانت لهم في أهل بدر؛ أو بني قينقاع أسوة فبعد لم ينطمس آثار ما وقع بهم وهو كذلك على تقدير الوقوع ونحوه، وجملة ﴿ذاقوا﴾ مفسرة للمثل لا محل لها من الإعراب، ويتعين تعلق ﴿قريباً﴾ بما بعد على تقدير أن يراد بمن قبل منافقو الأمم الماضية فتدبر ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لا يقادر قدره، والجملة قيل: عطف على الجملة السابقة وإن اختلفا فعلية واسمية، وقيل: حال مقدرة من ضمير ﴿ذاقوا﴾ وأياً مّا كان فهو داخل في حيز المثل، وقيل: عطف على جملة ـ مثلهم كمثل الذين من قبلهم ـ ولا يخفى بعده، وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيطَانِ﴾ جعله غير واحد خبر مبتدأ محذوف أيضاً أي مثلهم كمثل الشيطان على أن ضمير ـ مثلهم ـ ها هنا للمنافقين وفيما تقدم لبني النضير، وقال بعضهم: ضمير ـ مثلهم ـ المقدر في الموضعين للفريقين، وجعله بعض المحققين خبراً ثانياً للمبتدأ المحذوف في قوله تعالى: ﴿كمثل الذين﴾ على أن الضمير هناك للفريقين إلا أن المثل الأول يخص بني

النضير، والثاني يخص المنافقين، وأسند كل من الخبرين إلى ذلك المقدر المضاف إلى ضميرهما من غير تعيين ما أسند إليه بخصوص ثقة بأن السامع يرد كلا إلى ما يليق به ويماثله كأنه قيل: مثل أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب في حلول العذاب بهم كمثل الذين من قبلهم ومثل المنافقين في إغرائهم إياهم على القتال حسبما نقل عنهم كمثل الشيطان ﴿**إِذْ قَالَ للإنسان اكفُر**﴾ أي أغراه على الكفر إغراء الآمر للمأمور به فهو تمثيل واستعارة ﴿**فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بريءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ الله رَبَّ العالَمينَ**﴾ تبرأ منه مخافة أن يشاركه في العذاب ولم ينفعه ذلك كما قال سبحانه: ﴿**فَكَانَ عاقبَتَهُمَا أَنَّهُمَا في النَّار خالدينَ فيها**﴾ أبد الآبدين ﴿**وَذٰلِكَ**﴾ أي الخلود في النار ﴿**جزاء الظالمينَ**﴾ على الاطلاق دون المذكورين خاصة، والجمهور على أن المراد بالشيطان والإنسان الجنس فيكون التبري يوم القيامة وهو الأوفق بظاهر قوله: ﴿**إني أخاف**﴾ الخ.

وذهب بعضهم إلى أن المراد بالشيطان إبليس، وبالإنسان أبو جهل عليهما اللعنة قال له يوم بدر: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم حتى وقعوا فيما وقعوا قال: إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله الآية، وفي الآية عليه مع ما تقدم عن مجاهد لطيفة، وذلك أنه لما شبه أولاً حال إخوان المنافقين من أهل الكتاب بحال أهل بدر شبه هنا حال المنافقين بحال الشيطان في قصة أهل بدر، ومعنى ﴿**اكفر**﴾ على تخصيص الإنسان بأبي جهل دم على الكفر عند بعض، وقال الخفاجي: لا حاجة لتأويله بذلك لأنه تمثيل.

وأخرج أحمد في الزهد والبخاري في تاريخه والبيهقي في الشعب والحاكم وصححه وغيرهم عن علي كرم الله تعالى وجهه أن رجلا كان يتعبد في صومعته وأن امرأة كانت لها إخوة فعرض لها شيء فأتوه بها فزينت له نفسه فوقع عليها فحملت فجاءه الشيطان فقال: اقتلها فإنهم إن ظهروا عليك افتضحت فقتلها ودفنها فجاؤوه فأخذوه فذهبوا به فبينما هم يمشون إذ جاءه الشيطان فقال: أنا الذي زينت لك فاسجد لي سجدة أنجيك فسجد له أي ثم تبرأ منه وقال له ما قال، فذلك قوله تعالى: ﴿**كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر**﴾ الآية، وهذا الرجل هو برصيصا الراهب، وقد رويت قصته على وجه أكثر تفصيلا مما ذكر وهي مشهورة في القصص، وفي البحر إن قول الشيطان: «إني أخاف الله» كان رياءً وهو لا يمنعه الخوف عن سوء يوقع فيه ابن آدم؛ وقرىء أنا بريء، وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وسليم ابن أرقم ـ فكان عاقبتهما ـ بالرفع على أنه اسم كان، وأنهما الخ في تأويل مصدر خبرها على عكس قراءة الجمهور.

وقرأ عبد الله وزيد بن علي والأعمش وابن أبي عبلة ـ خالدان ـ بالألف على أنه خبر إن، ﴿**وفي النار**﴾ متعلق به، وقدم للاختصاص، وفيها تأكيد له وإعادة تضميره، وجوز أن يكون «في النار» خبر إن، و ـ خالدان ـ خبر ثانياً وهو في قراءة الجمهور حال من الضمير في الجار والمجرور ﴿**يا أَيُّها ٱلَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله**﴾ في كل ما تأتون وتذرون ﴿**وَلتَنظُر نَفْسٌ مَّا قَدَّمَت لغَد**﴾ أي أي شيء قدمت من الأعمال ليوم القيامة عبر عنه بذلك لدنوه دنو الغد من أمسه، أو لأن الدنيا كيوم والآخرة غده يكون فيها أحوال غير الأحوال السابقة، وتنكيره لتفخيمه وتهويله كأنه قيل: «لغد» لا يعرف كنهه لغاية عظمه، وأما تنكير ﴿**نفس**﴾ فلاستقلال الأنفس النواظر كأنه قيل: ولتنظر نفس واحدة في ذلك، وفيه حث عظيم على النظر وتعيير بالترك وبأن الغفلة قد عمت الكل فلا أحد خلص منها، ومنه ظهر ـ كما في الكشف ـ أن جعله من قبيل قوله تعالى: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ [التكوير: ١٤] غير مطابق للمقام أي فهو كما في الحديث «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة» لأن الأمر بالنظر وإن عم لكن المؤتمر الناظر أقل من القليل، والمقصود بالتقليل هو هذا لأن المأمور لا ينظر إليه ما لم يأتمر، وجوز ابن عطية أن يراد بغد يوم الموت، وليس بذاك، وقرأ أبو حيوة ويحيى بن الحارث ـ ولتنظر ـ بكسر اللام، وروي ذلك عن حفص عن عاصم، وقرأ الحسن بكسرها وفتح الراء

جعلها لام كي، وكان المعنى ولكي تنظر نفس ما قدمت لغد أمرنا بالتقوى ﴿**وَٱتَّقُوا اللهَ**﴾ تكرير للتأكيد، أو الأول في أداء الواجبات كما يشعر به ما بعده من الأمر بالعمل وهذا في ترك المحارم كما يؤذن به الوعيد بقوله سبحانه: ﴿**إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ أي من المعاصي، وهذا الوجه الثاني أرجح لفضل التأسيس على التأكيد، وفي ورود الأمرين مطلقين من الفخامة ما لا يخفى، وقيل: إن التقوى شاملة لترك ما يؤثم ولا وجه وجيه للتوزيع والمقام مقام الاهتمام بأمرها، فالتأكيد أولى وأقوى، وفيه منع ظاهر، وكيف لا والمتبادر مما قدمت أعمال الخير كذا قيل، ولعل من يقول بالتأكيد يقول: إن قوله سبحانه: ﴿**إن الله خبير**﴾ الخ يتضمن الوعد والوعيد ويعمم ما قدمت أيضاً، ولعلك مع هذا تميل للتأسيس.

﴿**وَلَا تَكُونَوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ**﴾ أي نسوا حقوقه تعالى شأنه: وما قدروا الله حق قدره ولم يراعوا مواجب أمره سبحانه ونواهيه عز وجل حق رعايتها ﴿**فَأَنساهُم**﴾ الله تعالى بسبب ذلك ﴿**أَنفُسَهُم**﴾ أي جعلهم سبحانه ناسين لها حتى لم يسعوا بما ينفعها ولم يفعلوا ما يخلّصها، أو أراهم جل جلاله يوم القيامة من أهوال ما أنساهم أنفسهم أي أراهم أمراً هائلاً وعذاباً أليماً، ونسيان النفس حقيقة قيل: مما لا يكون لأن العلم بها حضوري، وفيه نظر وإن نص عليه ابن سينا وأشياعه ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ**﴾ الكاملون في الفسوق.

وقرأ أبو حيوة ـ ولا يكونوا ـ بياء الغيبة على سبيل الالتفات، وقال ابن عطية: كناية عن نفس المراد بها الجنس ﴿**لا يَسْتَوِي أَصحابُ النَّار**﴾ الذين نسوا الله تعالى فاستحقوا الخلود في النار ﴿**وَأَصحابُ الجنَّة**﴾ الذين اتقوا الله فاستحقوا الخلود في الجنة، ولعل تقديم أصحاب النار في الذكر للإيذان من أول الأمر بأن القصور الذي ينبىء عنه عدم الاستواء من جهتهم لا من جهة مقابليهم فإن مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصاناً وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد لكن المتبادر اعتباره بحسب نقصان الناقص، وعليه قوله تعالى: ﴿هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور﴾ [الرعد: ١٦] إلى غير ذلك.

ولعل تقديم الفاضل في قوله تعالى: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ [الزمر: ٩] لأن صفته ملكة لصفة المفضول الإعدام مسبوقة بملكاتها، والمراد بعدم الاستواء عدم الاستواء في الأحوال الأخروية كما ينبىء عنه التعبير عن الفريقين بصاحبية النار وصاحبية الجنة، وكذا قوله تعالى: ﴿**أَصحابُ الجَنَّة هُمُ الفائِزُونَ**﴾ فإنه استئناف مبين لكيفية عدم الاستواء بينهما أي هم الفائزون في الآخرة بكل مطلوب الناجون عن كل مكروه، والآية تنبيه للناس وإيذان بأنهم لفرط غفلتهم وقلة فكرتهم في العاقبة وتهالكهم على إيثار العاجلة واتباع الشهوات الزائلة كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار والبون العظيم بين أصحابهما وأن الفوز مع أصحاب الجنة فمن حقهم أن يعلموا ذلك وينبهوا عليه، وهذا كما تقول لمن عق أباه: هو أبوك تجعله بمنزلة من لا يعرفه فتنبهه على حق الأبوة الذي يقتضي البر والتعطف، ومما ذكر يعلم ضعف استدلال أصحاب الشافعي رضي الله تعالى عنه بالآية على أن المسلم لا يقتل بالكافر، وأن الكفار لا يملكون أموال المسلمين بالقهر، وانتصر لهم بأن لهم أن يقولوا: لما حث سبحانه على التقوى فعلاً وتركاً وزجر عز وجل عن الغفلة التي تضادها غاية المضادة بذكر غايتها أعني نسيان الله تعالى ترشيحاً للتقريع أردفه سبحانه بأن أصحاب التقوى وأصحاب هذه الغفلة لا يستوون في شيء مّا، وعبر عنهم بأصحاب الجنة وأصحاب النار زيادة تصوير وتبيين، فالمقام يقتضي التباين في حكمي الدارين وإن كان المقصود بالقصد الأول تباينهم في الدار التي هي المدار، وأنت تعلم أن بيان اقتضاء المقام ذلك في مقابلة قول أصحاب أبي حنيفة. إن المقام يقتضي التخصيص وإلا فالشافعية يقولون: إن العموم مدلول نفي المساواة لغة لأن النفي داخل على مسمى المساواة

فلا بد من انتفائها من جميع الوجوه إذ لو وجدت من وجه لما كان مسماها منتفياً وهو خلاف مقتضى اللفظ، وقول الحنفية: إن الاستواء مطلقاً أعم من الاستواء من كل وجه ومن وجه دون وجه، والنفي إنما دخل على الاستواء الأعم فلا يكون مشعراً بأحد القسمين الخاصين.

وحاصله أن الأعم لا يشعر بالأخص فيه إن ذلك في الإثبات مسلم وفي النفي ممنوع، ألا ترى أن من قال: ما رأيت حيواناً وكان قد رأى إنساناً مثلاً عد كاذباً؟ وتمام ذلك في كتب الأصول، والإنصاف أن كون المراد هنا نفي الاستواء في الأمور الأخروية ظاهر جداً فلا ينبغي الاستدلال بها على ما ذكر.

﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذا القُرآنَ**﴾ العظيم الشأن المنطوي على فنون القوارع ﴿**عَلَى جبَل**﴾ من الجبال أو جبل عظيم ﴿**لَرَأيتَهُ**﴾ مع كونه علماً في القسوة وعدم التأثر مما يصادمه ﴿**خاشعاً مُّتَصَدِّعاً مِّن خَشيَةِ الله**﴾ أي متشققاً منها.

وقرأ أبو طلحة مصدعاً بإدغام التاء في الصاد، وهذا تمثيل وتخييل لعلو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ والزواجر، والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر ما فيه من القوارع وهو الذي لو أنزل على جبل وقد ركب فيه العقل لخشع وتصدع، ويشير إلى كونه تمثيلاً قوله تعالى: ﴿**وَتلْكَ الأَمثَالُ نَضربُهَا للنَّاس لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ فإن الإشارة فيه إلى قوله تعالى: ﴿**لو أنزلنا**﴾ الخ وإلى أمثاله، فالكلام بتقدير وقوع تلك، أو المراد تلك وأشباهها والأمثال في الأغلب تمثيلات متخيلة ﴿**هُوَ الله الَّذي لا إلٰه إلا هُوَ**﴾ وحده سبحانه ﴿**عَالـمُ الغَيب**﴾ وهو ما لم يتعلق به علم مخلوق وإحساسه أصلاً وهو الغيب المطلق ﴿**وَالشَّهَادَة**﴾ وهو ما يشاهده مخلوق.

قال الراغب: الشهود والشهادة الحضور مع المشاهدة إما بالبصر أو بالبصيرة، وقد يعتبر الحضور مفرداً لكن الشهود بالحضور المجرد أولى والشهادة مع المشاهدة أولى، وحمل الغيب على المطلق هو المتبادر، وأل فيه للاستغراق إذ لا قرينة للعهد، ومقام المدح يقتضيه مع قوله تعالى: ﴿علام الغيوب﴾ [المائدة: ١٠٩، ١١٦، التوبة: ٧٨، سبأ: ٤٨] فيشمل كل غيب واجباً كان أو ممكناً موجوداً أو معدوماً أو ممتنعاً لم يتعلق به علم مخلوق، ويطلق الغيب على ما لم يتعلق به علم مخلوق معين وهو الغيب المضاف أي الغيب بالنسبة إلى ذلك المخلوق وهو على ما قيل: مراد الفقهاء في قولهم: مدعي علم الغيب كافر، وهذا قد يكون من عالم الشهادة كما لا يخفى، وذكر الشهادة مع أنه إذا كان كل غيب معلوماً له تعالى كان كل شهادة معلوماً له سبحانه بالطريق الأولى من باب قوله عز وجل: ﴿لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ [الكهف: ٤٩]، وقيل: الغيب ما لا يقع عليه الحس من المعدوم أو الموجود الذي لا يدرك، والشهادة ما يقع عليه الإدراك بالحس.

وقال الإمام أبو جعفر رضي الله تعالى عنه: الغيب ما لم يكن والشهادة ما كان، وقال الحسن: الغيب السر والشهادة العلانية، وقيل: الأول الدنيا بما فيها والثاني الآخرة بما فيها، وقيل: الأول الجواهر المجردة وأحوالها والثاني الأجرام والأجسام وأعراضها، وفيه أن في ثبوت المجردات خلافاً قوياً، وأكثر السلف على نفيها، وتقديم الغيب لأن العلم به كالدليل على العلم بالشهادة، وقيل: لتقدمه على الشهادة فإن كل شهادة كان غيباً وما برز ما برز إلا من خزائن الغيب، وصاحب القيل الأخير يقول: إن تقديم الغيب لتقدمه في الوجود وتعلق العلم القديم به، واستدل بالآية على أنه تعالى عالم بجميع المعلومات، ووجهه ما أشرنا إليه، وتتضمن على ما قيل: دليلاً آخر عليه لأنها تدل على أنه لا معبود إلا هو ويلزمه أن يكون سبحانه خالقاً لكل شيء بالاختيار كما هو الواقع في نفس الأمر، والخلق بالاختيار يستحيل بدون العلم، ومن هنا قيل: الاستدلال بها على هذا المطلب أولى من الاستدل بقوله تعالى: ﴿والله

بكل شيء عليم ﴾ [البقرة: ٢٨٢، النساء: ١٧٦، النور: ٣٥، ٦٤، الحجرات: ١٦، التغابن: ١١] ﴿هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ برحمة تليق بذاته سبحانه، والتأويل وإن ذكره علماء أجلاء من الماتريدية والأشاعرة لا يحتاج إليه سلفي كما حقق في التمييز وغيره.

﴿هُوَ اللهُ الَّذي لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ كرر لإبراز كمال الاعتناء بأمر التوحيد ﴿المَلِكُ ﴾ المتصرف بالأمر والنهي، أو المالك لجميع الاشياء الذي له التصرف فيها، أو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء ويستحيل عليه الاذلال، أو الذي يولي ويعزل ولا يتصور عليه تولية ولا عزل، أو المنفرد بالعز والسلطان، أو ذو الملك والملك خلقه، أو القادر أقوال حكاها الآمدي، وحكي الأخير عن القاضي أبي بكر ﴿القُدُّوسُ ﴾ البليغ في النزاهة عما يوجب نقصاناً، أو الذي له الكمال في كل وصف اختص به، أو الذي لا يحدّ ولا يتصور، وقرأ أبو السمال وأبو دينار الأعرابي «القَدُّوسُ» بفتح القاف وهو لغة فيه لكنها نادرة، فقد قالوا: فعول بالضم كثير، وأما بالفتح فيأتي في الأسماء ـ كسمور وتنور وهبود ـ اسم جبل باليمامة، وأما في الصفات فنادر جداً، ومنه سبوح بفتح السين ﴿السَّلامُ ﴾ ذو السلامة من كل نقص وآفة مصدر وصف به للمبالغة، وعن الجبائي هو الذي ترجى منه السلامة، وقيل: أي الذي يسلم على أوليائه فيسلمون من كل مخوف ﴿المُؤمِنُ ﴾ قيل: المصدق لنفسه ولرسله عليهم السلام فيما بلغوه عنه سبحانه إما بالقول أو بخلق المعجزة، أو واهب عبادة الأمن من الفزع الأكبر أو مؤمنهم منه إما بخلق الطمأنينة في قلوبهم أو بإخبارهم أن لا خوف عليهم، وقيل: مؤمن الخلق من ظلمه، وقال ثعلب: المصدق المؤمنين في أنهم آمنوا، وقال النحاس: في شهادتهم على الناس يوم القيامة؛ وقيل: ذو الأمن من الزوال لاستحالته عليه سبحانه، وقيل: غير ذلك، وقرأ الإمام أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهم ـ وقيل ـ أبو جعفر المدني «المؤمن» بفتح الميم على الحذف والإيصال كما في قوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي المؤمن به.

وقال أبو حاتم: لا يجوز إطلاق ذلك عليه تعالى لإيهامه ما لا يليق به سبحانه إذ المؤمن المطلق من كان خائفاً وآمنه غيره، وفيه أنه متى كان ذلك قراءة ولو شاذة لا يصح هذا لأن القراءة ليست بالرأي ﴿المُهَيمِنُ ﴾ الرقيب الحافظ لكل شيء مفيعل من الأمن بقلب همزته هاءً، وإليه ذهب غير واحد، وتحقيقه كما في الكشف أن أيمن على فيعل مبالغة أمن العدو للزيادة في البناء، وإذا قلت: أمن الراعي الذئب على الغنم مثلاً دل على كمال حفظه ورقبته، فالله تعالى أمن كل شيء سواه سبحانه على خلقه وملكه لإحاطة علمه وكمال قدرته عز وجل ثم استعمل مجرد الدلالة بمعنى الرقيب والحفيظ على الشيء من ذكر المفعول بلا واسطة للمبالغة في كمال الحفظ كما قال تعالى: ﴿ومهيمناً عليه ﴾ [المائدة: ٤٨] وجعله من ذاك أولى من جعله من الأمانة نظراً إلى أن الأمين على الشيء حافظ له إذ لا ينبىء عن المبالغة ولا عن شمول العلم والقدرة، وجعله في الصحاح اسم فاعل من آمنه الخوف على الأصل فأبدلت الهمزة الأصلية ياءً كراهة اجتماع الهمزتين وقلبت الأولى هاءً كما في هراق الماء، وقولهم في إياك: هياك كأنه تعالى بحفظه المخلوقين صيرهم آمنين، وحرف الاستعلاء ـ كمهيمناً عليه ـ لتضمين معنى الاطلاع ونحوه، وأنت تعلم أن الاشتقاق على ما سمعت أولاً أدل والخروج عن القياس فيه أقل، وظاهر كلام الكشف أنه ليس من التصغير في شيء.

وقال المبرد: إنه مصغر، وخطىء في ذلك فإنه لا يجوز تصغير أسمائه عز وجل ﴿العَزِيزُ ﴾ الغالب.

وقيل: الذي لا مثل له، وقيل: الذي يعذب من أراد، وقيل: الذي عليه ثواب العاملين، وقيل: الذي لا يحط عن منزلته، وقيل: غير ذلك ﴿الجَبَّارُ ﴾ الذي جبر خلقه على ما أراد وقسرهم عليه: ويقال في فعله: أجبر، وأمثلة المبالغة

تصاغ من غير الثلاثي لكن بقلة، وقيل: إنه من جبره بمعنى أصلحه، ومنه جبرت العظم فانجبر فهو الذي جبر أحوال خلقه أي أصلحها، وقيل: هو المنيع الذي لا ينال يقال للنخلة إذا طالت وقصرت عنها الأيدي: جبارة، وقيل: هو الذي لا ينافس في فعله ولا يطالب بعلة ولا يحجر عليه في مقدوره.

وقال ابن عباس: هو العظيم، وقيل: غير ذلك ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ البليغ الكبرياء والعظمة لأنه سبحانه بريء من التكليف الذي تؤذن به الصيغة فيرجع إلى لازمه من أن الفعل الصادر عن تأنق أقوى وأبلغ، أو الذي تكبر عن كل ما يوجب حاجة أو نقصاناً ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه لله تعالى عما يشركون به سبحانه، أو عن إشراكهم به عز وجل إثر تعداد صفاته تعالى التي لا يمكن أن يشارك سبحانه في شيء منها أصلاً ﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ﴾ المقدر للأشياء على مقتضى الحكمة، أو مبدع الأشياء من غير أصل ولا احتذاء، ويفسر الخلق بإيجاد الشيء ﴿الْبَارِئُ﴾ الموجد لها بريئة من تفاوت ما تقتضيه بحسب الحكمة والجبلة، وقيل: المميز بعضها عن بعض بالاشكال المختلفة ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ الموجد لصورها وكيفياتها كما أراد.

وقال الراغب: الصورة ما تنتقش بها الأعيان وتتميز بها عن غيرها، وهي ضربان: محسوسة تدركها العامة والخاصة بل الإنسان وكثير من الحيوانات كصورة الفرس المشاهدة. ومعقولة تدركها الخاصة دون العامة كالصورة التي اختص الإنسان بها من العقل والروية والمعاني التي خص بها شيء بشيء، وإلى الصورتين أشار بقوله سبحانه: ﴿خلقناكم ثم صورناكم﴾ [الأعراف: ١١] إلى آيات أخر انتهى فلا تغفل.

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه وحاطب بن أبي بلتعة والحسن وابن السميفع «الْمُصَوَّرَ» بفتح الواو والنصب على أنه مفعول للبارىء، وأريد به جنس المصور، وعن علي كرم الله تعالى وجهه فتح الواو وكسر الراء على إضافة اسم الفاعل إلى المفعول نحو الضارب الغلام، وفي الخانية إن قراءة «الْمُصَوَّر» بفتح الواو هنا تفسد الصلاة؛ ولعله أراد إذا أجراه حينئذ على الله سبحانه، وإلا ففي دعوى الفساد بعد ما سمعت نظر.

﴿لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسنَى﴾ الدالة على محاسن المعاني ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ﴾ من الموجودات بلسان الحال لما تضمنته من الحكم والمصالح التي يضيق عن حصرها نطاق البيان، أو بلسان المقال الذي أوتيه كل منها حسبما يليق به على ما قاله كثير من العارفين، وقد تقدم الكلام فيه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الجامع للكمالات كافة فإنها مع تكثرها وتشعبها راجعة إلى كمال القدرة المؤذن به ﴿الْعزيز﴾ بناءً على تفسيره بالغالب وإلى كمال العلم المؤذن به ﴿الْحكيم﴾ بناءً على تفسيره بالفاعل بمقتضى الحكمة، وفي ذلك إشارة إلى التحلية بعد التخلية كما في قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١] فتأمل ولا تغفل.

ولهذه الآيات فضل عظيم كما دلت عليه عدة روايات، وأخرج الإمام أحمد والدارمي والترمذي وحسنه والطبراني وابن الضريس والبيهقي في الشعب عن معقل بن يسار عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «من قال: حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي وإن مات ذلك اليوم مات شهيداً ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة».

وأخرج الديلمي عن ابن عباس مرفوعاً «اسم الله الأعظم في ست آيات من آخر سورة الحشر».

وأخرج أبو علي عبد الرحمن بن محمد النيسابوري في فوائده عن محمد بن الحنفية أن البراء بن عازب قال لعلي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه: أسألك بالله إلا ما خصصتني بأفضل ما خصك به رسول الله عليه الصلاة

والسلام مما خصه به جبريل مما بعث به الرحمن عز وجل، قال: يا براء إذا أردت أن تدعو الله باسمه الأعظم فاقرأ من أول الحديد عشر آيات وآخر الحشر، ثم قل: يا من هو هكذا وليس شيء هكذا غيره أسألك أن تفعل لي كذا وكذا فوالله يا براء لو دعوت عليّ لخسف بي.

وأخرج الديلمي عن علي كرم الله تعالى وجهه وابن مسعود رضي الله تعالى عنه مرفوعاً إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه قال في قوله تعالى: ﴿**لو أنزلنا**﴾ إلى آخر السورة هي رقية الصداع، وأخرج الخطيب البغدادي في تاريخه قال: أنبأنا أبو عبيد الحافظ أنبأ أبو الطيب محمد بن أحمد بن يوسف بن جعفر المقرىء البغدادي ـ يعرف بغلام ابن شنبوذ ـ أنبأ إدريس بن عبد الكريم الحداد قال: قرأت على خلف فلما بلغت هذه الآية ﴿**لو أنزلنا هذا القرآن على جبل**﴾ قال: ضع يدك على رأسك فإني قرأت على حمزة فلما بلغت هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك فإني قرأت على الأعمش فلما بلغت هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك فإني قرأت على يحيى بن وثاب فلما بلغت هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك فإني قرأت على علقمة والأسود فلما بلغت هذه الآية قالا ضع يدك على رأسك فإنا قرأنا على عبد الله رضي الله تعالى عنه فلما بلغنا هذه الآية قال ضعا أيديكما على رؤوسكما فإني قرأت على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فلما بلغت هذه الآية قال لي: «ضع يدك على رأسك فإن جبريل عليه السلام لما نزل بها إلي قال: ضع يدك على رأسك فإنها شفاء من كل داء إلا السام والسام الموت» إلى غير ذلك من الآثار، والله تعالى أعلم.